

يتقدم

إلى الأستاذ الجليل

الكاتب الكبير والوزير الخطير

حضرة صاحب المعالي محمد حسين هيكل باشا

وزير المعارف العمومية

بخشوع زائد

نسولا يوسا

٨/٦/٩٣٨

نقولا يوسف



قصة مصرية

للمؤلف

* الهام	— قصة مصرية —	مطبعة المجلة الجديدة	١٩٣٧
* الحياة الجديدة	»	» »	١٩٣٦
* نسمات وزوابع		المطبعة العصرية	١٩٢٧
* العالمية		« تحت الطبع »	
* الفردوس	— وحى الصبا		١٩٢٢

كلمة للمؤلف

أعددت قصة «إلهام» للطبع فى عام ١٩٢٧ وكنت يومذاك شابا شاعرى المزاج فى الثالثة والعشرين . ولكنى قدمت عليها فى تلك السنة كتاب « نسمات وزوابع » الذى ظهر فى نوفمبر ١٩٢٧ ثم أودعت القصة فى أحد أدراج مكتبى، وأرغمنى كثير من ظروف الحياة على أن أهمل أمرها عشر سنوات . .

وفى هذه السنة أعدت قراءتها وكنت فى أثناء تلك القراءة كمن يسير بين قبور عزيزة تضم رفاتا مقدسا وذكريات تثير الأشجان . .

وترددت فى أمر طبعها ولكنى خرجت من هذا التردد إلى أن من الجائز تعديل بعض أجزائها ، إذ خيل إلى أن بها بعض المحاسن . .

وهاهى بين يديك أيها القارىء فى ثوبها الساذج مازالت تعلن عن مؤلفها الشاب الذى طوى عهد الأحلام الشعرية الهنيئة وغامر وسط أجواء معتمة من الحقائق المرة . .

وسترى أنها قصة مصرية لاتدور حول غاية معينة من أنواع الاصلاح ، يغلب عليها ذلك النوع التصويرى الذى يصور المناظر والشخصيات والميول والخواطر لاسيما ماينساب منها أحيانا فى الرأس بلا ترتيب ـ. وسترى أن أبطالها من الشباب الذين يتميزون بشعور قوى وقلوب ملتهبة تتبدل عليها شتى الازمات النفسانية فتزيدهم تجاريب فى الحياة وقوة فى الشخصية ـ. ومع أن هذه القصة لاتصور حياة المؤلف إلا أن فيها بعضا من نفسه وتجاريبه ومشاهداته مشتتا فى عدة مواضع ـ

القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٣٧

نقولا يوسف

الفصل الاول

١

يوم الاثنين ٩ ابريل ١٩١٢ ، يوم « شم النسيم » الذى تحتفى فيه مصر كلها بمقدم الربيع فيخرج النـاس زمرا مختلفى الطوائف والطبقـات والأجناس ليقضوا النهار بين الحقول والرياض ، ويستقبلوا الشمس ساعة الشروق ويودعوها عند الغروب .. وهو أيضا عيد الحرية فيه يتخلصون من أغلال المهن وقيود الواجبات ، ويتحررون نهاراً كاملا من محـابسهم فى الغرف الضيقة والمتـاجر الرطبة والمصانع الصاخبة . .

فى ذلك اليوم استيقظت أيضا مدينة دمياط ، الهادئة العجوز ، قبل أن تشرق الشمس . وأخذ نفر من الشباب يطوفون فى ذلك الصباح البا كر الرطب بمنازل أصحابهم يوقظونهم من نومهم ويدلكون أنوفهم بالبصل الأخضر . وتجمع عدد من الصبية لابسين جلابيب واسعة مختلفة الألوان ، ومشوا فى موا كب يقرعون على طبول وصفائح ويهيبون بالنيام أن هبوا . .

وسرعان ما هب الجميع من فرشهم وهرولوا إلى حاجياتهم التى أعدوا بالأمس ثم خرجوا فى جماعات الى الطرقـات المبتلة بندى الفجر ، حاملين سلال الطعـام وأوعية الشراب وآلات الطرب . .

واتجه بعضهم نحو حقول « الشيخ المظلوم » شرقى المدينة ، وسـار آخرون إلى ناحية « غيط النصارى » القريبـة من بحيرة المنزلة ، واكـترى البعض

مراكب شراعية وقوارب المعدية عبروا بها النيل إلى البر الثانى حيث جلسوا فى حلقات مستظلين بالنخيل وأشجار الليمون ، ويمم آخرون شطر «رأس البر» عند ملتقى النيل بالبحر . .

أما الاغنياء فقد لجأوا إلى حدائق قصورهم المطلة على النيل هربا من ضجيج العامة وعبث الدهماء وعيون الرقباء . .

و « وكالة الصابون » !. ذلك البنـاء المـربع الضخم الذى جثم على مقربة من مجرى النيل تسكنه ثلاثون أسرة فى ثلاثـين منزلا متلاصقة ، لازالت على رحابتها قائمة فوق مخازن الاخشاب والصابون منذ نيف ومائة من السنين ، على طراز أبنية القرون الوسطى ، تحيط بفناء فسيح تتوسطه نخلة سامقة عجوز . . هذه « الوكالة» الآمنة طاف أيضا ببيوتها من أيقظ ساكنيها قبل الفجر فهبوا جميعا لتحية الربيع . .

وقد استيقظت هذه العمارة كما يستيقظ الشيخ المثقل بالذكريات والتجارب ، وهى التى شهدت فى غابر مجدها سنوات حافلات بالرخاء وطيب العيش ، يوم كانت نهرها أعراس ولياليها محافل ، ويوم كانت أيامها تمر هادئة كما تمر نسمات الفجر على وجه البحيرة الساجية . . كان ذلك قبل أن تنشب الحـرب العالميـة فتبدل من نعيمها فقرا ومن طمأنينتها قلقا ، وتشتت شمل أسرها فى أنحاء البلاد ، ولا يبقى غير نذير الخراب ينعب فوق أكوام مكدسة من الحجارة والتراب هى كل ما تبقى من ذلك البناء ومن أمثاله . .

وكان يرى من سكانها شرذمة تسعى نحو النيل وقد اختلط نساؤها ورجالها وأطفالها ، وساروا الهوينا بلا نظام يتقدم موكبهم الخواجه جبور الحلبى نحو الشاطئ

المفتول الكبير ، حاملا عودا ودفا وزجاجة ملآى بعرق زحلة - وكان يلبس طربوشا طويلا يضرب لونه الأحمر القانى إلى السواد تتسع دائرته عند الرأس ثم تضيق بالتدريج نحو القمة كأنه أصيص زرع مقلوب - وقد خلع فى ذلك اليوم ملابسه الافرنجية واكتفى منها بجاكتة من الصوف لبسها فوق جلباب واسع من « السكروتة » . .

وكانت تتبعه اسرته وسط زمرة من صبية مختلفى الأعمار ، ونساء ورجال متباينى الجنسيات والاديان ، تؤلف بين قلوبهم بهجة شم النسيم ، والكل فى نشوة الطرب حتى الشيوخ كانوا يترنحون مرحا كالاطفال .

وكانت أسرة نسيم افندى الجابى تاجر الاخشاب تسير على مهل وراء القافلة .. ونسيم افندى هذا رجل متوسط الحال فى الخامسة والاربعين من عمره ، عرف فى البلد بنزاهته ورزانته وكفاحه فى الحياة من أجل إسعاد ذويه . وكان مرتديا الملابس الاوربية الرخيصة ومغطيا رأسه بطربوش قصير وممسكا بيده مذبة من الخوص ، يتحدث تارة مع جاره الحاج زاهر وأخرى مع زوجه وابنتيه وابنه فريد ، مازجا حديثه بالفكاهة التى ألفها عنه أصحابه . .

وإذا بآذان الفجر يسمع فى جو المدينة مناديا « الله أكبر » .. ثم يصحبه صوت أجراس كنيسة اللاتين تدعو الراهبات الى الصلاة كعادتها كل صبح ومساء فتتآلف موسيقى النواقيس مع أناشيد المؤذنين . وتمر لحظة تغمر فيها المدينة فى بحر من الموسيقى الخاشعة العلوية ..

وما هى إلا برهة حتى كانت جماعتنا هذه على شاطىء النيل ، يهبط أفرادها واحدا بعد الآخر إلى جوف مركبين شراعيتين ويتخذ كل منهم مكانه فيهما . .

وتحركت المركبان متجهتين نحو حقول السنانية، وبدأت الشرع تخفق في الريح وتنتفخ ، وأخذت السفينتان تميلان على جانبيهما ، فتعالى الصياح والضحك والغناء ، وجلس كل من « الريس » احمد الزيني والريس المصرى يديران سكانى مركبيهما بحذق وتيقظ ..

وبزغت الشمس من خدرها فألقت المدينة عنها وشاحها القاتم ، وبدت السماء بلون بنفسجي شاحب . ثم ازدانت بألوان وردية وذهبية. وظهرت المآذن العديدة القائمة فى مكانها منذ قرون بلون مرمرى كلون اللآلىء . ورؤيت الدور بيضاء وشهباء مرصوصة على ضفة النيل الشرقية كأنها جموع تتزاحم بالمناكب لترد الماء . .

وإذا بالسفينتين تشقان عباب النهر متسابقتين على مهل، وقد نثرت حولها مراكب أخرى ناشرة شرعا مثلثة بيضاء تخفق فى ريح الشمال كالاجنحة الهائلة، وعدد من خفاف القوارب وصغار الزوارق تسبح كالاوز على وجه الماء . وبعض «الفلايك» الكبيرة ذات الساريات المنيفة محملة بفاكهة الشام، وقوارب «المعدية» تصل بين البلد وبين محطة السكة الحديدية القائمة على الضفة اليسرى. وكان الملاحون ، الهانئون بالرغم من فقرهم ، ينشدون المواويل مع حركات مجاديفهم المنتظمة وهى تعلو وتغيب فى النهر ..

ثم بعدت بيوت المدينة وظهرت أدغال النخيل قائمة كالجبابرة تحرس مدخل النيل . وبدت بعض القرى وقد أيقظ مشرق الشمس أهلها ، فسار الرجال الى الحقل وخرجت القرويات يملأن الجرار من ماء النهر ..

٢

وبعد أربعين دقيقة رست المركبان أمام «السنانية» الجاثمة على شاطىء النيل الغربى ، حيث يقوم كوخ خشبى كبير مكسو بأوراق اللبلاب واللوف ذى الزهر الاصفر المستدير ، بالقرب من مجرى النهر ، ينصت فى هدأة شاملة إلى صخب أمواج البحر الأبيض تحمله ريح الشمال من بعيد . .

وقد اكتنفت ذلك الكوخ حديقة فسيحة الارجاء ، مكتظة بأشجار الليمون والتين والنخيل ومختلف أشجار الفاكهة ..

هو المنزل الصيفى الذى شيده كرم بك شكرى فى مزارعه بالسنانية ، ليقضى فيه مع اسرته شهور الصيف فى كل سنة ، وليشرف عن كثب على أطيانه وبساتينه الواسعة . وكان من اهتمامه بشئونها وعطفه على فلاحيها أن درت عليه وافر المال فعاش فى نعمة وسعة ..

وكان كرم بك فى نحو الثامنة والاربعين من عمره . له وجه ابيض مشرق مثل وجوه الكثيرين من سكان الثغور المصرية حيث يسهل الاختلاط والتزاوج مع أهل الاقطار المجاورة التى يتجرون معها . ذوشاربين غزيرين يفتل طرفيهما الى أعلا . يحب الاجتماعات العائلية والسهرات المرحة ويميل إلى سماع الغناء الشرقى ويعزف على العود أحيانا أدوارا قديمة حفظها فى صباه . لم يفكر فى الزواج حتى ماتت امه ، فتزوج بعد أن أشرف على الاربعين من حسناء تمت بنسب إلى الاغريق الذين نزح بعضهم الى دمياط منذ قرون واتخذوها وطنا نسوا فيه على مر السنين لغتهم وجنسيتهم .. وقد رزق منها منذ تسع سنوات بغلام أسماه سميرا ومنذ عامين بطفلة لطيفة يحبها شديد الحب دعاها بانعام .

وهوفى النهاية رجل دمث الخلق ذو نفس سخية وكف ندية من تلك البقية الباقية من كرام الناس وقد كادوا ينقرضون !.

ونزل الجميع إلى البر حاملين زادهم ومتاعهم مهللين صائحين يتقدمهم نسيم افندى الجابى وزوجه فابنتاهما فابنهما فريد ، وكانت تربطه بكرم بك أواصر الود منذ أيام الصبا . فخرج كرم بك وزوجه السيدة كوثر للقائهم . .

وتبودلت التحيات وسط جلبة وأصوات فرحة عالية . وحط الضيوف رحالهم فى أرض معشوشبة وسط أحراش النخيل والليمون ، وألفوا حلقة واسعة ، ثم أفرغوا أمامهم ما فى جعباتهم من طعام وشراب . .

وماهى إلا برهة حتى بدا على الأرض مزيج مختلف الالوان من الخبز والبيض الملون والفطائر والفسيخ والخس والبرتقال وغيرها . وقدم كرم بك لضيوفه بعض السلال الملأى بالموز والمشمش والتفاح . ثم أخذ الجميع يتناولون طعام الفطور وسط جلبة من الأحاديث والضحكات والنكات . .

وهبت نسمات الشمال من ناحية البحر القريب ندية منعشة معطرة بأريج زهر الليمون والبرتقال، وشذا أزهار الربيع النامية فى بساتين كرم بك ، وتطايرت المداهد وزقزقت العصافير على الاغصان . .

ولما فرغ الجميع من فطورهم احتضن الخواجه جبور عوده وأخذ يعزف «التقاسيم» ثم علا صوته بالغناء فتجاوبت أصداؤه فى جنبات الحديقة . وأقبل نفر من أهل السنانية وعدد من صبايا تلك الناحية المشهورات بملاحتهن ، ووقف الجميع عن كثب ينصتون .

وكان جبور قد أسند ظهره إلى جذع شجرة ليمون بعد أن طوى ساقيه

وتربع ، ووضع بجانبه «بنورة» الزبيب وطبق الخيار ، ولما تملكته الحماسة وعلا صوته اتفق أن سقط على رأسه الاصلع ليمونة كبيرة فزع منها وهم بالقيام بين ضحك السامعين وتصفيقهم . .

ثم اشترك الجمع فى لعبة «السلطة» ثم فى غيرها من الالعاب المسلية وانفرط عقد الصغار فاتخذوا من البستان الفسيح ميدانا للعب والمرح .

ثم خلا المسرح لاثنين من رجال الحقل دعاهما كرم بك ، احدهما شاعر المواويل والثانى موسيقار الريف يحمل مزمارا من الغاب يتدلى من فمه إلى الارض. وبدأت المواويل الريفية الساذجة المعبرة عن عواطف أهل الريف وشجونهم تملأ الفضاء مع نغمات الارغول .. فكانت تلك الالحان تخالطها رنة الأسى تعود بالنفس إلى الفطرة وتجردها من قيود التقاليد فتبدو كطفلة عارية ترقص فى جو البساطة والحرية ..

ومرت الساعات سراعا وحان وقت الغذاء ، فعادت جماعتنا إلى تناول الطعام . ثم تفرقوا وقت الظهيرة تحت ظلال الشجر . واضطجع البعض فوق العشب وجلس آخرون يتسامرون . وظهرت حلقة صغيرة من الشيوخ دار حديثهم حول الايام الغابرة وتحسر بعضهم على مرور تلك الأعياد السالفة التى قضوها فى بهجة وحبور . وأفاضوا فى قص ذكرياتهم التى يستمدون منها القوة والعزاء .. .

وكان قد شمل المحيط آنئذ سكون واغفاء .. ونشرت الطبيعة جناحيها بحنان فوق صغارها من بنى الانسان والحيوان والنبات ، فاستسلم الجميع إلى حنو أمهم ورعايتها . ..

٣

بدأت الشمس تحتجب وراء النخيل ، وأخذ النساء يجمعن حوائجهن. وإذا بكرم بك وزوجه مقبلان يسألان عن صغيرتهما انعام .. فقد كانت تلعب مع الصغار .. لعلها فى الكوخ أو حوله .. ثم هرولا وقد بدا فى وجهيهما القلق فسألا الأولاد وكان الكل قبل برهة لاهيا عنها فى شأنه .. وصاحا بالخادم التى تركتها تلعب ثم عادت فلم تجدها بينهم . .

وهب الجميع يبحثون وراء الأشجار وحول السواقى وعلى شاطىء النيل . .

ودب الفزع فى قلوب النساء فبادرت كل منهن تبحث عن أطفالها وتجمعهم حولها كقطة تخشى على صغارها حيوانا قريبا ،فاذا اطمأنت كل امرأة على أولادها تنهدت كأنما تحمد الله على سلامتهم وعلى أن القرعة المشئومة لم تقع على واحد من أطفالها !

واتصل النبأ بالفلاحين القريبين فجدوا فى البحث والتنقيب . . وزاد اللغط فالبعض يسأل والبعض يجيب .. وآخرون يتغلغلون وسط أحراش النخيل وأشجار البستان .. وتفرق نفر من رجال المزرعة للبحث عنها حاملين الفئوس والبنادق والنبابيت، متسللين فى ظلام المساء بين النخيل ووسط الحقول المترامية الأكناف كأنهم أشباح الليل الغامضة . .

ومضت ساعة طويلة فى البحث عن انعام فى كل ناحية .. وزاد القلق . . والأم ترسل من عينيها الدعجاوين دموعاً غزيرة .. وكرم بك ممتقع اللون يروح ويغدو شديد الحيرة بادى الارتباك ، فهو يحب طفلته حبا يقرب من العبادة ، وهو يعلم أن فى تلك الناحية بعضاً من الذئاب والثعالب تخرج مع الظلام

وتسطو أحيانا على الدجاج والغنم ، ولا تتورع عن افتراس طفل تلقاه وحده ..

وتفرق الجمع إلى شراذم دب فى قلوب كبارها وصغارها الذعر والفزع . وانقلب صفاء العيد إلى هرج واضطراب . ومحا هذا الحادث الجديد ما علق بأذهان المحتفلين من ذكريات النهار . ولم يعد يسمع فى ذلك المكان غير أصوات خافتة تتساءل وتتحدث عن انعام وعن اختفائها العجيب . .

وغربت الشمس وبدأت الظلمة تزحف على الأرض وتكسو المكان كله بثوب رهيب أسود . فأخذت كل اسرة تتجمع فى حلقة ضيقة ترهف السمع تارة وتهمس فى الظلام تارة أخرى . ثم بدأت الجماعات تتحرك نحو منزل كرم بك حيث كان الفانوس المعلق أمام الباب يتمايل فى الريح ويبعث نورا خافتا . فاذا ما أقبل أحد الرجال تساءل الجميع بأصوات مرتجفة : « هل وجدت ؟ »

وكان القوم بين متفائل يقول إنها ضلت الطريق وستعود مع الصباح ، وبين متشائم يهمس بخوفه من سقوطها فى الترعة أو فى النيل ، أو أن أحد اللصوص قد انتهز فرصة العيد وانشغال الجمع فاختطفها ، أو أن ذئبا ضاريا سطا عليها وحملها إلى وجاره ، لاسيما أن آثار أقدام الذئاب ظاهرة بالقرب من ذلك المكان ..

وأخيرا أجمعوا العودة لتبليغ النبأ إلى « بوليس » المدينة . وتخلف نسيم افندى واسرته ليواسوا كرما بك وزوجه وولده ويقضوا الليلة معهم عساهم يبثوا فى قلوبهم الأمل بقرب العثور عليها ، فان رجال المزرعة لن تغمض عيونهم الليلة حتى يعثروا عليها . .

.... المراكب تنساب فى النيل كأنها رؤى من الأساطير .. وجماعات الكيروان تترنم بأغانى المساء . . والنخيل الجاثم على الشاطئين يتوارى فى

الظلام .. والمحتفلون بشم النسيم يؤوبون إلى منازلهم واجمين مكتئبين .. وفى سكينة الفضاء المسربل بالظلمة كان يقرع الآذان غناء آت من بعيد يعلو صارخا للنجوم ثم يخفت بين طيات الظلام ، غناء رجال مختفين فى قاع المراكب أو مجتمعين كالأشباح حول بصيص من نار ..

.... لقد طوى الليل ذلك العيد المرتقب ، ورده جزءا من التاريخ ..

.. إلى الغرف الضيقة ، إلى المتاجر الرطبة ، الى المصانع الصاخبة . . إلى السعى وراء الرزق، حيث لا تسمع زقزقة العصافير ولا أنات السواقى ولا ضحكات المرح والانطلاق . .

.. وهناك فى ذلك الكوخ الخشبي المنفرد بين النخيل تحت جناحى الليل ، كانت تسيل دموع سخينة . . دموع والدين فقدا طفلة حبيبة . .

الفصل الثانى

١

فى ذلك الزمان كان يرى غلامان تجمعهما سن واحدة ومدرسة واحدة ، يجولان فى أوقات الفراغ وأيام العطلة المدرسية فى الطرق الصامتة المحفوفة بالمبانى العتيقة ، ويمران بتلك الدور الخربة التى عصف الدهر بساكنيها فاقترضوا أو ألجأهم السعى وراء الرزق إلى الهجرة من المدينة . .

وكثيراً ما كانا يتمشيان وشاطىء النيل وقد سال هناك تعبا متباطئا كأنما طال عليه المسير.. أو يتحادثان بلغة الصبا فى طريق ريفى طويل تحف به أشجار اللبخ والصفصاف والجميز ، وتحيط بجانبيه الرياض والغياض ، فيؤدى بهما إلى

بحيرة المنزلة ، وقد سجا السكون حولها وأغفى ، وأقفر المكان فلا ترى العين فوق صفحتها اللامعة المترامية نحو الافق غير عدد من قوارب الصيادين تتحرك في تؤدة كالسلاحف . .

وكانا يجلسان فى أمسية الربيع على ضفة الترعة التى تشق الحقول حين تنعكس أشعة القمر على وجهها ، وحين تأخذ الحقول سنة الكرى على نقيق الضفادع وصرير الجنادب .. أو يكتريان قاربا صغيرا يجوسان به خلال النهر ، ويضربان بمجاديفهما فى كل نواحيه ، ويتفرجان بمشهد الشمس وهى تغرب فتعكس أشعتها على المآذن فتحترق بلون البرتقال ..

وفى الصيف كانا يقضيان مع اسرتيهما أياما هنيئة فى « رأس البر» فيسيران حافيى الاقدام فوق السهل الذهبي ، ويستحمان فى الأمواج الهادرة ، ويجلسان « بين الموجتين » عند التقاء النيل بالبحر ، يرقبان زرقة البحر الشاسع إلى أن يخيم عليهما الليل وتغمرهما نسمات الشمال ، ويحدق « الفنار » الرابض على الضفة اليمنى ، بعينه الساهرة ، فى أغوار الفضاء .. فاذا تطلعت عيناهما إلى الأعالى فالسماء صافية تزينها قطع السحب الرقطاء السابحة فى الفضاء تطوى وتنشر فى ضوء القمر ..

وهما فى تلك الجولات بين المزارع والحقول ، وعلى ضفاف الترعة والنيل ، ومجارى المياه وشواطىء البحيرة أو البحر ، يتأملان مايروقهما ، ويستريحان أينما طاب لهما المكان ، ويدرسان الطبيعة وأسرارها بلا قصد . لافى الكتب فهى بعيدة عن أيديهما وعقليهما ، بل فى عالم الله الوسيع الغنى بالعجائب . .

ولم يكن هذان الغلامان غير سمير بن كرم بك شكرى وقد أصبح بعد اختفاء انعام وحيد أبويه ، فتركا له الحبل على الغارب فشب على النعمة والرفاهة والدلال ، ولاقى من حدب والده الجم واعزاز أمه ومحبتهما ملأ نفسه بالصلف ودفع بها إلى طريق شائك محفوف بالظلمات . . ولم يكن الثانى غير فريد الجابى بن نسيم افندى تاجر الاخشاب . وهو فتى كان له منذ صباه شبه نفوذ على أترابه بالرغم من حيائه ووداعته وكان ذا عبقرية ناشئة تبشر بمجد مستقبل فى احدى نواحى الفن . . وكان لتلك البيئة الهادئة المكتنفة بمختلف الصور الطبيعية أثر بين فى نفسه ، فشب على حب الجمال وأخذت نفسه تدخر العناصر التى يشيد عليها مستقبله ، وكان سمير يتبعه أنى ذهب ويحاول أن يحاكيه فى أخلاقه وعاداته

وتمخضت سنة ١٩١٤ وماتلاها من سنين ثلاث عن أهوال وكروب ، إذ نشبت الحرب العالمية جائحة مدمرة وأخذت تشل الاسواق ، وتقطع على المراكب سبلها ، وأصاب دمياط الآمنة المطمئنة من ذلك الاتون شررا فكسدت تجارتها وانزوت مراكبها التى كانت تجوب شرق البحر المتوسط ، وارتفعت أثمان الحاجيات وشح الطعام والكساء فاضطر الكثيرون منهم الى الهجرة من بلدهم فى سبيل العيش

وكان لندرة ورود الأخشاب على متجر نسيم افندى من خارج القطر فى تلك السنوات ولارتفاع أثمان مطالب العيش أثر فى كساد تجارته وقلة موارد رزقه ، فذاقت اسرته كغيرها مرارة الفاقة ، ولكنه كان يبذل الجهد فى سبيل تعليم أولاده . .

ومرت الشهور تتوالى وكرت السنون متلاحقة ، فأتم الصبيان دراستهما الابتدائية ورأت الأسرتان أن ترحلا الى القاهرة إذ ليس فى المدينة مدرسة

ثانوية يلحقان بهما والديهما . ففي القاهرة مجال أوسع لاتمام التعليم وللسعى وراء الرزق . .

٢

فى صيف عام ١٩١٧ هاجرت الاسرتان إلى القاهرة حيث افترقتا . فسكن كرم بك شكرى وزوجه وابنهما سمير فى هليوبوليس . وسكن نسيم افندى واسرته فى منزل متواضع بشبرا . أما الصبيان فالتحقا بالمدرسة التوفيقية وظلا كما كانا صاحبين يتذكران أحيانا أيام الصبا ومسرح الطفولة ويجدان فى تحصيل الدرس. وكان سمير فى ذلك الحين يصحب والديه فى كثير من أوقات الفراغ الى « الاستقبالات » التى تتناوب فى احيائها اسر هليوبوليس فيتعرف الى الفتيان والفتيات اللائى فى سنة ، ويقضى الجميع الوقت فى اللعب الاجتماعية وسماع البيانو والرقص . أما فريد فكان محروماً من كثير من أمثال تلك المتع البريئة وقلما كان يختلف الى المسارح أويساهم فى السهرات الاجتماعية . وكانت أحلى أمانيه أن يحمل كتابا يخلو به فى ناحية من حدائق الروضة أو حقول شبرا أو فى ظلال الاهرام حيث يتغذى بعينه وروحه وعقله . و كثيرا ما كانوا يرونه فى دار الكتب بباب الخلق يقطع بعض ساعات الفراغ فى تصفح كتاب لا يستطيع شراءه .

. . وأتما دراستهما الثانوية وحازا شهادة « البكالوريا » . ولم يمر شهران على ظهور النتيجة حتى مات كرم بك شكرى بعد داء هد قواه ، وترك سميرا يافعاً فى السابعة عشرة ، يسكن مع امه بعد أن ورثا ثروة أبيه وأطيانه . ومالبثت السيدة كوثر أن رأت نفسها كئيبة عليلة لاتقوى على ادارة التركة وشئون المال فوكلت إلى سمير الاشراف على ماخلف أبوه من ثروة وكان قد

سئم التعليم وكره المدارس، واكتفى بما حصل عليه من قشور العلم فخرج الى مدرسة الحياة يجرب ويتعلم ..

أما فريد فقد اضطر إلى مساعدة أسرته فتوظف فى مصلحة الصحة، وأخذ يسعى وراء عيشه منزويا مجهولا فى حجرة عتيقة رطبة، شحيحة الضوء من حجر المصلحة. وكان يخرج كل صباح الى « الديوان » سالكا الطريق نفسه الذى قطعه ألف مرة فى ذهابه وايابه، ثم يجلس إلى مكتب بال يقلب فى مئات الاوراق الحكومية المكدسة أمامه وخلفه، وعشرات « الدوسيهات » المليئة بالخطوط والارقام وقد أكل عليها الدهر وشرب، فيراجع ويكتب ويتثاءب ويرفع ورقة ويضع اخرى، ويكرر ماعمله بالأمس، ويؤجل بعض العمل الى الغد، ويجول بعينيه فى ذلك القبر الذى دفن فيه مواهبه، فيرى شبابا غيره يزاولون مثله ذلك ذلك العمل الآلى منذ سنين، محتملين فوق ذلك « مناكفات » الرؤساء وأنصاف الرؤساء. ثم يعود إلى منزله بشبرا فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ثم يأكل وينام وينهض انسانا جديدا متمردا. ثم يبدأ مطالعاته وكتاباته الخاصة التى يراها فى حياته كل شىء . . .

ومرت الشهور متشابهة متلاحقة، وظهرت لفريد حياته فى صورة كئيبة بشعة، فكان لا ينفك يرى ذلك القبر الذى حفره لنفسه مرغما فى «المصلحة» يزداد جهامة وظلاما فكان يلقى بنفسه فى أحضان الكتب علها تكشف له عن جديد، ثم أخذ ينقع غلته من آراء القدماء والمحدثين، ولكن هذه الآراء لم تنقذ اسرته من الفقر ولازادتها تمتعا بمباهج الحياة. فهو اليوم يساعد أباه الشيخ المريض ويعول امه، وقد تكالبت عليه لوازم الأسرة ومطالب الحياة .

فبدا له أن يستـذكر كتب الحقوق لينال اجازة المحاماة ويزداد بها ربحـه فيتوسل به إلى رفاهية اسرته . وكرس لهذه الفكرة أربع سنوات كان فيها يعمل بمصلحة الصحة نهاراً ويدرس القانون فى ساعات الليل . وكان مثل سائر الطلبة الذين حوله يتمادى به الخيال فى بعض الاحايين فيزعم أنه سيصبـح يوما وزيراً أو زعيما يشيد الناس بذكره ..

وكثيراً ما كان يجلس بمفرده فى غرفته الصغيرة فى ليالى الشتاء القارسة بينما تستغرق أمه وأبوه فى غرفة اخرى فى نوم عميق .. وفى ذلك السكون الذى يتخلله زفيف الرياح وأنات العواصف تتسلل إليه من ثقوب نافذته المقفلة ، كان يقطع شطرا من الليل وهو يقلب كارها صفحات التاريخ الرومانى وقانون العقوبات ثم تمتد يده خلسة إلى درج مكتبه فيخرج دفـترا سميكا يودعـه آراءه وأشعاره وآماله وآلامه فيرفه بذلك عن نفسه قليلا . .

وكانت أمه تستيقظ أحيانا بعد منتصف الليل وترى ضوء المصباح مازال ينبعث من غرفته فتقوم من فراشها وتسأله بحنان أن ينام ليريح جسمه وعينيه..

وفى بعض أيام الخريف كان يراه البعض راكبا ترام شـبرا البلد ، ثم ينزل أمام الحقول الممتدة على جانبى الطريق ، ويمشى فى المزارع حتى يختفى عن الأنظار وهناك يتفيأ ظل شجرة كافور أو يستظل بشجيرات السيسبان التى تحيط بحقول الكرنب والبرسيم ، ويأخذ فى مطالعاته ويترك العنان لأحلامه وتأملاته بعيدا عن الصخب والضجيج . ويذهب ببصره إلى بعيد حيث تبسط الشمس أشعتهـا على تلال المقطم فتتلألأ كالذهب .

ورآه الناس مرة يدخل إلى مسجد بعيد عن هرج المدينة ويجلس على الحصير مسنداً ظهره إلى أحد الأعمدة فى عبادة صامتة. وبعد أيام رأوه جالسا فى كنيسة

خلت من المصلين فعجبوا منه ذلك لأنهم لم يعلموا أنه كان منذ صباه مؤمناً بجميع الأديان !.

وأبصروه غير مرة وهو يتردد على باعة الكتب القديمة بسوق «الكنتو» وغيره ، ويتسلق سلما خشبيا باحثا فى رفوف الكتب المكسوة بالغبار عن كتاب يضمه إلى خزانته . وكثيرا ما كان يطوف على المكتبات ويقف طويلا أمام وجهاتها الزجاجية ليتفرج بمنظر الكتب المرصوصة ويقرأ عنواناتها وأسماء مؤلفيها !.

٣

وكان لانتقال هذين الفتيين من بلد ساذج هادىء إلى عاصمة يعب عبابها وتصطخب أمواجها أثر بين فى تكييف نفسيهما، وكان سمير أكثر قابلية لهذا التغيير. فاستفادا دروسا وتجارب ، وعاينا وجه الشر كالحا وجسم الرذيلة بغيضا . ثم كان للثورة المصرية عام ١٩١٩ ما أيقظ فى نفسيهما روحا جديدة تتعشق الحرية والاستقلال .

ومنذ هاجرت اسرة نسيم الجابى إلى القاهرة لازمها سوء الطالع ، وما كادت سنو الحرب العظمى تنقشع بأهوالها وكروبها حتى أخذ عقد تلك الاسرة الصغيرة ينفرط ، وشرع الموت يحصد شيوخها وشبابها . وقدر لفريد أن يقف بجانب مضاجعهم وهم يحتضرون ويموتون ، وقدر له أن يشيعهم إلى حيث يرقد الموتى ، وينظر إلى حفار القبور وهو يهيل التراب فوق نعوشهم . فاندست تلك الرؤى الحزينة فى عقله الباطن واحتبست فيه لتخطر على باله فى أوقات مختلفة من أيام حياته • .

وزاد فى همومه تلك الأعوام الطويلة التى قضاها فى المدارس بين كتب لا يستسيغها ذوقه ورفاق لا تربط نفسه بنفوسهم مشابهة ولا صلة ، فعاش غريبا بين صحبه ، غريبا بين أسرته ، غريبا فى هذا العالم الوسيع ..

وكان لاعتكافه وحيائه وكبته ما يجيش فى نفسه من ميول الشباب ، وما تحركه فيها حيويته القوية أثر فى قوة خياله وملكة الشعر فيه . وأخذ فى أحايين كثيرة يحلم بالمرأة ، لا بامرأة معينة بل بالمرأة ككائن جميل عجيب يملأ فراغ وحدته ويغذى أحلامه ويكمل ذلك النقص الذى تحس به نفسه ويتعطش إليه خياله ...

فهو يحب الحب قبل أن يعرفه ، وهو يرى فى أحلام يقظته ونومه أنه يمرح ويسرح فى مروج وجنات مع ذلك المحبوب الذى غمر قلبه بكل طيب وجميل .

وهو يتسمع أصداء صوت تلك المرأة التى تنتشل نفسه الحائرة من ضبابة المادة إلى أثير صاف تتطاير فيه بأجنحة من نور ونار !

ومات أبوه .. ولحقت به أمه قبيل اتمامه دراسة الحقوق .. وخلفاه فى معمعة الحياة وحيدا ، فعاد يبحث فى نفس سمير ، صديق صباه ، عن مرفأ يلجأ اليه فى وحدته ، فاذا به يجد ذلك المرفأ مضطربا ثائرا لا يستقر على حال !.

وانساق فريد مع الجحفل البشرى مندمجا فى الزحام محمولا مع التيار . وأخذ فى وحدته يتلهى بوضع خطة لحياته المستقبلة ، فهو وقد خرج للكفاح وسط مجتمع مائج يتنازع البقاء لا بد له من التسلح بارادة قوية وصبر جميل ليعيش كما تعيش مخلوقات الله . وعليه أن يسيطر على أحلامه ويهبط الى أرض الحقيقة . ولكنه بالرغم منه كان يعود فيرتمى فى أحضان الكتب ممعنا فى قراءتها واستيعابها ..



وكان سمير يسعى فى بعض الأحايين إلى زيارة فريد والتجول معه من آن

لآخر فى أنحاء القاهرة، ثم فاجأه القدر ففجع فى أمه بعد أن برتها العلة، فبات أيضا وحيداً وسط الجموع . لـكنه لهى بماله ومتعه ولم يعد يفكر إلا فى لذات جديدة تغمر حاضره وتنسيه ماضيه . وخشى فريد على صاحبه من شر المال لانه يراه «كالنهر المنحدر إلى مصبه ان سار هادئا زاد نفعه واستفاد منه الناس وإن ثار خرب وأغرق» ..

ففى تلك «الشقة» الصغيرة المطلة على حديقة واسعة لأحد أغنياء شبرا حيث كان فريد يعيش وحده ، كان سمير يطرق صاحبه فى أحايين قليلة فيلقى فى تلك الدار الفقيرة واحة لروحه القلق الذى زاده المال جموحا . فكانا يتحادثان كعادتهما ويتحاوران ، وكانا يتذكران عهدى الطفولة وما ذاقاه فيه من حلو ومر ..

وكان سمير فى هذا الحين يزينه رونق الشباب ويزيده المال جاها وغرورا . وكان فيما مضى حييا وديعا ، لـكنه سرعان ما انقاد للشباب والفراغ وانطلق يعيش عابثاً مستهترا قانعا بذلك القدر من التعليم السطحى والاطلاع التافه الذى حصل عليه أيام التعليم الثانوى . ولـكنه بذلك التفكير المحدود وبذلك الجانب من الذكاء الطبعى فيه، كان يعرف كيف يتأنق وكيف يلهو وكيف يتمتع بمباهج الدنيا ولذاتها ، وكيف يقضى ليله فى مجتمع صاخب أو محفل لجب ، وكان بالطبع يعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يكن يقرأ غير القصص الخليعة والصحف الماجنة، وأخذت نفسه تتشرب المادية والأثرة ، وتأنس إلى حياة الترف والخمول ، ومع ذلك فقد خرج من تلك المفاوز الشائكة المليئة بالتجارب والاختبارات بفلسفة سبقه إليها نفر من الفلاسفة الماديين تكاد تخرجه من زمرة أنصاف المتعلمين وتحشره فى زمرة أولئك الفلاسفة الواسعى المعارف الخارجين على قوانين المجتمع وتعاليمه !

إلا أن فريدا وهو يعرف صاحبه تمام المعرفة كان يخشى أن يفقده وهو يجمح

في ميدان فسيح على غير أهبة ولا تدريب ، فتضيع عليه آخر صلة حية تربطه بالماضي الجميل . وكان يطرق مسامعه قول بيكون: «من عدم صديقا أشبهت حياته القفر الخاوى والليل الداجى لأن الصداقة ربيع الحياة ومبعث أنوارها » . فهو اليوم ينظر آسفاً إلى تلك الهاوية التي بدأت تفصل بين نفسه ونفس سمير . .

ثم أن سميراً بدأ يضايق صاحبه بالسخرية الدائمة من أهل الشعر والاحلام ومن الحب والمحبين . وتطرق من هذا الى التهكم بالمبادىء والعقائد والأديان كلها . وزعم أن الاديان تبث مبادىء الرحمة والايثار في حين أن الناس لا تسيرهم غير الانانية ولا يخضعون إلا للقوة ولا ينشدون غير اللذة ولا يرون المثل الأعلى إلا فى المظهر الرائع والمال الوافر والجاه العريض ! .

٥

— المادة يافريد فى اعتقادى هى كل شىء ! فلا تسخر منها كما يفعل الخياليون . حتى النفس أراها مادية تفنى بفناء الجسد ، إذ من نحن وما فضلنا على سائر الحيوان؟ إنما نحن مخلوقات أمهلها القدر فترة قصيرة ريثما ينفذ فيها حكم الاعدام. لنتنعم بالحياة اذن ودعك من الاهتمام بمسائلها ومشاكلها ، ولا تنس أن لكل مسألة وجهين لا يمكن أن تعلم أيهما الصحيح !

— لا تستطيع أن تشوه حياتى وأحلامى بهذه السفسطة التى تعلمتها بلا بحث ولا تمحيص . وكان على وأنا صديق طفولتك أن أنقذك من مخالب تلك الآراء التي أفسدت نفسك ! .

— انما أريد أن تهبط إلى أرض الحقيقة وتستمتع معى بالحياة هازئا بها بدلا من أن تنفق أيامك فى هذه الكآبة وهذا الضجر ! .

— ومن أنبأك أنى أنفق أيامى فى الكآبة والضجر ؟

— أسارير وجهك وشحوب لونك وانقباضك عن الناس، كل ذلك ينم عن نمط شاذ لحياه وعلى أنا أن أنقذك من ورطتك !

— لكنني على الرغم من ذلك أعيش فى عوالم عجيبة رائعة لا تعرفها !

— بل أراك تعيش فى حانوت كتب، بل فى قفص حجرى صنعته لنفسك، وما دمت تحبس نفسك فى هذه الغرفة الضيقـــة التى زادتها ضيقا هذه الرفوف المكدسة بأكوام الورق فأنت فى نظرى سجين تكره الحرية ! وليتك تعاشر فى سجنك الأحياء بل أنك لتعيش بين الموتى والأكفان !

— ولكنني سعيد وراض عن حياتى !

— يخيل إلى كلما زرتك أنك هنا تحاكى النساك فى صوامعهم، اولئك العائشين فى الزهد والحرمان وقهر النفس . . والرهبنة عندى لاتعنى غير الافلاس، والركود أشبه بالمستنقع الآسن، ودليل الحياة هو الحركة والكفاح . وأنا أرى لك أن تنطلق مثلى فى الفضاء الوسيع فتزيد تجاربك، لامن سطور الكتب العابسة ولامن أفكار المؤلفين المتناقضة بل من صميم الحياة . أريد أن أريك صور الوجود خارج صومعتك ضاحكة مشرقة لاتبالى بك ولا بكتبك !

— تريدنى أن أنبذ هؤلاء الأحياء بأفكارهم، الخالدين بمبادئهم، الذين يعيش العالم عالة على ثمار عقولهم وتتطور الحياة بفضل جهودهم، لأسرح وأمرح مثلك مع فارغى العقول ممتلئى البطون ممن يطفون كالزبد على وجه المحيط !

— هذا هو تقديسك للكتب ياصديقى المسكين، وهو ضرب من عبادة الاصنام ! وعما قليل تصبح بدورك « كتابا » ـ مجموعة منقولة عن أفكار من سبقوك من أهل الثرثرة وطلاب الشهرة، ومع كل هذا فأنت الغارق بين الكتب لم تستطع أن تستعيض بتجارب اولئك المؤلفين عن تجاربك الذاتية، ولا بآرائهم

المتناقضة عن آرائك الخاصة ! . .

ـــ ومع ذلك لا تستطيع أنت الثرى العابث بالحياة أن تعوضنى عن هذه اللذة البريئة التى أجدها فى ساعاتى بين كتبي،فهى خير لى من لياليك التى تنفقها فى البطالة والعبث والتنقيب عن لذات جديدة حتى بت عبداً لحواسك !

— أخشى أنك لطول انفرادك واجترارك ذكرياتك القديمة ، حلوها ومرها قد أصبحت مريض المزاج ، سوداوى الطبع ، تعيش فى عالم من الأوهام وانها لخبز الأشقياء !

— إن وحدتى لجبل عال أرى منه الناس أقزاما ، وأراك أنت وأمثالك تنفقون أيامكم فيما لا ينفعكم ولا ينفع غيركم من الناس ، فأنتم لا تعملون على تطور نفوسكم وتوسيع مداركم ولا تساهمون فى خدمة الانسانية وارتقائها : بل أنتم تسخرون العالم فى سبيل أثرتكم وشهواتكم !

وقد قلت لك غير مرة انى اومن بالحياة وبالجمال وبنتاج الحضارة ، وأتتبع بشغف تطور البشرية . وما عزلتى وانقباضى عن الناس إلا فترة لا بد منها للتحصيل والدرس لأنى مزمع أن أخرج ألى العالم عن قريب حاملا رسالتى ونتاجى !

* * *

وهكذا كان فريد يصطدم كل يوم بآراء جديدة يلقيها صديقه بحماسة ، وكانت هـذه الآراء تقصيـه فى الاعمـاق عن صاحبـه ، وتملأ قلبه الحساس بالمرارة !

ولـكن سميراً على الرغم من كل هـذا كان كثيرا ما يجلس فى غرفة فريد المتواضعة،المطلةعلى الحديقة، ويدع صاحبه يتحدث عن الحياة البسيطة الهادئة ، فتخشع نفسه بالرغم منه ويبكته ضميره برهة قصيرة ، وكان فى ذلك الخشوع

الوقتى كمن يفر من معاصيه ويتجرد عن ماديته ليلجأ إلى محراب تتطهر فيه نفسه ريثما تعود الى استئناف المسرات..

وهو يزور فريدا فى سيارته الرشيقة ، أنيقا مهنـــدما حليق الوجه منضد الشعر،مزينا صدره بزهرة نادرة ، فيملأ داره بالمرح والنكات ، ويبدأ فى التهكم على عرائس الشعر وبائسى الأدب ، ثم يروى لصاحبه طائفة جديدة من مغامراته وغرامياته . ويقرأ له آخر ما تسلمه من رسائل معطرة ســاخراً من كلمات الحب المنمقة ،مؤكدا له انها كلها من املاء الساعة لا تلبث أن تتلاشى كالدخان؛فالحب فى رأيه انتهاب اللذة وعصر كل زهرة !

— وهذه الرسائل يا أخى فريد ، وبينها ما خطته أنامل زوجات مصونات تريك ما على الارض من عفاف موهوم وفضـــائل زائفة ، وتهبط بكم معشر الحالمين وعشاق المثل العليا الى أرض الحقيقة المكتظة بالغرائز الثائرة ! فدعنى ياصاح أتأنق فى ملبسى كما كان يفعل صاحبك دانتى على حد قولك ولا أبالى العالم على طريقة «خيامك» وأتمرد على العرف على نسق اوسكار وايلد ،وأشرب الراح فى جمجمــة ميت كما فعل بيرون، نخب حياة لا نملك غيرها ولن نعود الى أرضها ، فأرى الدنيا ومهزلتها من وراء الكأس تتلألأ بالذهب والارجوان ، وأشاهد العالم يرقص استهتارا ويطفر كأنه فى مهرجان باخوس !. أنصت أيضا إلى فلسفتى التى تفوق فلسفتك بهاء : ألا ترى فى صفاء هذه العيون ، ووراء حمرة هذه الخدود شبح الهاوية التى تنتظرنى وتنتظرك؟ وإذ تشتعل رأســانا بالمشيب وتخط على وجهينا تجاعيدها ستأسف على هذه الفرصة التى تضيعهــا فى الأخيلة الجوفاء ،وفى مناجاة الشمس والقمر والنجوم !..

الفصل الثالث

١

هبط الليل على الخليقة فاستراحت قليلا من مشاق النهار . ولجأت المخلوقات إلى بيوتها وأوكارها وأعشاشها ،مستسلمة إلى نوم فيه النسيان وفيه العزاء وراحة الجسد المضنى والعقل المتعب والقلب المحزون ..

وقد شمل الفضاء سكون رهيب ، ووقفت الوف النخيل كأنها أعمدة صماء فى هيكل اله الليل .. وكان يشق حجب الصمت بين فينة وأخرى نعيب جماعة من البوم وعواء بعض الذئاب وصرير ربوات الجنادب .. ثم يعم الصمت فلا يسمع غير حفيف الغصون كأنها تتهامس ..

وأقفر المكان من الناس ما خلا رجلا وامرأة يتسللان خفية بين أحراش النخيل متسترين بما انتشر على الكون من ظلام كأنهما شبحان خرجا من بطون الأساطير ..

وكانا يسيران تارة فى طريق كثير العثرات تقاربت حافتاه ونبت الشوك والطحلب على جانبيه ، وتارة ينبسط الطريق أمامهما فيضربان فى سهل تبعثرت فيه الوف النخيل ..

وطلع القمر ولما يكتمل فبسط على تلك الغيطان والبرارى رداء فضيا ، وكشف قليلا عن هذين الشبحين الغامضين فاذا المرأة راكبة حمارا هزيلا واضعة أمامها طفلة وديعة استسلمت لنوم أشبه بالاغماء ووراءها يسير رجل يتلفت حوله من حين لآخر فى حذر الثعلب ، يساوره قلق المجرم . فاذا سمع صوتا انكمش انكماش الفأر وجعل يتحسس السكين المخبأة فى صدره ..

وانقضى هزيع من الليل ولم يزل الطريق مبسوطا أمامهما ، وهما لا يجرءان على التوقف مع ما حل بهما من عناء . حتى إذا بزغ الفجر وقد جاوزا أطراف فارسكور اتجها إلى شاطىء النيل ولبثا يرقبان مركبا تحملهما وما معهما إلى القاهرة أو ما يقربها ..

وأشرقت الشمس على السفينة فتناوب الرجل والمرأة النوم بحذر ، فاذا بكت الطفلة زجراها فتسكت رعبا أو تنام ..

وقد وضح فى ضوء النهار ما خفى عنا من ملامح هذا الرجل وهذه المرأة. فاذا الرجل قد نيف على الاربعين ، جامد المظهر ، مرتفع الهامة ، وثيق البنـاء ، مفتول العضل يلبس جلبابا قديما أسود يغطيه من عنقه حتى قدميه . وقد وقى رأسه بلبدة من الصوف وعصبها بمنديل محلى كبير . أما وجهه فطويل أسمر محروق من أثر شمس الصعيد ، قد زاده التعب والقلق شحوبا ، وبرزت منه وجنتان تعلوهما عينان ضيقتان خبيثتان وحاجبان مقرونان كثيفان ، وفى أسفلهما فم واسع ذو شفتين مهدلتين جامدتين قلما تعرفان الابتسام وشـارب أسود تبعثرت شعراته كأنها بقايا مكنسة عتيقة .. وبالجملة فقد كانت له سحنة تنطق عن ارادة صلبة وتنم عن نفس طويت على الميل إلى الجريمة ..

أما المرأة فأشرفت على الثلاثين ، هيفاء القد سمراء ذات عينين واسعتين لهما أهداب طويلة ، ووشم أخضر على ذقنيها ومعصميها ، وصـدر بارز ينحدر عليه جلباب فضفاض منقوش ، يصل إلى كعبين هدأ عليهما خلخالان كبيران . ولم تـكن ذات فتنة أو حسن ولـكنها كانت ذات دلال ودهاء . وكان يبدو عليها أنها تنقاد وراء زوجها صاغرة كما عز تتبع راعيها إلا حين تثور وتغضب فان عينيها تبعثان آنئذ شررا ، وهنا يخلى لها رجلها القياد ويدعها حتى تهدأ ..

وبعد بضعة أيام قضاها الزوجان والطفلة فى السفر متخفيين تارة فى المراكب، وضاربين تارة اخرى وسط الحقول، أدى بهما المطاف إلى القاهرة، وهناك فى أعماق المدينة الكبيرة وفى أزقة بولاق الملتوية استطاع الثلاثة أن يقضوا ردحا من الزمن حتى اختفت معالم الجريمة، وشبت انعام لاتعرف من ماضيها شيئا ولا يدور بخلد أحد من الناس سوى انها ابنة هذا الرجل جابر عبد الصمد وزوجه خضرة النورية ..

حدث كل ذلك بلا كبير عناء بينما كان كرم بك ورجال مزرعته يجدون فى البحث والتنقيب عن الطفلة انعام فى مساء يوم شم النسيم ..

أما أبحاث «البوليس» فلم تؤد يومذاك إلى نتيجة لاسيما أن كرما بك لم يتهم أحدا ولم يكن له أعداء يضمرون له ثأراً .. وسرعان ما قيدت الحادثة « جناية خطف ضد مجهول أو ضد ذئب» .. ثم حفظت الاوراق .. ومضت الأيام وتلتها الشهور دون أن يظهر أثر يدل على وجود الطفلة بين الاحياء ..

أما الام الثكلى فقد قطعت تلك الليلة الهائلة فى البكاء، ثم غلبها النوم ساعة استيقظت بعدها فلم تجد طفلتها بجوارها فكادت تجن. وكان لهذا الحادث أثر فى مزاجها العصبي، فاعتلت صحتها وبادر زوجها فحملها وابنه سميرا إلى قصره بالمدينة . ومضى شهر رهيب كانت ترى فيه طفلتها فى نومها ويقظتها بين أنياب ذئب ينهش لحمها ويهشم عظامها، ويخيل اليها انها تسمع صوت استغاثتها وما من مجيب .. وساعة تراها فى مغارة لصوص تنادى امها بدموع سخينة فيتلاشى صراخها فى فضاء أصم .. فتهب الام كالمجنونة ولا يدرى زوجها ماذا يفعل ..

* * *

كانت خضرة النورية تحترف الرقص فى الحارات والدروب شأن نساء

الغجر الجائلات فى أنحاء البلاد . وكان زوجها جابر عبد الصمد يلم منذ صباه بشيء من العزف على الارغول . ووراء نغمات الارغول البريئة التى كانت تذكره بصباه كان يخفى ما علق بهذه النفس المحطمة من ميل إلى الثورة والجريمة ..

وكانا يسرحان معاً ويتسولان باسم الفن . إلا أن ما كان يصيبانه من هذه الحرفة كاد لا يقوم بأودهما إذ كثيرا ما اوصدت فى وجهيهما أبواب العطف، فزادهما هذا نقمة على الناس غنيهم وفقيرهم ،والتمسا المال من أبواب اخرى، فكانا يتجران خلسة بالحشيش أو يسرقان أو ينشلان فى الزحام . فاذا مرض جابر انطلقت خضرة «لتبين زين وتشوف البخت» ، وكانت كغيرها من نساء النور تعرف كيف تنمق القول وتخدع السذج .واذا مرضت ذهب جابر ينشد الراحة فى احدى القهوات البلدية يدخن «التعميرة» بخمول ولذة، ويدع ذاكرته تعود به إلى مسقط رأسه فيذكر أباه وامه وهما يوقظانه للسحور فى رمضان ،ويذكر أياما قضاها فى البلد لا يعرف هذا التشرد ولا هذا القلق وهنا تنفرج شفتاه عن أغنية حزينة يترنم بها وهو شارد الذهن ويقول : « وكل ما اجول التوبه يابويا ترمينى المجادير ..» . وهكذا كان يقضيان الأيام والسنين فى حياة بوهيمية مضطربة ،لا أمل وراءها ولا استقرار فيها .

نشأ جابر فى بلدة الشقيفى من أعمال مركز نجع حمادى ، وكان يسكن مع ذويه ومواشيهم فى كوخ كبير مبنى باللبن الأخضر والطين،تعلوه أكوام الحطب لا يفرق عن الزرائب ، تحوطه بيوت اخرى متداعية مغبرة اللون ،مرصوصة على جانبى أزقة ملتوية ضيقة تغوص القدم فى أوحالها وقمامتها ،يلعب فيها أطفال علتهم القذارة يرتدون الأسمال البالية، ويجلس على أبوابها نساء صفر الوجوه يتحدثن تارة بلغة جافة غريبة ويتشاجرن تارة اخرى لأتفه الأسباب .

وكان جابر كسائر أهل تلك الناحية يعيش فى قحط وحرمان ، يأكل أسوأ الطعام ويشرب من ماء الترعة حيث تغتسل السائمة ، ولا يلقى حوله من متع الحياة ما يحببه فيها. فشب يراها قاتمة رخيصة لا ثمن لها ، وكان يخرج إلى المعارك القروية التى تشب بين الفلاحين فى كل حين من أجل جاموسة أكلت عودا من حقل الجار أو نحو ذلك من الاسباب، وكثيرا ما تنجلى المعركة عن عدد من القتلى والجرحى ، وعن صدور تضطرم فيها الاحقاد وقلوب تتطلب الثأر والانتقام.. ثم أحس بالثأر يهدده ويلاحقه فنزح إلى القاهرة واختفى فيها بضع سنين ، كان يشتغل خلالها فى حمل الأثقال وأعمال البناء ، وفى بيع أوراق النصيب أو بيع الظروف والخطابات فى محطات الترام . .

وجمعه القدر فى أثناء طوافه بامرأة نورية تحترف الرقص ما لبثت أن أعجبت بخشونته وشدة بأسه ، وراق له جسدها البض ووجهها المليح وذكاؤها الماكر فاتفقا على الزواج على غير عادة النور ، وضربا سويا فى آفاق الوجه البحرى وزادت محبة الشر بينهما الفة . .

ثم وفد الزوجان فى ذلك الربيع على دمياط الآمنة المطمئنة كما تفد الأوبئة ، فظهرا يوما يجوبان الأسواق والحارات ، ثم طافا فى بعض العزب المجاورة ، ثم اختفى أثرهما . .

. . وسمعا فى طوافهما هناك بثراء كرم بك وبأطيانه بالستانية ، وأثار اهتمامهما أمر عزلته فى منزل خاوى بعيد ، يقضى فيه شهور الصيف ، فدبرا الاستفادة من هذه الفرصة السانحة ، ورأى جابر أن ينقض فى ظلام الليل على الرجل وزوجه فيذبحهما ويغنم كل ما يظنه لديهما من حلى ومال ، ورأت المرأة أن يحتالا على خطف الطفلة ويفرا بها وسط أحراش النخيل ، فهى غنم قد يفتديه والداها بالمال الكثير ،

وقد يحتفظان بها فيتجران بجمالها وصفاء لونها فى الرقص أوفى أى شأن آخر يستدر النقود. ثم أن خضرة لم ترزق بطفل ،فلتسكت نداء الامومة الذى يدوى فى أعماق أحلامها ويقض أحيانا مضجعها إذا تبنت هذه الطفلة الحلوة . وهى من وراء هذا كله تقول لزوجها : « لاداعى إلى سفك الدم فنحن النور نفضل عليه السرقة لانها أكثر ربحا وأسلم عاقبة ، وسنبيع الطفلة لقوم أغنياء فهى تساوى ذهبا وفيرا ، وإن لم نوفق الى بيعها فسننتفع بها فيما بعد . . »

إلى ذلك الوسط الجهنمى رمى سوء الطالع ذلك الملك الصغير الذى نشأ فى حضان المحبةوالحنان، فبدل من النعمة نقمة ومن العطف قسوة .وأخذت خضرة تدرب الطفلة على الرقص لتجوب معها البلاد وتجمع معها هبات المحسنين . . وكم من ليلة قضتها انعام فى الحرمان والجوع ، وكم من ليلة قضتها فى الخوف والهلع . وهى وحدها تكنس تلك الزرائب التى يسكنها جابر وامرأته كما تسكنها جماعات لاعدلها من البراغيث والبق . وهى تتبعهما على قدميها فى طوافهما تستدر بطفولتها البريئة عطف الناس . .

وهى تعود معهما فى الليل إلى عشش الترجمان ببولاق ليأوى ثلاثتهم فى حجرة خضرتها الرطوبة، ذات سقف مغطى بالهباب و بيوت العناكب، كأنها قبر عتيق . . فى ذلك الحى الذى لاتدخله الشمس ولا ينفذ اليه القمر ، حيث يختبئ اللصوص والفتوات، وحثالة الصعايدة ومهربو المخدرات ومدمنو الهيرويين ، يقضون بعض لياليهم فى كهوف تنبعث منها رائحة الاصطبلات ويخيم عليها البؤس الثقيل الممض . .

وهى تلعب أحيانا فى الأزقة الملتوية مع صغيرات وصغارمثلها حفاة الاقدام ممزقى الثياب من اولئك البائسين الذين تغص بهم شوارع القاهرة، يجمعون أعقاب

السجائر وينبشون فى صناديق القمامة، ويتهافتون كالذباب حول موائد المقاهى..

وكان جابر يلتذ أحيانا تعذيبهـا ويشبع فمه بشتمهـا ويطرب أذنيه بعويلها لا لانها أذنبت ولا لأنه يكرهها بل لانه كان يستمرىء الايذاء والايلام ليطفىء فى قلبه تلك «السادية» المجرمة، فترتاح نفسه إلى التعذيب كما يتلذذ التمساح بالتمرغ فى الاوحال!

وانعام فوق ذلك هى ابنة أحد الاغنيـاء الذين يضمر لهم كل حقد يزيده اشتعالا حرمانه من الراحة وتحمل المشاق فى سبيل اقتنـاص المال الذى ينعم به اولئك السادة بلا تعب ولا مشقة..

وهو يصدر اليها الاوامر والنواهى بلهجة مفخمة، ويرسلهـا الى السوق عند مشرق الشمس لتشترى له المدمس بمليمين، ويوقظها فى الليل لتشترى له سيجارتين..

وما مرت الشهور حتى بدلت من هذه الصغيرة مخلوقا آخر لا يمكن لاحد أن يرى فيه غير ربيب الشوارع والتسول، فذوى لونها واكتست القذارة، ولوحت بشرتها البيضاء أشعة الشمس المنصبة على رأسها ووجهها طول النهار. وقد أثر فيها الجفاء فأمست خشنـة اللفظ زرية الهيئة تسير وترقص وتغنى عارية القدمين مبعثرة الشعر، مهلهلة الثوب. واعتادت حياتها وكبرت وهى لا تدرك ماهى فيه من هوان وبؤس. ولـكنها بالرغم من ذلك كله كانت تقوم بأعمـال فنية قلما تصدر عن نظيراتها فى هذه السن وفى تلك البيئة. فهى تجيد التقليد وتفتن فى الرقص، وتقتبس الالحان الموسيقية التى تطرق أذنيها بسرعة مدهشة، وفيها فوق ذلك جراءة وذكاء. وقد حاولت الهرب مرة من ذلك الوسط وتلقفتها الطرقات، ولـكن سرعان ما أعادها جابر بعد أن أشبعها ضربا..

ولم ير جابر أية فائدة من بقاء هذه الصبية عنده بل كان وجودها عالة عليه

وعبئا ثقيلا على نفسه . وكان عليه أن يطعمها ويكسوها أحيانا ، وفوق ذلك فقد كان وجودها عنده لا يخلو من خطر ، وليس بين ذلك وبينه غير كلمة تشى بها امرأته . وهو لا يطيق أن يكون تحت رحمة امرأة أن شاءت بعثت به الى السجن، أو أن يكون معرضا فى كل ساعة لأن تضبطه «الحكومة» متلبسا بجريمته، وكثيرا ما كان يحاور امرأته ويقول لها ما معناه :

— ألم تقولى إنك ستبيعينها فالى متى تتريثين ؟ أننتظر حتى تشب وتكبر فلا يسهل علينا يومئذ قيادها ؟ أم ننتظر حتى يفتضح سرنا فنزيد طيننا بلة ؟.. فكانت ترد عليه قائلة : هون عليك فقد نسى الجميع أمرها والكل يعلم أنها ابنتنا . وهى ستنفعنا يوما ، والصبر طيب ..

٢

فريد وسمير جالسان فى « شقة » الاول الصغيرة بشبرا حيث يسكن وحده. ثم أخذا مقعدين وجلسا فى الشرفة المطلة على الشارع ، وما كاد يستقر بهما المكان حتى شرعا كعادتهما يتحاوران ولم يكن لنقاشهما نهاية ! فان لكل منهما اليوم رأيا يخالف رأى صاحبه وفلسفة تناقض فلسفة أخيه ، ولم يعد أحدهما يستطيع أن يحول أخاه عن رأيه. ثم هما يعرفان أن أحدهما يحب مناقشة أخيه ومناظرته وكثيراً ما يكون ذلك حباً فى الحوار لذاته ! ..

وما هو إلا أن تغير مجرى حديثهما ازاء مشهد ظهر فى الطريق أمامهما فقال فريد وهو يقطب جبينه :

— هذه النغمات الفظة وهذه الشرذمة المتسولة تؤيد ما قلته لك عن فساد أنظمة المجتمع إذ كان يجب على هذا المجتمع أن ينتشل مثل هؤلاء التعساء من هذه الحمأة ، فيتيح لهم فرصة العمل ويريهم أنه للكسالى بالمرصاد : انظر إلى هذا

العملاق الذى يعيش عالة على الناس، ألا يستطيع اذا أرشد أن يرتزق بغير الاستجداء؟ وانظر إلى هذه المرأة التى تهرج وترقص تحت النوافذ وترغمنا على مشاهدة فنها البغيض، أليس فى مقدورها أن تكسب عيشها من شيء نافع؟ وأدهى من كل ذلك أمر هذه الطفلة التى تشب على التشرد والجهل!

— ومن يدريك فقد يكون ما تراه أنت شقاء وبؤسا هو فى نظرهم السعادة والرضى! انهم قانعون بنصيبهم وأخالهم يضحكون فى قلوبهم من سذاجتنا، إنك تقيس حالات النفوس الاخرى بمقاييس ذاتية متأثرة بما تتخيل من مثل!

— سواء أكانوا سعداء أم أشقياء فان على المجتمع فى مذهبي أن يمنع هذا التسول وهذا الفقر وهذا التهريج، وإلا فأن هذه الآفات التى تطغى حولنا كالسيل انما تنذر بافلاس الانظمة!

وكانت الصبية قد وقفت تحت الشرفة حاملة طبقا قذرا تجمع فيه مايجود به السابلة والمحسنون، وتطلعت إليهما بعينين جميلتين ذابلتين فيهما توسل وفيهما ذل وفيهما استهتار، فرقا لمنظرها ونسيا ما كان يفلسان به فى شأن التسول والمتسولين، وبادر فريد فألقى إليها من الشرفة بقرش تلقفته فى حجرها ثم هرولت به إلى الرجل فاختطفه ودسه فى جيبه . .

وبعد برهة أخرج جابر القصبة من فيه فانقطع الزمر وسار تتبعه خضرة والصغيرة التى كان أبواها يدعوانها فيما مضى انعاما ولا يعرف لها اليوم اسم حقيقى فقال سمير بعد برهة من الصمت: وهذا خطأ ترتكبه!

— أترى فى الشفقة على اخوتنا الناس خطأ؟

— بل هذا مساعدة للكسلان على التمادى فى كسله وصعلكته، وهذه المليمات والقروش التى تجود بها أنت وغيرك من أهل الشفقة قد ملأت علينا البلد بالمتسولين والكسالى!

— إذاً لندع المحتاج يموت جوعا إلى أن يتحرك المجتمع فيعينه وهو الذى لايحس بوجوده !

— بموته ينقرض التسول والكسل !

— تريد أن تقتل المريض ولا تداويه !

إذا لم ترض بقتله فأرنى كيف تداويه بنظرياتك ؟ أيها المتفرد بين علمائك وفلاسفتك ، خير لك أن تنزل إلى الزحام لترى الحقائق الفاجرة بدلا من أن تنفرد بى هنا لتضجرنى بمواعظك !

— انى أعمل كل ما يستطيع الفقير عمله .. بقروشى ومليماتى ومبادئى التى أهيئوها للانفجار يوما .وأما أنت أيها الثرى فماذا صنعت وأية خدمة للناس قدمت؟ إن ملايين البشر فى حاجة إلى فتات موائدك !

هذا كل ما أفيد من زيارتك ! ووقتى لايتسع للرد عليك ،وخير لى أن أدعك وحدك لتهدأ !

— ولكن لتعود !

— سأحضر غداً لأصحبك فى سيارتى لنشرف على «الرتوش» الأخير فى بناء «عش البلابل» ! ..

٣

ارتاب عويس أحد المخبرين الجائلين فى تلك الناحية المشبوهة ،فى مناورات جابر وخضرة ، ووثق من أمر متاجرتهما فى المخدرات،فاطلع مأمور قسم بولاق على مايعرف.فعهد المأمور الى ضابط المباحث فى ضبطهما متلبسين بالجريمة . .

وأحس جابر وزوجه بتلك المراقبة فأخذا يضللان رجال الأمن بالتنقل من

حى إلى حى ومن غرفة إلى كوخ اتقاء للظنون والشبهات ورغبـــة فى التستر والاختفاء . ثم عزما على الفرار خفيــة الى الصعيـد . وقطعا الساعات الطوال فى المشاورة والتدبير . وكان أمر الصغيرة مما زادهما حيرة . وعاد جابر يلوم أمرأته لانها لم تستمع إليه حين رأى أن يبيعها ويتخلص من عبئها وهى تنتحل الحجج وتلتمس الأعذار لابقائها ..

والآن وقـد باتا مهددين بالسجن لمـا تجمـع حولهما من تهم ،فقد خشيا أن يتركا وراءهما تلك الغنيمة فى زحمة القاهرة وتحت رحمة المقادير ، لئلا يفقدانها إذا افرج عنهما يوما وكانا لاثقة لهما بانسان يستودعانه الطفلة.فحدثتهما نفساهما أن ربما افتضح سرهما،وهما بين أيدى المحققين فيصبح خطف الفتاة جريمـة جديدة . على انهما كانا يأملان فى الفرار من ذلك المأزق وفى مغادرة القاهرة فى غلس الليل ، ولذلك ارتأيا أن يخففا العبء ويتخلصا من هذه الصغيرة حتى تهدأ العاصفـة . .

وأخذا يلتمسان مختلف الحيل حتى استقر رأيهما على وضعها فى أحد ملاجىء الأيتام كابنة مات أبوها ولا قدرة لامها على اعالتها . وكانا يعرفان ملجأ للراهبات فى العباسية ويعلمان أن الراهبات سيرحبن ولاشك بمثل تلك اليتيمة البائســة فاذا ما خرجا من السجن أو من المخبــأ استطاعا استرداد الوديعـة واستئناف حياة التشرد ..

ولم يكن لديها وقت للتردد ،فخرجت خضرة فى الصباح الباكر مرتدية ثيابا سوداء محتشمة وسارت مع الصبية الى ملجأ الراهبات ومدرستهن . وبعد قليل كانت تطرق بوابة كبرى فى سور مرتفع انفرجت عن حديقة واسعة ذات ممرات وأشجار وأقبلت نحوها راهبــــة ملتفة بمسوح سوداء تسألهـــا عمـا تريد . ثم قادتها إلى غرفة الانتظار . وبعد برهة أقبلت رئيسة الملجأ تحييها وتدعوها إلى الجـلوس ..

وهنا تظاهرت خضرة بالمسكنة والوداعة والفقر وأخذت تسرد قصة مختلقة والدمع يترقرق فى عينيها ، والراهبة تربت على كتفها وتلاطفها وتعزيها . وجمح بها الخيال فقصت فى لهجة مؤثرة كيف مات زوجها وخلفها معهذهالفتاةالمسكينة يتضوران جوعا ويسعيان إلى عمل شريف فسدت فىوجهيهما الأبواب ، وهى لا يهمها أمر نفسها انما هو مستقبل هـذه الصغيرة البريئة الذى يلبـل أفكارها ، وأخيرا توسلت إلى الراهبة أن تقبلها فى ملجئها لتعمل كخادم تستطيـع القيام بكل ما تكلف به من خدمات ، ثوابا لله . وهنا أخذت تكرر اسم الله وثوابه ورحمته ، وهى لا تدرى أن الراهبة قـد قبلت الفتاة دون حاجة الى تمثيل هـذا الدور الطويل --

وما كادت الراهبـة تفضى إليها بقبولهـا للفتاة ،حتى وقعت المرأةعلى يدها تقبلها بلهفة - ثم أخذت ابنتها الى ناحية لتودعها باكيـة وتهمس فى أذنهـا :

« اياك ياشقية أن تقولى غير ماسمعت وإلا فالويل لك حين آتى لاستردك ! »

وماخرجت خضرة من البوابة حتى أخذت تضحك فى نفسها ،وتهتز طربا لنجاحها فى مهمتها ، وهرعت لتبشر رجلها - وما كادت تصـل إلى بيتهـا حتى وجدت نفسها بين عدد من رجال البوليس وكان زوجها قد سيققبلها مكبلا إلى السجن - -

أما الراهبات فقد التففن حول انعام يرثين لحالها ويلاطفنها، ثم صحبتها احداهن إلى الحمام وأعطتها ملابس نظيفة وطعاما - ولم تكد المسكينة تسمع تلك الكلمات العذبة وترى تلك الابتسامات التى لم تألف رؤيتها ،حتى ارتمت فى أحضانهن كمن لقى واحة نضرة بعد أهوال الصحارى والقفار ..

وفى اليوم التالى كانت تشاركهن الخدمة وتتلقى عليهن مبادىء القراءة

والكتابة بالفرنسية والعربية ، وتحاكيهن فى الصلاة والعبادة . .
وولدت أنعام منذ ذلك اليوم ولادة جديدة . .

الفصل الرابع

١

— مبروك ياعم ، ها أنت قد فزت « بليسانس » الحقوق ؛ وبقى أن أراك لابسا « روب » المحاماة تترافع وتدافع وتملأ علينا الدنيا بالخطب و« البلف» ! .

— سرورى اليوم ياسمير يمازجه الأسى ؛ فقد أردت أن أحقق حلم والدى وأعوضهما عما لقياه من ضيق وشدة وعن مصابهما فى موت أولادهما ولكنهما ماتا قبل أن يشهدا هذا اليوم .

— وهل هذا وقت الشكوى والنواح ؟ ألم يمت أبى وأمى مثلك وماتت من قبل اختى انعام ولكن هأنذا أمامك لاأذكر الماضى ولاأشكو ولاأتذمر ! .

— حقاً . . لنطو الماضى الآن ولنشرب نخب عهد جديد ! .

— « برافو » تعجبنى الآن ! وفى ليلة الغد سنقضى سهرة من سهرات هرون الرشيد احتفالا بنجاحك أولا ، وبانتهاء تأثيث وبناء « عش البلابل » ثانيا ؛ هذه « الفيلا » التى ستكون بيتا من الشعر ومضرب الأمثال فى القاهرة ! . .

* * *

فى مساء اليوم التالى ذهب فريد إلى « فيلا » سمير بعين شمس التى اتفقا على تسميتها بعش البلابل . . فوجد سميراً قد دعا زمرة من صحابه وصاحباته إلى سهرة صاخبة قضوها فى الشرب والرقص ولعب البوكر حتى مطلع الفجر . .

وعاد فريد فى الصباح الباكر إلى منزله مهدود الأعصاب ؛ ولم تخل مسرته فى تلك الليلة من اشمئزاز فقد وجد نفسه وسط مجتمع مستهتر عربيد ،لا يفكر فى غير الجسد، ولا يؤمن بغير الحواس وماتثيره الحواس ؛ يرى الحياة مهزلة ولا يستثنى منها شيئا لا يسخر منه؛ وقد رأى كيف تكشف الخمر عن خفايا النفوس وكامن الغرائز وكيف تحيل الانسان الرزين حيوانا هائجا ..

وأحس بعد عودته إلى منزله بوهن فى جسمه ومرارة فى قلبه.وحانت منه نظرة إلى المرآة فرأى وجهه كما عهده يعلوه الشحوب من فرط المطالعة والدرس فى حجرة ضيقة ، وانسابت خواطره فأخذ فكره يروح ويغدو بين أمسه الذى قضاه فى الأحلام والكتب، وغده المجهول الذى قد لا يفرق عن أمسه !

وشعر بالوحدة والضجر ، وقضى فى فراشه ساعة كالتائه فى يم مصطخب لا يبدو له شاطىء..ثم غلبه النوم فأخذت عواطفه المكبوتة ووحدته النفسانية وشعوره بالحرمان تتشكل فى عقله الباطن بصور مختلفة، وشعر كأن هناك أنوارا تغمره .وخيل إليه أن أرواح والديه واخواته قد تراءت لهمن خلال ضباب الزمن وأقبلت عليه تسامره . ثم رأى أنه يمرح فى أرض فسيحة خضراء تتفجر فيها الينابيع وتنساب الجداول فى خرير متسق؛ وتسرح الطيور حول الشجر والزهر، وترقص عذارى المروج بمرونة الأمواج . وسمع فتاة أحلامه تناديه فهرول نحوها وعانقها ثم خيل إليه أنه أفاق وانه يعانق الضباب ؛ واذا بأشباح قبيحة كأنها شياطين تقف على مقربة منه تقهقه وتهتز وتدق على طبول بأصوات منكرة !

وظل يتقلب على فراشه وهو غارق فى شبه كابوس والطرق يدوى فى أذنيه ثم أفاق من نومه قليلا وجال ينظر تائه فى غرفته الملآى بالكتب والصور والاوراق المبعثرة،وأخذ يردد:«أين أنا؟» وعاد يسمع طرقا على الباب ، وصوت

ساعى البريد يناديه ، وهو شاب ظريف ثرثار اعتاد أن يحمل إليه الرسائل والمجلات،ويتحدث معه فى بعض الاحايين . فهب وفتح الباب وسمع الساعى يقول له وهو يناوله خطابا: « ماذا جرى اليوم ياأستاذ فريد ؟ أنا أطرق الباب منذ خمس دقائق اذ أخبرتنى جارتك أنك لم تخرج فأردت أن اطمئن عليك» فأجابه فريد وهو يفرك عينيه « معذرة يامحمود أفندى ، أكنت أنت الذى يطرق ؟ ..»

ودخل فريد ثم فض الخطاب وكان من خاله ماهر افندى باشكاتب مديرية الفيوم،وأخذت عيناه تمران على السطور التالية :

« ولدنا العزيز فريد افندى

تحياتنا وأشواقنا الزائدة الى رؤيتكم . أما بعد فعسى أن تكون متمتعا بتمام الصحة أما نحن فلله الحمد الجميع بخير . لم نحظ منكم برسالة منذ مدةطويلة وقد فرحنا جميعا لنجاحكم فى امتحان «الليسانس» فنهنئكم و نتمنى لكم مستقبلا باهرا فى عالم المحاماة . تعلم ياعزيزى أن بشائر الصيف قدظهرت منذأسابيع وبدلا من أن تقضى الصيف وحدك بالقاهرة لا سيما وقد فرغت من دراستك واحتجت الى الراحة يمكنك أن تطلب اجازتك السنوية ، ونكون سعداء جدا إذا شرفتنا بزيارتك فى الفيوم لتبديل الهواء والمناظر .وانك ستسر ولا شك من جمال المناظر عندنا ومن اعتدال الطقس .. هنا امرأة خالك وابنتنا سعاد بكل خير يشاركاننى فى هذه الدعوة فنرجو ألا تخيب لنا هذا الرجاء ونحن هنا فى انتظار جوابك وفيه موعد الحضور والسلام »

خالك المحب ماهر

مدينة الفيوم فى ١١ يوليه ١٩٢٦

قرأ فريد هذه الرسالة وشعر أن مثل هذا السفر إلى الفيوم سيكون دواء لأعصابه المكدوده .. لقد جاءت الرسالة فى حينها .. ليرحل انتجاعا للصحة واستجماما للقوى وترفيها عن النفس .. إنه سيجد فى عشرة خاله وامرأة خاله وسعاد : سلوى ومسرة .. فاذا عاد إلى القاهره بعد هذه الاجازة فأنه يعود فى حال جديدة تسمح له باستئناف عمل جديد ..

والريف ! الريف الهادىء الجميل ، الذى طالما حن إلى العيش فى كنفه بضعة أشهر .. أنه سيهرب إليه فترة من الزمن .. سيهرب من نفسه ومن كآبته ومن وحدته .. ومن ضجيج القاهرة وصراخ الباعة وضوضاء الترام والعربات وزحام الطرق ومضايقة الغبار .. إنه سيفر بنفسه الى خضرة الحقول وخرير السواقى وتدفق الجداول ولذة الراحة .. ان هذه الحياة المتشابهة التافهة تضنيه وتهد قواه وتقتله . انه يشتاق الى تغيير المناظر والاجواء والناس ولو كان فى مقدوره لفر إلى بحار الشمال أو غابات الجنوب ولركب البحر الى جزر الشرق وجبال الغرب ينشد فيها جديدا .. لقد ضاق بالحياة العنيفة الصاخبة خارج بيته وبالحياة القلقة المضطربة داخل نفسه ..

ثم ليس هو بالرجل الوحيد المقطوع النسب .. لقد أساء الظن بالناس ، فهذا خاله وزوجه وسعاد يذكرونه جميعا وينتظرون حضوره . وأخذه فيض من الحماسة لم يملك نفسه معه أن نهض إلى مكتبه وكتب الى خاله رسالة رقيقة شكر له فيها دعوته وذكر أنه سيرحل اليهم بعد بضعة أيام ، وأنه سيحدد لهم اليوم والساعة التى يصل فيها . ثم استلقى على مقعد وأخذ يفكر فى هذه الرحلة وما تتطلبه من اجازة . .

٢

قطار الصعيد ينساب كالثعبان وسط الحقول الواسعة ، المفروشة بأشعة الشمس . والصور تتلاحق أمام عينى فريد كشريط سينما . وهو منكمش فى مقعده بجوار

النافذة . وقد فتح كتابا لم يقرأ فيه صفحة واحدة، إذ كان في شاغل عن القراءة ـ تارة يتـأمل صور الطبيعة وتارة اخرى يفكر ويحلم ..

فهذى منازل مبعثرة على جانبي الطريق في غير تناسق . وتلك أكواخ الفلاحين القائمة مطلية بالطين، تعلوها أكوام الحطب والقش ، مثل أقزام مشوهى الوجوه يتدافعون بالمناكب .. وعلى مقربة من قبور الأحياء نثرت مقابر الموتى بيضاء صغيرة، تضم رفات اولئك الابطال المساكين الذين عاشوا مجهولين وماتوا مغمورين .. وهاهو النيل ، الاله القديم الذى صير تلك الصحارى جنات ازدهرت فيها أعرق حضارة عرفها الناس .. النيل العظيم بشاطئيه الزمرديين المهملين ، لا ينتفـع بهما معجب متأمـل ولا متنزه متجول . ما برح يجرى بين صفين من سلاسل الذهب تتوهج فى أشعة الشمس ، كأنه الفكر الهادئ العميق صقلته التجارب والعبر، وأعياه حمل الذكريات المبهمة .. تشق صفحته خفاف القوارب وكبار المراكب ناشرة شرعها البيضاء، تسير كما سارت منذ الوف السنين كأنها أحلام اليقظة ..

وفى الأفق البعيد تراءت له اهرام الجيزة قائمة وسط الصحراء المتوهجة .. وفى الحقل أبصر الفلاح يعزق الارض بلا كلل ولا تذمر ، حافى القدمين ، مشمرا عن ساعديه وساقيه، تجرى من حوله جداول صغيرة تلمع كالفضة .. وشراذم الصغار بجلابيبهم الزرقاء، يعـدو بعضهم على ضفة الترعة وراء الحمير والجاموس ، ويسبح البعض الآخر فى مائها أو فى وحلها . . وصبايا الريف حاملات على رءوسهن جرار الماء العكر، يسرن معتدلات القامات شاحبات الوجوه ، على رءوسهن أغطية من الشاش الاسود تتدلى أذيالها و تتمسح بالتراب ..

وأحس فريد وهو يتطلع إلى تلك الصور بشوق يدفعـه إلى النزول إليها ، والتغلغل بين أشجارها ونباتاتها ، متجردا من تلك الملابس الضيقة التي تشده من

رأسه إلى اخمص قدميه، فيضل بين عيدان الذرة ويجرى على ضفة الترعة، ويركب حمارا إلى القرى النـائية ويستريح فى ظل الجميز بجوار الساقية ،وينطلق منشدا كأحد هؤلاء الصبيان المرحين..

وبعد ساعة وربع وقف القطار عند مدينة الواسطة. فنزل فريد وانتقل بحقيبته إلى قطار آخر متواضع أخذ يجر ذيوله الى واحة الفيوم، فاخترق أراضى مزروعة، ثم سار فى وسط تلال رملية مبعثره فى الطرف الشرقى لصحراء ليبيا ..

وقد تجمع صاحبنا فى ركن كأنما يحاول جمع شتات نفسه فى محيط ضيق، وطفق يختلس النظر إلى الجالسين حوله، أو يتطلـع من النافـذة ليرى الـكثبان الرملية تعلو وتهبط ، وبعض النخيل يترنح فى الفضاء مع نسمات الشمال..

وهاهى ذى واحة الفيوم تقترب مثل جزيرة زمردية وسط فيافى ليبيا الشاسعة، وهاهى تلك البساتين والمروج تتراءى فى مخيلته مزدانة بالكروم والنخيل وأشجار التين والليمون والزيتون والبرتقال..

وطويت ساعة اخرى منذ سار هذا القطار الثانى وظهرت مدينة الفيوم حيث وقف القطار. فنزل فريد ورأى خاله فى انتظاره وقد أقبل عليه مرحباً.. وبعد برهة كانت العربة تسير بهما وسط مدينة قليلة الرواء لاتفرق كثيرا عن عشرات المدن المصرية الاخرى. وبعد قليل وصلا إلى دار نائية فى طرف المدينة حيث تقترب المنازل من الحقول. وهناك رأى سعاد وامها تلوحان له من شرفة المنزل. فغمر السرور قلبه وعاد يخطىء نفسه فى الظن أنه وحيد فى هذه الدنيا..

وبعد فترة قضتها جماعتنا الصغيرة فى تافه الاحاديث والمجاملات قاد ماهر افندى ضيفه إلى غرفة أعدوها له وقال: « لقد اخترنا لك هذه الغرفة اعتقادا منا بأنها تروقك، والآن سأتركك حتى تستريح من السفر وتستبدل ملابسك ». وقبل أن يخرج لحقت بهما سعاد وأشارت نحو النافذة قائلة: « لاشك أن هذا المنظر

الطبيعى سيرضى بنات الشعر اللاتى يسكن فى رأسك !» ثم ضحكت ضحكتها الفضية العابثة وقالت: «أما زلت شاعراً كما كنت فى صباك ؟لقد نسيت -- لندعه يابابا يستريح -- »

ثم قفزت رشيقة لعوبا كعادتها وخرجت وهى تأخذ بذراع والدها بدلال ثم غلقت عليه الباب --

فوقف فريد برهة وسط الحجرة وارتاح إلى وحدة يجمع فيها أشتات نفسه ، وتطلع من النافذة فتراءت تحت أنظاره مساحة عظيمة من الحقول الفيحاء الناضرة ، بها أشجار مورقة مختلفة الأنواع والاحجام منثورة هنا وهناك . . ورأى جدولا يخرج من بحر يوسف ويشق بصفحته المتلألئة ذلك البساط الأخضر ، وسواقى تدور نهارا وليلا بقوة اندفاع الماء فيسمع لها فى سكون المكان نغم حزين وأنين دائم - - -

٣

كانت أسرة ماهر أفندى مؤلفة من ثلاثة أشخاص . هو وزوجه السيدة نرجس وابنتها سعاد . وقدمات لهما ولدان فى طفولتهما وبقيت سعاد وحيدة والديها المدللة ، وأدخلاها مدرسة الرهبات بالفيوم ، فنالت قسطا محدودا من التعليم وقفت عنده ولزمت المنزل تعاون والدتها فى تدبير شئونه وتنتظر العريس ينقلها إلى حياة جديدة يملؤها خيالها بالمباهج --

وكان ماهر أفندى يومئذ فى الخمسين من عمره ، قضى حياته موظفا فى المديرية حتى

بلغ إلى منصب «باشكاتب» مديرية الفيوم ، وكان رجلا طيبا قانعا بوظيفته ومرتبه وحياته - يقضى نهاره فى الديوان ثم يعود الى بيته ليخرج منه فى المساء الى القهوة ليقرأ المقطم ويلعب « الطاولة » أو « الدومينو » مع نفر من زملائه الكهول ، ويعود فى الثامنة مساء للعشاء ثم إلى النوم المبكر ..

أما زوجه فكانت تقضى حياتها فى المنزل وتخرج منه مرة أو مرتين فى الاسبوع لترد الزيارات إلى جاراتها وصاحباتها بالمدينة ..

فى هذا الجو الهادىء والحياة المطردة النسق كانت سعاد تقضى أيامها ، تقطع شطرا من النهار فى مشاركة أمها فى اعداد الغذاء وترتيب البيت - ثم تقضى ساعتين كل يوم فى تنضيد شعرها وعمل التواليت و « المانيكير » ثم الجلوس فى «الفرندة» ، تقرأ الروايات وتشتغل بالتطريز والحياكة ، وتحلم أحلام العذارى الذهبية..

وكانت سعاد اذ ذاك فى التاسعة عشرة من عمرها وقد اكتملت أنوثتها وسمت قامتها وتوردت وجناتها وأشرقت فى وجهها عينان واسعتان فاتنتان وكانت على الرغم من تلك الحياة الراكدة المتشابهة لاترى من الوجود غير وجهه الضاحك المبشر بالآمال الكبار والمستقبل الباسم فكانت لا تكف عن الضحك ولا تمل من المرح والتنكيت لاسيما حين تكون فى جمع من صاحباتها فى أيام المقابلة

وكانت كأخواتها المصريات قد سرت عليها سنة التطور فتشبهت بالفتاة الغربية فى كثير من المظاهر والأساليب ، وبدت أنيقة رشيقة سافرة تواجه الحياة المصرية بثبات ويقظة . .

٤

قضى فريد الأيام الثلاثة الاولى فى منزل خاله مستسلما للراحة والخمول ، وكان يروق له أن يتمدد على مقعد طويل فى « الفرندة » المطلة على الحقل ، يمر بعينيه على سطور الجرائد ، ويتحدث مع سعاد ، ويسرح البصر فى الحقول والبساتين المبسوطة أمامه . .

وكانت سعاد كعادتها تملأ الجو حوله بالضحك والمزاح وتفتن فى معاكسته ومداعبته بشتى الاساليب . فلقى فريد فى مجلسها سلوى وأخذ يجرب اللحاق بها فى مضمار التنكيت والعبث . وآلى على نفسه أن ينعم بالحاضر وينسى الماضى ولا يفكر فى الغد متناسيا أطماعه وآماله فترة ، وأن يرسل نفسه طليقة من كل هم مستسلما لهذا الجو الصافى الجديد ، وهذا الفتور وهذا الهدوء . .

وكانت سعاد فى دخيلة قلبها تعطف عليه ولا تطيق تذكر أنه يتيم الابوين يعيش وحده ويأكل وحده وينام وحده ، وأخذ عطفها يتحول إلى عناية بكل شئونه واهتمام بكل حركاته وسكناته . وسرعان ما تحول العطف إلى ميل زاده ما رأته فيه من صفات أثارت فى نفسها الاعجاب . وكانت تسمع أباها يطريه إذا جاء ذكره ، ويتنبأ له بمستقبل باهر فى المحاماة . ثم إن حياته البوهيمية ومرتبه الضئيل وانطواءه على نفسه كانت تنزله من ذلك العلو الموهوم الذى يرفعه اليه بعض الناس ، ليكون فى مستواها .. ثم هو فوق ذلك يعيش فى القاهرة ويتردد على أوساط الفن حيث تزدحم الغوانى والممثلات فهو فى نظرها أحوج ما يكون إلى امرأة مثلها تحميه من الوقوع فى شراكهن ! . وأدى كل ذلك إلى نتيجة ضاعفت قوتها الألفة وهدوء الوسط ويقظة الأنوثة فأحست نحوه بعاطفة

عذبة مبهمة لم تدر أنها الخطوة الاولى نحو الحب . .

أما فريد فلم تتجه عواطفه نحوهـا على هذا المثال . فهو يحبها حبـا أخوياً منذ الطفـولة . وهى فى عينه كما كانت أيام اعتـادت زيارة القـاهرة مع والديها، أخت له تحنو عليه وتداعبه . فغمرهـا بذلـك الحب الأخوى الذى يتمتـه فى قلبه الأيام وتاقت إليه نفسه . .

وهكذا سار الاثنان فى طريقين مختلفين . وزعما أنهما يسيران معاً نحو غاية واحدة . . أما السيدة نرجس والدة سعـاد، فقد جال فى خاطرها أن فريداً وابنتها شطران يتمم كل منهما الآخر . فليتحابا ما شاءا ، ولتدع هى لهما فرص الحديث الطويل، ليؤدى ذلك إلى التفـاهم وإلى الحب وهـذان يؤديان طبعاً إلى الهدف المقصود وهـو الزواج الموفق . . أليس كلاهمـا فى سن الزواج ؟ . وهما قريبان يعرف احدهما الآخر منـذ الطفولة . ثم أن فريداً فى وحدته ويتمه فى حاجة إلى زوجة تهتم بشئونه ، والزوجة التى يعرفها خير ممن لا يعرفها . . وابنة خاله أجدر الفتيات بالعناية بأمره . وهل يجد خيراً من سعاد ، الفتاة المتعلمة المهذبة الظريفة ؟ لقـد أتم فريد دراسته العاليـة ، وسيصبح فى القريب محاميا كبيراً ذا صيت وغنى ، وستنتقل سعـاد معه إلى القـاهرة التى تحبها وتحقق بالعيش فيها أحلامها . .

وكان ماهر افندى قد فكر مرة فى هذا المشروع ولكنه تركه للأيام تحققه، وكل شىء كما يردد دائما قسمة ونصيب . وممـا دعاه إلى إهماله ولو إلى حين أنه يحب وحيدته حبا جما ولا يطيق البعد عنها فكيف إذا هجرت الفيوم وعاشت بعيداً عنه لا يراها إلا نادرا . . غير أنه وجد من تلميح زوجه ورغبتها فى تلك الزيجة ما جعله يسكن من ثائرة أنانيته وينصر العقل على العاطفة

ويعود إلى اهتمامه الصامت بهذا الموضوع المتعلق بمستقبل وحيدته وسعادتها وقد أدركت اليوم سن الزواج . ثم لماذا لا يمكث فريد معهم فى الفيوم حتى يتم مدة التمرين ويؤسس بها مكتباً للمحاماة ، وتصبح وحيدته بالقرب منه كما يشتهى ؟ . .

وهكذا أثارت زيارة فريد فى هذا المحيط الراكد عاصفة صغيرة فى ثلاثة رءوس ، فأخذ ذلك المحيط الذى لا يسمع فيه غير أنات السواقى ينشط ويتحرك . فزاد الاهتمام بالضيف وزاد فريد شكراً واعترافاً بالجميل لما يلقاه كل ساعة من عطف وحنو وإكرام - ولكنه لم يعجب لذلك ، فهم منذ عرفهم يحبونه وهو اليوم ضيفهم إلى حين قصير ، وهو يعلم أن خاله منذ أن فقد شقيقته يغمره بالعطف . .

ولم يشعر فريد بالرغم من ذكائه بما يدور حوله فى لفائف تلك الرءوس إذ لم تزد ابنة خاله فى عينه عن أخته التى يحبها منذ سنين ، وقد أمسى خاله بعد موت أبيه أباً وامرأة خاله أماً . . وفوق ذلك فان سعاد بالرغم من رشاقتها وخفة روحها وسمرتها الجذابة وانوثتها الناضجة ، لم تثر فيه أى ميل جنسى - وهو لا يرى فيها تحقيقاً لتلك المثل النسوية العليا التى تتجلى فى مخيلته حين يقرأ ويكتب ويتأمل . .

وكان فريد قد وصل إلى الفيوم وهو فى حالة نفسانية شاذة ؛ فهو اليوم عصبى شديد الحساسية كثير الحياء ، يضيق بالناس ويرتاح إلى العزلة التى تربى فى أحضانها ، ويعيش فى عالم كله ألوان وآراء وأصداء لأصوات الشعراء والكتاب . .

وقد راقت له هذه الحياة الجديدة بجوار الحقول والسواقى وبقرب النبات والزرع والشجر ، وبجوار الطيور والحيوانات الأليفة . فشعر أنه يقترب من أمه الطبيعة ويتنسم جو الحرية والانطلاق ، وهو من كان سجين صومعته مع كتبه وأوراقه وأفكاره وأخيلته ، ولطالما حن إلى مثل هذه الحياة البسيطة الطلقة يقر فى كنفها قلبه وتسكن إليها روحه ويلتمس فيها غذاءه الوحيد . .

فكان يطيل النظر إلى المزارع المترامية حوله ، وكانت نضرتها وازدهارها يثيران فى نفسه ارتياحاً عميقاً لا تلبث أن تشوبه المرارة والألم حين يرى وسط

هذا المحيط المائج بالعطر والألوان : ذلك الفلاح المصرى الصبور يجاهد ويكدح ويروى الارض بعرقه من مطلع الفجر حتى المساء ، ولا ينال جزاء جهاده وبلائه غير خبز الذرة وبصل الحقل . وكثيرا مافكر فى شأن هذا المخلوق البائس الذى غرس هذه الجنات وقد أنهكت قواه الأمراض وسار وراءه رهط من الأطفال رث الثياب صفر الوجوه تخترم العلل أجسامهم النحيلة ، ونساء سربلهن الفقر بأردية خشنة المنظر ، يشربن ويغتسلن فى ترع تلقى فيها القاذورات، ويأوين فى زرائب يطن حولها البعوض وتدخلها الماشية وتخرج . .

ورغب فريد بعد هذه الراحة وهذا الخمود أن ينطلق إلى الحقول ويضرب فى الخلاء ويرود وحده تلك النواحى كاشفا دارسا . وكاشف سعاد برغبته فرأت أن ترافقه هى وأبوها « لأنه لا يعرف البلد » . ثم قالت : «لنخرج اليوم معاً ساعة الأصيل ونتمشى على ضفة بحر يوسف حتى نصل إلى الناحية التى بها منزل ايزيس وهناك يمكننا زيارتها لنستريح برهة ثم ... »

وكان فريد يود لو أفلت وحده وضرب فى تلك البقاع بمفرده . ولكنه كظم استياءه وقاطعها بلهجة تنم على شىء من الغيظ : « ايزيس ! ومن هى ايزيس هذه ؟ ومالى والزيارات ؟ لشد ما أحتاج إلى الهدوء بعيداً عن المجتمعات والمنازل ! »

فضحكت سعاد إذ استطاعت معاكسته وقالت : «لا تخف . فهى تعرف عنك كثيرا ! لقد حادثتها عنك مرارا ووجدنا فى الحديث عنك موضوعا جديدا بعد أن فرغت جعبتى من الموضوعات ! هى أعز صديقاتى مذ كنا فى المدرسة ولم أرها منذ عشرة أيام .. »

الفصل الخامس

١

كان أصيل ذلك اليوم باسما رخى النسيم كأنه أحد أيام الربيع الساحرة ، حين خرج فريد وسعاد من المنزل واخترقا بعض شوارع المدينة ولم ير فيها فريد شيئا يستحق الوقوف عنده . ثم خرجا من البلد وانطلقا الى الخلاء فى طريق محفوف بالربى الزاهرة المكسوة بالنخيل والكروم العارشة تتدلى منها عناقيد العنب، وأشجار الكافور والزيتون.ومرا بالسواقى التى تديرها المياه المنحدرة فى مجاريها وبالينابيع التى يتفجر ماؤها الرقراق كأنه ضحكات الأطفال تجرى فى أودية مونقة تكللها أشجار باسقة، فيردها صبايا الريف ليملأن الجرار ، ومن حولها كانت تسرح الطيور وتطن الحشرات سكرى بالدفء والحياة . .

هذه الصور الساحرة أزاحت عن قلب فريد أعباءه فأخذ يملأ رئتيه من تلك النسمات المسكرة كأنها الخمر المعتقة،وأخذت أسارير وجهه تشرق ،وبدأت ضحكات سعاد كأجراس الفضة تطربه وتفعم قلبه بالارتياح . وأحس بروحه تهب من سبات وتستقبل عهدا جديدا . .

وسارا برهة على ضفة بحر يوسف ، ثم أشارت سعاد إلى منزل وردى جاثم وسط البساتين والأشجار يلمع من بعيد فى أشعة الشمس كباقة من الورد بين أوراق غضة خضراء . .

وقالت : «هاهو المنزل الذى تعيش فيه ايزيس مع والديها وأخيها الصغير عيشة هادئة تقضيها فى عزف الموسيقى والقراءة والتصوير ،واذا ما أقبلت صديقاتها لزيارتها سمعن عن بعد نغمات البيانو الحلوة تحملها النسمات متماوجة فوق المروج

محدثة فى ذلك السكون المهيب أثرا فى النفس لايسع الناس حياله إلا أن يتهامسوا قائلين : ما أسعد ايزيس بهذا الفردوس !

ورأت سعاد أن فريدا لم يزل صامتا فراق لها هذا الاسلوب الشعرى الذى يطرب له وتابعت حديثها قائلة : « ولكنى لا أعتقد أن ايزيس سعيدة كما يظنون ، لأن قلبها السخى الحساس ممتلئ دائما بحنين مبهم ونفسها تجول أبداً فى أعال لاتدركها العيون وجسدها كثيرا مايعانى السقام !

وكان فريد يتطلع طول الطريق إلى صور المزارع والبساتين كما لو كان فى حلم. فقد أحس كأنه يعرف هذه البقاع وهذه الأجواء السحرية من قبل ، وأخذ تداعى المعانى ينقله من خاطر إلى خاطر ، حتى وصل به الى ماقرأه عن عودة الأرواح وتجسدها بعد سنين أو أجيال . ثم فكر فى مسألة النفس وهى لم تزل غامضة معقدة على الرغم مما كتب عنها من طوال الأبحاث والكتب . وتساءل قائلا : « ولم لاتعود الروح وأين نحن من هذه الخفايا والاسرار؟وما أدرانا من نحن وماذا كنا وماذا سنصير ! » ثم ذكر قول الماديين فى مثل هذه الآراء فظهرت له فكرة عودة النفس وتجسدها غريبة ـ ونقله تداعى المعانى سريعا إلى صديقه سمير وما كان يقوله ويعيده ، فبدرت منه ضحكة لم تفهمها سعاد إذ كانت تتحدث بجد واهتمام ، فسكتت لحظة ثم قالت باستياء :

— ألم يعجبك حديثى ؟ أنت تعلم أنى لست شاعرة ولا دراية لى بأساليب الكتب مثلكم !

فتنبه فريد وكان لم يسمع غير عبارتها الأخيرة فقال :

— عفواً ياسعاد ، ذكرت موضوعا قديما مر برأسى مصادفة ، هأنذا مصغ إليك . .

— لقلما تصغى إلى ! .

— أنت واهمة ،أنا منصت فأكملى :

— ومع ذلك فايزيس على قسط وافر من التعليم ،وهى تجد عزاءها فى الموسيقى، وتميل مثل أبيها إلى مطالعة الكتب لاسيا المختصة منها بقدماء المصريين . لكل فنان شذوذ كما تعلم، ويخيل إلى أنها تعيش وسط أسرار وألغاز وقد أثرت بسحرها هذا على صاحباتها فبدت آثار فتنتها فى حركاتهن وأقوالهن ! أنتما المسكينان مصابان بهوس القراءة و « لحسة » الشعر . لكنى بالرغم من ذلك أحبها كأختى . وطالما قضيت معها فى حديقتها أطيب الأوقات .. هاقد وصلنا سريعا إلى منزلها . .

وسكتت سعاد بعد أن استبدت بالحديث فى شتى الشئون طول الطريق . وكانا قد اقتربا من البوابة الخارجية فأخذت بذراع صاحبها ودخلا الحديقة المحوطة بسور مرتفع مزين بالشجر ، فلاحظ فريد أن الدار على النمط المصرى القديم ثم قال كمن يحدث نفسه :

— يخيل إلى أنى رأيت مثل هذا الطراز مصوراً فى كتاب آثار اخيتاتون ،المدينة التى شيدها اخناتون الملك الشاعر بتل العمارنة . .

— نعم فنجيب بك السويفى والد ايزيس شغوف بتاريخ المصريين القدماء كما قلت لك ،وله المام بالهير وغليفية .فلا تنس التحدث إليه فى هذه الأشياء لأنه يحب ذلك . وقد كان إلى عهد قريب يبحث عن الآثار فى منطقة اللاهون ولكنه اليوم مشغول عنها بأطيانه . .

٢

ثم سارا فى ممرات الحديقة المنسقة على الطريقة المصرية القديمة ، وكان فى وسطها نافورة للماء أمامها تمثال من الجرانيت متوسط الحجم لأبى الهول قابع فى مكانه أشبه بكلب الحراسة الامين لا يغمض عينا . .

وأجفل فريد وسط هذا السكون الشامل، إذ فاجأته سعاد بصيحة حادة تنادى بها صاحبتها ايزيس من وسط الحديقة ..

وما هى إلا لحظة حتى ظهرت على شرفة تعلو عن أرض الحديقة بضع درجات، فتاة ممشوقة القامة مقبلة بخطى متزنة وابتسامة حلوة تتهادى كأنها ملكة. فهرولت نحوها سعاد صائحة :

— ايزيس ! لم أرك من زمن !. كيف صحتك ؟ أقدم لك ابن عمى فريد أتى من القاهرة منذ ثلاثة أيام . ولم يخرج إلا اليوم ليتفرج على البلد . وقد وعد بقضاء مدة طويلة عندنا .. هو شاعر كما يبدو عليه ، وعيبه الوحيد أنه يحب كتبه أكثر مما يحب الناس ..

فابتسمت ايزيس ومدت يمناها الى فريد فتصافحا ولم يكن احدهما قد رأى الآخر من قبل ، ولكنه شعر حين رآها بارتياح عميق بل بغبطة وخيل إليه أنه أبصرها قبل الان ، وأنه يستفيق من حلم .. ثم جمع قواه وتفرس فى وجهها فالتقت عيناها ، فأسلبت ايزيس جفنيها بخفر . وأشاح بوجهه كيلا يبهره ذلك السناء .

وعادت سعاد تثرثر وتضحك، وايزيس تتأملها باسمة ، ووقف هو يتأمل ايزيس مستعرضا فى ذاكرته ما سمعه عنها من سعاد من عبارات قليلة ، ولاحظ أنها فتاة ذات شخصية غير عادية .وخيل إليه أنها الآن وهى واقفة على مدخل دارها تشبه دمية نقية لالاهة مصرية رحيمة كشفت عن قناعها وغادرت قدس هيكلها، استجابة لدعوات عبادها الاوفياء الصابرين ..

كان لايزيس وجه مشرق بديع التقاطيع ، عليه من الشحوب غلالة شفافة، وسمرة رقيقة من شمس وادى النيل ، تسطع فيه عينان واسعتان صافيتان كسماء مصر، تزخران بالحياة . وفيهما سحر ومعان ، وفيهما أيضا قبس من الكآبة الشعرية

مثل ما فى مواويل الريف . وهما بعد ذلك يشفان فى صفائهما عن أغوار سحيقة لاقرار لها . وتحس بهما يجذبان العيون الاخرى الى التفرس فى لألائهما . بحيث لايستطيع أن يعبر الناظر اليهما لأول وهلة إلا بقوله انهما عينان رائعتان ..

ورأى فريد على رأسها تاجا بديعا من الشعر الغزير الناعم ، منسق مرتب ، تركته ينسدل على عنقهـا وقصت منه مازاد على الـكتفين .. وكان لها فم طفل ساهم حالم كثيرا ماتزينه ابتسامة حلوة لاتلبث أن تتوارى وراء سحابة من الالم المستور والاستهانة بالحياة ، كأنهـا بارقة من الامل البهيج تسطع وتخبو فى غمامة اليأس ..

وعاد فريد يتأملها خلسة،فلاحظ أن قامتها المشوقة تشبه الزهرة فى أكمامها . وأن لها صدراً ناهدا بديعا ، وصوتا حنونا كأنفاس الناى يترك من صداه رنينـا يتلاشى متباطئا فى قرارة القلب ..

ثم وقف هنا فى تصويره ليسير معها الى غرفة الضيوف،حيث دعتها ايزيس فوجدها رحبة تشتمل على أثاث وصور وتماثيل وسـدول مصرية تذكر بمتحف جميل يضم مجموعة من الاثار المصرية وتخيم عليه المهابة والاسرار . .

وجلسوا جميعا وأنصت فريد إليها وهى تتحدث بصوتها الرخيم ، وتأملها وهى تتحرك برصانة وانسجام ، وعاد فوجدها ذات شخصية محببة ،تعرف كيف تصغى و كيف تجلس باعتدال وظرف وهدوء ، فاذا وقفت فبلباقة و بغير تكلف . وهى فى إشارات يديها وحركات قدميها تعبر فى جلاء عما أعطيت من موهبة التوازن وضبط النفس . .

كان جمالها فى بساطته لاتعوزه فى عين فريد الرصانة التى كثيرا ما تضيع على الحسان المفتقرات اليه جاذبيتهن الشخصية ،وزعم أن هناك جمالا روحانيا خفيا هو مصدر هذه

الجاذبية التى تأخذ الجالس إلى إيزيس . .

واتجهت ايزيس نحو فريد وقالت :

« قرأت كتابك الذى أهديته إلى ماهر أفندى ، فقد أعارتنى اياه سعاد وشكرتها يومذاك على تلك المنة ، واليوم أرانى سعيدة بالتعرف إلى مؤلفه ، إذ راقنى مافيه من آراء تتفق مع مذهبى وآرائى تماما » .

فبدا الاهتمام على وجه فريد وتهيأ ليحاضر الغادتين فى موضوع هذا الكتيب ، وليفهمهما أن هذا العمل ماهو إلا محاولة مبدأية يأمل أن يتبعها ببرنامج شامل . وود لو استطاع أن يلم كل مالديه من أفكار ومبادئ فيلخصها فى بعض جمل قليلة جميلة ! إلا أنه فوجئ بصرخة ناعمـة أعقبها ضحك ، إذ قفز كلب إيزيس « اللولو » الظريف على حجر سعاد وشاء أن يلحس خدها أولعله شاء أن يقبلها !

ثم قضى الجميع ساعة طوف الحديث فيها كل مطاف ؛ ومالبث أن قفز إلى أعماق التاريخ وجال فى عصور الفراعنة وحول آثار الفيوم وعن الموسيقى القديمة والحديثة . وكان أن قال فريد .

— إن من يحج لأول مرة إلى هذا المنزل الفرعونى القائم فى هذا المحيط الهادئ والجو السحرى كأنما هو هيكل من هياكل منف ، ثم يجلس وقد أحاطت به هذه الصور والرسوم والطلاسم ، يحس بروحه تتخطى الأجيال والعصور ، وتقف مع الكهنة المرنمين لرع عند مشرق الشمس فى جو ملئ بالأحلام والأسرار ، فتشعر أنها تحررت لحظة من سجنها الجسدى الذى يلصقها بتراب الأرض ومن هذا السجن الارضى الذى لايمل من الدوران بمن فيه حول نفسه . .

فأجابته إيزيس :

— ليس أحب إلى النفس التى أمضها هوس المدنية وتكاليفها ، وأضجرها الزحام وضجيجه وآلمها مرآى الشر والفوضى ، من أن تستسلم إلى مكان يشيع

فيه السحر والصمت والأحلام ، لتسترد صفاءها وحريتها . غير أن هذا الصمت إذا ما طال أمده ثارت به النفس وتطلبت الحياة والحركة . وهذا مايحدث لى هنا أحيانا ، فأهرب إلى المجتمعات أو ألجأ إلى الموسيقى أملأ بها الفضاء وأحرك بها سواكن الجو ..

— تلجأين إلى واحةسحريةأخرى.انى لأغبطك إذ تكشفين عن جمال الوجود

— لا أستطيع أن أتصور الوجود خاليا من الموسيقى . !

— إنها أوضح بيان للجمال فى شكله وروحه ..

— وهى السلوى التى أغالب بها الملل والوحدة الدائمة فى هــــذه الناحية المنعزلة التى نعيش فيها ، إنها تعيرنى أجنحة أرتفع بها فوق هـذا العالم ، وتهبنى تعبيراً نقيا أفصح به عما تعجز الألفاظ أن تعبر عنه . حقا ما قيــل فيها أنها تشع جمال الفنون جميعا . !

وهنا قالت سعاد باسمة :

— يروق لى أن أسمع اوبيرات فاجنروسيمفونيات بيتهوفن منبعثة من هذا الهيكل المصرى المسحور ، كما يروق لى أن أرى شيخا معمما يتحدث باللهجة الباريسية!

فضحكت ايزيس وقالت :

لا بالعكس ، ان موسيقى بيتهوفن تزداد هنا مهابة وجلالا . على انى كنت أود أن أعزف فى هذا الجو موسيقى مصرية قديمة ، ولكنها ضاعت وعفت ألحانهـا ، مع مابقى لنا من آثار كثيرة تخلفت عن الحضارة المصرية القديمــة ، وبينها رسوم الآلات الموسيقية وكثيرا من الأناشيـد والأشعار .لقد خطر لى مرة أن أضع ألحاناً لأناشيد اخناتون ..حاولت ذلك.. ولكن الطريف أننى كنت أوقع تلك الأناشيد الدينية القديمة على بيانو عصرى . فلعــل فى ذلك رمزا إلى ربط الماضى بالحاضر والمستقبــل ..

وكانت ايزيس تتكلم بصوتها الرخيم ، وكان فريد وهو الشاب الشاعرى المزاج ، الشديد الحساسية ، جالساً فى تلك الغرفة المسحورة كالمأخوذ .. ولبث برهة صامتاً كاللجة تخفى فى أغوارها عوالم من عجائب الخليقة . وأحس بروحه يستيقظ من سبات عميق ، وكأنما يرى أشباحا طالما تجلت أمامه فى أحلامه ، وذكر أنه كثيراً ما رأى فى تلك الاحلام فتاة مثل ايزيس تمر أمامه كالطيف أو تحنو عليه كالأم . فأسند رأسه على ظهر المقعد وأغمض عينيه مستسلما لتلك اليقظة الروحية . وفى هذه اللحظة عرت ايزيس رعدة وأخذت تتأمل فى وجه هذا الشاب الذى هبط عليها الآن وكانت سحنته أولى أن تكون هيئة فكرة لاهيئة بشر ، وكانت تتساءل فى نفسها هى أيضا أين رأته قبل اليوم ! .

وفى صمت تلك البرهة المليئة بغوامض الروح دوت ضحكة عابثة وسمعت سعاد تصيح : « الله ! أنت ناوى تنام ياسى فريد ؟ . »

فانتبه فريد وتطلع نحو سعاد وهو ينتزع نفسه كأنما ينتزعها من حلم عميق ، فالتقت عيناه الحالمتان بعينيها الضاحكتين وحاول الابتسام وقد آلمه هذا الهبوط الفجائى إلى أرض الحقيقة !

فقالت سعاد ثانية : اسمعينا شيئا على البيانو ياايزيس لأن فريدا نعس !

٣

وهنا نهضت إيزيس ودعت ضيفيها إلى غرفة صغيرة مجاورة بها بيانة عليها تمثالان صغيران لاخناتون وزوجه الملكة نفرتيتى ، يتوسطهما اناء مصرى للازهار وكانت الارض مغطاة بحصير من البردى الفاخر والجدر منقوشة بأزهار اللوتس المذهبة ورسوم المعبودات الملونة . فكان وجود هذه البيانة السوداء الكبيرة فى هذه الغرفة تنافر لم يرض فريدا ، ولكنه رأى أن لامفر من ذلك وإلا فأين

آلات مصر القديمة التى يمكن أن تعزف عليها فتاة عصرية مثل إيزيس ؟

ثم جلست إلى بيانها .. وبعد برهة صامتة أخذت أناملها تمر على أصابع العاج كما تمر الأمانى العذبة على القلب الكئيب.. وبدأت توقع مقدمة موسيقية أعقبتها باحدى أناشيد اتون ، الشمس المشرقة ، رمز الاله القوى ، وهى إنشودة قديمة نقلتها عن أخناتون ولحنتها بنفسها ومما جاء بها :

«عندما تبزغ من الأفق الشرقى فى السماء ..

تبهر الأقطار كلها بسنائك ..

إذ أنت جميل عظيم متلألئ تسمو فوق الأرض ..

أبدعت الجمال فى نفسك . وفى المدن والقرى والضياع ..

فى الجبال وعلى ضفاف الانهار .. كل العيون تراك لأنك أنت أتون .. رب النهار على الأرض .. الخ .. »

وقد تصاعد غناؤها أو صلاتها كأنه بخور يحترق فوق هيكل يوحى بشذاه الغامض وبأسراره المبهمة إلى الفضاء فيبعث الشجو ويصقل النفس ويعير الخيال أجنحة من نور ، وكان قلبها يفشى أسراره فى تلك الألحان ويفصح عن نفسه باسلوب ليس لكل سامع أن يفهمه . كان فيه شىء من الانكسار وفيه شىء من الكبرياء ، فيه تمرد . وفيه عشق الحياة والنظرة الشاعرة لما فى الحياة من رواء وعمق ، وفيه ألم دفين وكآبة تنبعث من روح غامضة ..

وكانت الشمس فى مغربها قد أضرمت فى الأفق لهيباً ارجوانيا وذهبا متوهجا ، ورسم رع بأشعته صورا رمزية ملونة فوق السحب وعلى الغيوم التى تناثرت قطعا فى غير انتظام، فى الفضاء الواسع كأنها قطع من الوشى . فكأن السماء فى مهرجان تزف فيه عروس النهار نحو خدرها ..

والنخيل بدا من النافـذة مطوقا جيـد الافق كشموع هائلة موقـدة حول تابوت .. وظهرت أشجار السنط والكافور متحجبة بالذهول كأنها أشباح الليل خرجت تسعى فى حلوكة الظلمه . .

وانعكست مشاعل السماء وذهبها على وجـه ايزيس وهى تنشد من أعماق قلبها بصوت ساحر عذب شجى ، فبـدت فى اطـار من القـداسة مثل الالاهـه ايزيس وامتلأ المكان بأسرار وطلاسم . وكأن أرواح كهنـة اتون وعـذارى اخيتاتون وسحرة هليوبوليس قـد تزاحمت فى تلك الغرفة وفى الفضـاء حولها منصتة . .

وتوقفت ايزيس، وعم الصمت لحظة فضاء الغرفة . ثم تطلعت إلى ضيفها بعينيها الساحرتين فتلاقت عيناهما برهة مليئـة كالابدية بمكنوناتهـا .. ثم تكلمت بصوت خافت :

— حينما زرت آثار اخيتاتون بتل العمارنة ، مع أبى منذ سنتين . ووقفت أتأمل الرسوم المنقوشة على الجدر ، ورأيت قرص الشمس يسطع فوق الفرعون الشاعر الشاب وقد جلست نفرتيتى إلى جانبه،وحولهما شعبهما يقدم القرابين ويتلو التراتيل،أمام أتون رمز الحياة والخـلود : شعرت بذاكرتى تتيقظ وكأنى بالزمن يعود بى إلى الوراء قافزاً فوق الفصول والسنين والقرون ، فخيل إلى انى عشت قبل اليوم ، وإننى كنت مع أولئك المـرنمين والمرنمـات نقـدم الاكرام ساعة الغروب إلى سيد أتون الاله الأحد . .

فحدق فريد الى وجهها مبهوتا ثم قال بعد برهة :

— كنت أقرأ سيرة ذلك الشـاب منذ سنتين ، وتجسمت أمامى صورته، وهو يتمشى وحـده فى حـدائق قصره غارقا فى تأملاته ، وحين يتنزه مع أمه الملكة تى فى زورقها الجميل السـابح فى بحيرة القصر ، وحيث يستظل مع زوجه

اللطيفة تفرتيتى باحدى الخمائل التى تنفذ أشعة أتون بين أغصانها هادئة . وتخيلته فى عزلته وصمته يفكر،فيهديه تفكيره إلى وجود إله واحد غير منظور هو الاب الخالق لجميع الشعوب ولكل الكائنات. كما تهديه بصيرته إلى محبة السلام والبساطة وكره الخرافات والأصنام والالغاز . لقد سبق عصره بمبادئه . إنى لأشعر الآن أنها جديدة فى قلبي وأن الانسان فى حاجة إلى احيائها . .

٤

— أهلا وسهلا .! سعاد هنا !..

وهنا حدث لغط وجلب إذ أقبلت والدة إيزيس ووالدها وأخوها الاصغر أوزيريس وكانوا فى أسواق المدينة يشترون بعض حاجياتهم ..

— أقدم لك الاستاذ فريد يابابا ، ابن عمة سعاد ، ومن أدباء القاهرة ..

— أهلا ومرحباً .. تشرفنا ياأستاذ .. كيف وجدتم بلدنا ؟

— سحر وجمال ! ..

— ذلك لأن هذا الاقليم غنى بمناظره الطبيعية،وبذكرياته التاريخية.. وقلما تجد بمصر اقليما مثله يجمع بين ذهب الصحراء وخضرة الحقول وزرقة الماء.لعلك شاهدت الريف والبركة وبقايا قصر اللابرنث ..

— آمل أن أرى كل ذلك فى القريب ..

— ألا ترغبون فى الجلوس فى الحديقة ، إن الجو هنا حار والغرفة ضيقة ..

— تفضل يا أستاذ ، تفضلوا جميعا ..

وخرجوا جميعا الى الحديقة ، وكان الجو صائفا رائقا ، خاليـا من رطوبة المساء ، وأخذت ايزيس تطوف بضيفيها فى الحديقة برهة لتريهم صنوف الزهر الذى تكلؤه بعنايتها وبينه زهر اللونس والبنفسج المخملى العديد الألوان ..

ثم عادوا فانتظمهم جميعا مجلس لطيف على مقاعد القش المنثورة فى الحديقة، وأحضرت أكواب الليمون المثلج . وبعد ساعة قضوها فى مختلف الأحاديث ارتأى الشباب أن يخرجوا قليلا للتريض على ضفة بحر يوسف ، ورأى الوالدان وصغيرهما أن يبقوا فى المنزل إذ كانوا متعبين . .

وقد بدأ الليل ينشر جناحيه ، والبدر يطل من عليائه ، وأنفاس الربيع تهب معطرة رخوة . والمكان صامت ساج . وبحر يوسف يلمع فى الأشعة اللازوردية مثل عقد من الالماس على صدر فتاة متوشحة بالسواد .. وعلى الشاطىء الذى أقفر من السابلة أخذت الأعشاب والزهرات البرية تترنح مع نسيم المساء كأنما تتغازل وتتهامس ..

فى تلك الساعة الصافيه أخذت القلوب تقترب من القلوب . وهبط اله الحب من سمائه يلهو ويعبث بين تلك القلوب الفتية الثلاثة . فشعرت سعاد انها زادت تعلقا بفريد . وشعر فريد انه زاد تعلقا بايزيس . وأحست ايزيس بعاطفة عذبة مبهمة تجذبها نحو فريد .

وجلس الثلاثة على أعشاب الشاطىء فى ذلك السكون الشامل ، وتطلعوا لحظة إلى البدر وهو يتسلق قبة السماء على مهل، بينما كانت بعض السحب المهلهلة، تشف وتتكاثف ، بيضاء وسوداء ، تمر أمامه بتوان فتحجبه حينا عن العيون ثم تتمزق فى الحيز كالأحلام المبددة أمام نور الواقع ..

كان القمر يطل على هذا الثالوث بعين الحنان من عزلته السماوية كأنما ألف رؤية مثل هذه الجلسات فى طوافه الأبدى حول الأرض ، وألف مرآى ذلك الجنون الذى يثيره فى عقول المحبين والشعراء ..

وبدأت النسمات تبترد .. وأخذت ايزيس فجأة تسعل سعالا خفيفا ، فذكرهم ذلك بالعودة إلى المنزل .. وبعد برهة انصرف فريد وسعاد إلى دارهما حيث وجدا

ماهر افندى والسيدة نرجس فى انتظارهما للعشاء ..

الفصل السادس

١

فى تلك الليلة كان فريد فى فراشه يجتر حوادث هذا المساء ، ويستعيد إلى ذاكرته كل كلمة وكل موقف . ولم يستطع النوم حتى مطلع الفجر ، وقد شعر أنه تبدل انسانا آخر وأنه ،غفر للدهر كل سيئاته من أجل هذا المساء المجيد ..

واستيقظ من نومه متأخرا فى الصباح التالى .. وفتح النافذة فانطلقت أنظاره مرفرفة فوق مساحات الحقول النضرة . وداعب أنفه أريج النباتات والأشجار ، فأحس بالغبطة تملأ جوانحه وأنه زاد شغفا بالغيطان بل بكل ما فى الفيوم من حى وجماد ..

وعاد يذكر ليلة الأمس ،وحام فكره حول ايزيس ،ثم تمثل له ضعفه وكيف وهو عابر للسبيل هبط هذا البلد منذ أيام قلائل ، وسيرحل عنه بعد بضعة أسابيع ليستأنف الجهاد وليشق له طريقا فى الحياة ، أصبح العوبة بين يدى العاطفة . وفى ليلة واحدة يقع أسير المرأة ! فايزيس فتاة ذات سحر وفتنة ولكن ماله ولها ؟ أنه سيمضى إلى شأنه وستجمعه المصادفات مع عشرات الفتيات أمثالها كما جمعته معها بالأمس . وعلى الارض من يفقنها جمالا وذكاء . وفى العالم الوف العذارى النضرات كزنابق الربيع . وفى الزمان ليال أروع من ليلة الأمس التى سحرته وبلبلت أفكاره !

إلا أن عواطفه ثائرة وارادته تخونه . . وكل ما انطبع فى فكره من آراء الحكماء وأنا شيد الشعراء لا يستطيع أن يعيد إليه الهدوء والاستقرار ..

وكانت ايزيس فى تلك الليلة أيضا تحس باضطراب على غير عادتها. وقضت شطراً من الليل تجاهد الارق وتخادع الكرى. وانتابها السعال غير مرة ..

أما سعاد فباتت تحلم فى البيت الجميل الذى سيجمعها وفريد فى القاهرة، مدينة أحلامها، حيث تعيش كزوجة عيشة هانئة سعيدة ..

والتقى فريد بسعاد فى الشرفة، فاستقبلته بوجه ناضر مشرق تزينه ابتسامة مغرية، ولاحظت عليه تأخره هذا الصباح فى الاستيقاظ، ثم جلسا يتحدثان عن مساء الأمس وعن ايزيس واسرتها وخلقها وحياتها. وكان الحديث عن ايزيس عذبا على مسامع فريد وود لو سألها كيف السبيل إلى رؤيتها ثانية . .

وبعد بضعة أيام قضاها فى الانتظار والقلق، علم أن ايزيس آتية لزيارة صاحبتها. فقضى ساعة يتأنق فى ملبسه ويتطلع تارة إلى المرآة وأخرى من النافذة. وأخيرا أقبلت ايزيس فى سيارة أبيها، وجلس الجميع فى « الصالون » يتبادلون شتى الأحاديث. وكان أن اتفقوا على زيارة ضواحى المدينة وعين السليين وبركة قارون ومناطق الآثار بصحبة نجيب بك وعينوا لذلك يوما قريبا . . واحتكرت سعاد الحديث وكانت لاتنتهى من موضوع حتى تثرثر فى غيره. فتحدثت إلى ايزيس عن « التريكو » وعرضت عليها فستانها الصيفى الجديد، ولامت الخياطة على عدم تقيدها « بالموديل » الذى رأته فى دفتر « المودات » ثم حاضرت سامعيها عن آخر ماسمعته عن مودات «المايو» فى سيدى بشر ..

ولم تمض عشرة أيام منذ مجئ فريد إلى الفيوم حتى لاحظت سعاد أن طباعه قد داخلها شئ من التغير. فهو اليوم يطيل المكوث فى غرفة لسبب ولغير سبب. وهو اليوم كثير الصمت والتفكير، وقد علت جبينه سحابة، وكثر حديثه عن جمال الحقول والسماء وغيرها حتى برمت سعاد بهذا الضرب من العبث. وهى التى لاترى فى هذه المناظر ولافى الفيوم كلها ماينسيها جمال القاهرة اوالاسكندرية

وما فيها من ملاه ومجتمعات وزحام . وقد كاد البرنامج الذى رتبته فى مخيلتها ينهار ، إذ كانت تعلق على مجىء فريد الآمال . . فهو سيؤنسها فى وحدتها ، وهو سينسيها ماتعانيه أحيانا فى تلك المدينة الموحشة من ملل وسأم . وهى فى قرارة قلبها تكن له حبا تضمره ، وتنتظر منه وهو الرجل الأكثر منها جرأة ، أن يشجعها عليه ويبادلها اياه . فماذا ياترى طرأ عليه ؟ حقا إنه غريب الأطوار ، وانها لترجو أن تخرجه من تلك الزمرة ، زمرة الفنانين ذوى الامزجة الشاعرية المتقلبة ، العائشين فى ملكوت أنفسهم ، التائهين فى أجواء أحلامهم . وهى لم تيأس من رياضته وصممت على المثابرة بعناد حتى يتم لها النصر فى النهاية . . وفكرت فى اخراجه من عزلته وكانت تلح عليه فى مرافقتها إلى المتنزه والى ضفاف بحر يوسف وتشير على أبيها أن يصحبه إلى القهوة ليتسلى برؤية لعب الطاولة والدومينو ، وتلح عليه فى مرافقتها إلى السوق لشراء حاجياتها . فيدخل معها حوانيت «المانيفاتورة» ومتاجر الاقمشة والخيوط ، ويقف بجانبها وهى تستعرض عشرات الالوان ، وتساوم البائع وتتنقل من متجر إلى مخزن ، وهى لا تنفك تستشير فريدا فى لون القماش ومتانته ، وفى صنوف الاشرطة والخرز وزجاجات العطور وأصابع التجميل وعلب المساحيق ، حتى تنتهى إلى شراء شىء وقد لا تشترى شيئا . .

ثم أقبل اليوم المتفق عليه للتجول فى أرباض الفيوم وبين القرى والمزارع . وكان فريد مغتبطا بتلك الرحلة أشد الغبطة . فهو سيقضى نهارا كاملا مع ايزيس ، وسيتناول معها الغذاء ، وسيطوف الى جانبها فى أنحاء جميلة ، وسيتحادثان ساعات عدة ، وسيشبع عينيه وأذنيه وقلبه من محاسنها . .

وفى ذلك الصباح الباكر كانت سيارة نجيب بك السويفى تحمله وابنته ايزيس وابنه اوزيريس وسعاد وفريدا . . وسرعان ما خرجت بهم عن المدينة ، فمروا بين الاكواخ والمساكن الفقيرة . ثم ساروا الهوينا فى طريق خلوى تحفه

المزارع الواسعة حيث تنتثر ألوف النخيل ، يطول كالمسلات ويقصر كالاقزام .. وأخذت صور الريف تتشكل أمامهم .. فهنا بعض الفلاحات يحملن المقاطف وحزم البرسيم .. وصبايا القرى حاملات جرار الماء ينشدن الاغانى . . وهذى شراذم الماعز والعجول والحمير تتفرق حولهم وتفسح لسيارتهم الطريق .. وتلك قطعان الغنم والحملان تسرح وتموء بجوارهم .. وبساتين التين والزيتون تتكشف أمامهم حينا وتستتر وراء أسوارها حينا آخر .. والقنوات تتلوى بين الحقول كالثعابين ويسطع بريقها فى شمس الصباح . . وأشجار الاتل والكافور تظل الطريق..

ثم وقفوا بسيارتهم على مقربة من «عين السيلين» حيث يتفجر ينبوع عذب يكلله النخيل والتوت ، يرده الفتيات طول النهار ليملأن منه الجرار .. ثم نزلوا يمرخون فى قرية « فيديمين » ويتسلقون روابيها ومدرجاتها المزروعة .. وجلسوا برهة فى ظلال النبق يتناولون الفطور .. ثم عادوا إلى السيارة وقد أخذت الشمس تنثر ذهبها فوق الحقول الخضراء والمحصودة .. ومروا وسط بلدة سنهور وخرجوا منها إلى الغيطان الفسيحة ثانية . وانعطف بهم الطريق تجاوره ترعتان صغيرتان يستحم فيهما بعض الغلمان .. وشرع نجيب بك يتحدث إلى فريد عن الفيوم ويقص كيف كان ملوك الاسرة الثانية عشرة المصرية يخزنون فى منخفضها مياه الفيضان للانتفاع بها وقت التحاريق ، وكيف أطال امنمحعت الثالث ذلك السد العظيم الذى يحجز وراءه الماء ، وكيف شيد ملوك تلك الاسرة بلدة عظيمة بالفيوم دعاها اليونان ارسينو أو كروكوديلوبوليس ، وشيدوا بها معبدا لسبك التمساح المقدس ، وكيف نسب هيرودوت إلى امنمحعت الثالث فضل انشاء بحيرة موريس ، وما ذكره استرابو عن قصر اللابرنت وعن المدينة التى شيدت حول هذا القصر ..

وبعد ساعة قضوها فى ذلك الريف البديع ، أقبلوا على بركة قارون ، وهى على

عهدها ساجية راقدة ، ليست على كثير من الجمال ، تطوى فى غورها المطمئن ذكريات الأجيال السحيقه. وهناك وقفوا برهة أمام زرقة الماء تنساب فيه زوارق الصيادين . ومن وراء البركة كان ذهب الصحراء يتوهج فى أشعة الشمس . فارتأت إيزيس أن يستقلوا قاربا يسبح بهم على وجه البحيرة . وما هى إلا برهة حتى حملهم القارب فى وسط ذلك الصمت الشامل إلى « كوم أوشيم » حيث تناولوا الغذاء واستراحوا وتحدثوا فى ظلال الغصون ..

ثم احتواهم فضاء الصحراء ، وكانت ريح الشمال تهب رخاء جافة أنستهم قيظ الصيف ، وذكرتهم فى ذلك اليوم الباسم بنسمات الربيع وساعاته الصافية. وهناك تمشوا فى مساحات رملية نظيفة تمثل النقاء والطهارة . وأخذت إيزيس تملأ صدرها بهواء الصحراء الجاف النقى . . كانت مجنونة بالهواء حباً ، كانت تنطلق فيه وتستسلم له وتغيب فى تياره كما يغيب السابح فى لجة الماء .. كانت تنهل منه بل كانت تعب فيه حتى الشرق . . كانت تشرب منه وتشربه من نفسها واحساسها ، شاعرة أنه معدن شبابها ومادة حياتها وجوهر القوة والصحة والنشاط فيها ، ذلك الجوهر المنشود الذى لا يمكن أن تصبح المرأة أنثى كاملة الفتنة إلا متى توافرت فيها عناصره التى لا تبدع الانسان فقط بل كل حياة تدب على الأرض ..

وطفقت إيزيس تطفر كالغزال فرحة مبتهجة بالهواء وبالضوء ، وبهذه الصحبة وبتلك الرحلة . ترى فى كل ما حولها جمالا وفتنة وألواناً وتود لو استطاعت معانقة هذا الوجود كله وأخذت تقص على فريد وهما يسيران جنبا إلى جنب كيف عشقت الصحراء والخلاء حيث حياة الهدوء والصمت، والبعد عن الضجيج والضوضاء والتدافع بالمناكب ، حيث تتجلى البساطة وتتحرر

الذات من كثير من القيود ، وتقترب النفس من الروح الكلى . ولاحظ فريد أن لانهاية الصحراء ترينا صغرنا وعجزنا وسخافةملاهينا اليومية وحقارة نزاعنا بعضنا مع البعض الآخر ، وتثير رغبتنا نحو المجهول . .

وتجلت شاعرية إيزيس فى تلك الساعة وهى تجول بعينيها فى جنبات تلك الفلاة الشهباء اللامعة ، التى لاترى العين لها نهاية ولاتسمع الاذن فيها نأمة . فوقها كرة من نار تتسلق قبة شديدة الزرقة . . وأخذت تقول فى صوت خافت وهى تحدق فى مجاهل الافق كأنها ترنم من أعماق قلبها :

— الشمس . . هذاالنور . . وهذهالاشعةالتى تجفف دموع الأزهار وعبرات المتألمين . . وتتغلغل فى كل نبت وفى كل كوخ مثل محبة الأم . . آه لو استطعت أن أسبح فى هذه الأشعة الفضية مثل فراشة سعيدة وأعلو إلى الطبقات العليا الصامتة لأنصت إلى أناشيد نفسى . . إن نفسى وجسدى كليهما يتطلبان النور وأشعة رع العظيم . . هما دوائى . . . وكم يلذ لى أن أنفرد فى شمس الشتاء أمام لمة من الأزهار كأنها ثغور تبتسم وتضحك، أوتل من رمل الصحراء الذهبى يتلألأ فى الاشعة. وأدع خيالى ينطاق حراً فيطوف بى أنحاء السموات والأرض . . إن هذا اليوم الربيعى الصافى يذكرنى بحلاوة تلك الساعات . .

كان كل منهما مشغولا بصاحبه . وكان التفاهم بينهما يغنيهما عن الكلام . . وكان قلباهما يتناجيان بذلك الحديث غير المسموع . . وشفتاهما تتبادلان الابتسام . وعيناهما تقرآن الافكار المسطرة فى رأس الآخر . .

وحل المساء . . وتأهبوا للعودة . . وبلغوا دار نجيب بك وقد سربل الظلام كل ماحولهم بلباس أسود ، فدعاهم إلى الاستراحة قليلا فى منزله ، وكان الجميع فى سرور ولاسيما إيزيس التى دب فى وجهها الاشراق وغمرها الفرح . .

ومنذ ذلك اليوم أمسى فريد صاحبا مقربا إلى نجيب بك كما حاز على تقدير زوجه ومحبة ابنهما . أما إيزيس فقد شغل فراغ قلبها كله ..

٢

ظن فريد أنه يستطيع التغلب على هذه العاطفة الطارئة التي غمرت روحه وجسمه وشغلت أفكاره . وحاول في أول الأمر أن يناضلها حتى يفنيها ولكنه أدرك عجزه .. وسرعان ما استسلم لتلك النشوة العجيبة، ولم يكن أول ولا آخر من غلبه الحب على أمره ..

وأراد غير مرة أن يكاشف سعاد بما يشعر به في هذه الأيام نحو إيزيس ليستطلع رأيها ويخفف عن نفسه بعض ما بها . ولكن كانت الكلمات تقف عند شفتيه، فإن سعاد التي يرى فيها اخته لم تكن موضعا لسره . وكان يشعر أن عليه أن يصطحب سعاد في زيارته لمنزل نجيب بك ولكن قلبه لم يكن يطاوعه في ذلك، فكان يتعمد الهرب منها ويختلق الاعذار ويكذب أحيانا في سبيل الانفراد بفتاته ! .

كان فريد منذ صباه يفتقد حبيبا ضائعا بين جموع البشر ، وكانت نفسه تفشي أسرارها في ساعات النوم، فتمثل له حبيبته في شتى الصور ، حتى إذا هب من نومه وخلا إلى نفسه أخذ قلمه وقرطاسه وشرع ينظم وينثر أناشيد الحب !

كانت روحه تفتقد الحب حتى وجدته .. وكانت المرأة تروح وتجيء في مخيلته كما تبدو في مخيلة الفنان رمزا فاتنا يمثل الطبيعة المتجددة المتعددة الأشكال، فهو يتطلبها لتمنحه من حنوها وحبها ، وتغذى قلبه وخياله بفتنتها ..

وكان ذلك حبه الأول لفتاة هي مثله الاعلى بعد ذلك الانتظار الطويل والوحدة القاسية . وبدأ هواه لها عذريا يقنع بمرآى محاسنها ، وكان في تلك السن

الغضة وذلك الشعور الملتهب الذى يجعل الحب مثاليا . وسرعان ماباتت ايزيس ملء سمعه وبصره وقلبه . وكثيرا ما كان يعتريه ذهول عن ذاته وعن كل ما حوله من المادة . وصورت له تلك الوثبة النفسية أن فتاته هذه إن هى إلا الاهة من تلك الآلهة المصرية القديمة المكتنفة بالسحر والفتنة !.

وسرعان ماسما هذا الحب الملىء بالوهم بنفس فريد إلى طريق الخير والفضيلة، فبدأ يقترب من الاله الذى صور فتاته وعمر من أجلها قلبه بمحبة كل ما على الأرض من حى وجماد !

وصهره الحب وزهده فى كل شىء إلا شيئا واحدا ، هو المحبوب ، وتجلى لايزيس هذا السمو الروحى فاستجابت له وزادت تعلقا بفريد ورأت فيه أيضا مثلها الأعلى ، ولم يكن أحدهما متصنعا أو متكلفا أو مقلداً لغراميات القصص بل هكذا صور لهما الخيال فى ربيع العمر وفى تلك البيئة السحرية الهادئة ..

وحلا لفريد أن يخرج كل يوم من منزل خاله ويهيم على وجهه فى الحقول وبين أجمات النخيل ، فيجلس حينا بجوار ساقية تدور وتملأ الفضاء بأنينها ، ويتفيأ حينا آخر ظلال الكافور والنبق المغروس على مسافة من منزل ايزيس متطلعاً إلى ذلك الهيكل المنفرد الذى تسكنه معبودته . .

واستقل مرة عربة سارت به الهوينا خارج المدينة ، وتعمد أن يمر فى ذهابه وايابه بمنزلها فرآه نجيب بك فى عودته ودعاه إلى الدخول مرحبا. وجلسا معاً فى الشرفة المطلة على الحديقة . وخرجت ايزيس فرأته وشاعت فى قلبها البهجة ، وجلست معهما تشاركهما الحديث . ودعاه نجيب بك إلى الغذاء فى منزله فى اليوم التالى ورجاه أن يرفع الكلفة ويحضر متى شاء ليتحدثا معاً فى تاريخ مصر القديم . فأخذ فريد يتردد على دار نجيب بك تارة وحده وأخرى مع سعادو نادرا مع خاله . وكثيراً ما كان يحضر وحده فلا يجد نجيب بك ويجلس مع ايزيس

فى الحديقة متفيئين ظلال الخمائل والاشجار المنثورة فيهـــا ،فيشعران كأنما الكون كله يترنم ويشاركهما أناشيد قلبيهما . . وكانت والدة ايزيس تدعهما وحيدين فى الحديقة أو فى حجرة البيانو وتذهب إلى شأنها إذ بات فريد موضع ثقة الاسرة كلها وتقديرها ولم يعد فيها من يعـده ضيفا ، وكانت تعتقد أن ابنتها المريضـة تلقى فى صحبـة فريد سلوى وغبطـة فى ذلك المـكان الموحش ، وما هى إلا أيام قلائل حـتى يعود فريد إلى القاهرة وتعود ابنتها إلى وحـدتها وانقطاعها . .

ولم يستطع فريد أن يكتم عنها حبه، وكانت تبادله بوحه بحديث ناطق غير مسموع ، هو ما تنم عنه العيون والشفاه، كأنما كانت تخشى أن يبتذل هذا الحب العلوى بالألفاظ المألوفة .انها كانت تحس بعجز الالفاظ فى بيانها وبلاغتها عن أن تفصح عما تضمر القلوب فى أغوارها !

وكانا يتنزهان يوما فى الحديقة وحيدين وأخذت ايزيس تتحدث بصوتها الموسيقى واسلوبها الهادىء الذى تغلب عليه كآبة مبهمة وألم دفين ،إذ كان لها أخيرا أن تحادث فريدا وأن تستجيب لحبه فى غير تردد . فأخذت تقول وكأنها تترنم وقد جمح بها الخيال:

—فى هذه الحديقة المنعزلة عن العالم . . كنت أجلس منذ بضع سنين لأقرأ قصص المحبين تحت أغصان الشجر . . وكنت أحس أن الحب كان كامنـاً أيضاً فى قلبي . . ولـكنه كان قبلا شبيها بالصدى الذى يتجاوب فى واد موحش سحيق! وكان قلبي يومئذ كالنحلة الهـائمة تفتش عن زهرة نضرة تستريح فى أحضانها . . ولم أكن اظن أن حيـاتى ستصبح بـين عشية وضحاها قصة مثل تلك القصص التى قرأتها . .

فأجاب فريد وقد تملكته نشوة الهوى والشعر: وأنا يا إيزيس مثلك فلطالما

طربت لأناشيد سليمان يناجي بها حبيبته شلميت .. وأردد قول جوليا وهي تخاطب لامرتين : « ومالى وللألفاظ ودلالتها ، إنى أحبك وإن أنا كتمت ذلك نم عليه الوجود وأعلنته الطبيعة » ، وكنت أسعد حين أتخيل لورنزو جا جسكا كما يصورهما شكسبير فى تلك الليلة المقمرة « حين كان النسيم العذب يقبل الأشجار برقة وهى لا تحدث صوتاً » ، وأتسمع إليهما وهما يتحدثان عن «ترويلاس» الذى تسلق أسوار تروادة ونفث زفرات قلبه نحو معسكر الاغريق حين كانت ترقد حبيبته « كريسيدا » ، وعن تسبا البابلية التى أحبت « بيراموس » وتواعدا على اللقاء خارج المدينة ولما رأت حبيبها قتيلا من أجلها قتلت نفسها حزناً عليه . . وكنت أقرأ عن كليوبترا وقد حملوا إليها انطونيو محتضراً ، وعن مجنون ليلى وهو يهيم على وجهه فى الفلوات والقفار . . وعن روميو وقد رأى حبيبته مسجاة أمامه .. وعن الأرجو وهى تسير بايسون وميديا الثملين بخمر السعادة بين نسمات تحمل إليهما عبق البرتقال ...

فأسبلت إيزيس جفنيها وراحت لحظة فى غيبوبة ثم عادت تقول :

— جميل أن يكون المرء محباً ومحبوباً .. إن لحظات الحب أثمن ما فى الحياة. ولكنى أحس أن وراء هذه السعادة التى أنعم بها الآن يختبىء الشقاء الكالح الوجه .. ليس فى مقدورى الخلاص من هذا التشاؤم .. إنى ليخيل إلى أن هذه الارض قد جبلت من نار الالم لا من نار الشمس .. فما من سعادة غمرت جنبات هذا الفضاء إلا وداسها الفناء بقدميه .. وما من مجد ملأ الارض إلا وذاب كالثلج عند مطلع الشمس ..

كان صوتها يتهدج وقد استلقت على المقعد إعياء .. وأغمضت عينيها فبدت بوجهها المليء بالمعانى كأنه فكرة مجسمة ، وبقدها الممشوق كأنما صب فى قالب، وبثوبها الانيق وقد انسكبت عليه حمرة الغروب ، وبتلك الروح الشاعرة العلوية

كأنها الالاهة إيزيس نفسها - !

وكان المساء صافياً والهواء ساكناً يكتنف المنزل الفرعونى الوردى اللون، ويتسرب إلى الحبيبين حاملا أريج الازهار المنضدة فى الحديقة كأنه بخور يحرق فى هيكل - -

فهتف فريد :

— ايزيس ! إنها ايزيس بعينها !

ففتحت عينيها مستغربة منه تلك الكلمات - - وبعد برهة من الصمت عاد فريد يقول :

— لا أفهم علة هذا التشاؤم تظللين به شبابك - - ألسنا متحابين ؟ ألا تثقين بقداسة الحب وخلوده ؟ ألا تحسين مثلى بالحب يملأ فراغ القلب - - وأنه صار غذاء روحينا - وجعلنا نولد ولادة جديدة ؟ أما أنا يا ايزيس فأحس أنى بدلت انسانا آخر - - وأن هذا الحب سيجعل منى رجلا عظيما - - هو يفعم قلبي بالامل ويهبنى القوة التى أسيطر بها على الحياة وأتخطى الصعاب وأؤدى رسالتى - - وكفانى أن تكونى بجانبي لأهزأ من الضعف البشرى وأسير وسط العاصفة شامخ الرأس

٣

فى أصيل اليوم التالى اقترح فريد على ايزيس أن يتنزها فى قارب صغير يجذف فيه كما كان يفعل فى صباه بدمياط - ودعا والدتها الى هذه النزهة فقالت:

— إنى سأنتظر هنا نجيبا واوزريس . ولا أحب أن أدع المنزل خاليا - - اذهبا أنتما ياولدى - - لقد أصبحت أخا لايزيس يافريد - ولشد ما يفرحنى أن أرى صحتها تتقدم كثيراً عن ذى قبل بفضل هذه النزهات وهذه الاخوة - على أن لاتتأخرا فى العودة لأن برد الليل يؤذيها - -

ثم حيتهما ودخلت وهى تتمتم بحزن : ربنا يرد إليك صحتك ويصون شبابك يا ابنتى .. انهما جديران أن يكون أحدهما للآخر ! ثم طفرت من عينها دمعة وهى تدخل إلى المطبخ ..

وجرى فريد وايزيس كطفلين سعيدين نحو ضفة بحر يوسف، وسارا برهة يضحكان ويطفران هانئين بهذه الفرصة الثمينة التى ينفرد فيها كل منهما بصاحبه، حتى التقيا بقارب صغير اكتراه فريد من صاحبه واستقلاه وحدهما ، وجلست ايزيس فى مقدمته وجعل فريد يسيره بمجدافيه . فسار بهما على صفحة مصقولة كالبلور ، بين ضفتين خلتا من السابلة وعمرتا بالنبت والشجر . .

كان القارب يسير بهما متوانيا كاللحن الهادىء .. وكانا وحيدين ينعمان بهذا اللقاء المنفرد .. وكانت السواقى تدور على مقربة منهما كالزمن إلى غير نهاية ، وتبعث فى سكون الفضاء أنينا هينا لينا .. وأشجار النخيل الباسقات ترفع أذرعها نحو السماء فى شبه عبادة صامتة .. وأتت فترة سكون عميق كان فيها قارب رع السماوى يسير نحو العالم السفلى بمهرجان عظيم . فازدان الأفق بألوان بنفسجية ، وحمراء قاتمة وصفراء شاحبة ..

قالت فيم تفكر ؟

قال . لا أفكر فى شىء .. إنما أنا مأخوذ بهذه السعادة التى لم آلفها تغمرنى كما يغمر النور الفضاء . . أمسيت منذ عهد قريب انسانا جديدا لا يبصر غير الحاضر، ولا يذكر الماضى ولا يبالى الغد . . انسانا يستطيع أن يأتى بكل عظيم كأن فيه قبساً من الالوهية . . بت أعشق الحياة ، بل أحب الموت لأجلك . . أنت التى انتظرت إذ كنت جمال أحلامى . . أنتظرتك منذ سنين ، بل منذ دهور .. وها نت قد عدت إلى بعد أن أفنيت حياتى فى المجاهدة والشوق .. بعد أن أذبتها فى كأس من مرارة الوحدة والكآبة، حين عشت مع الجمادات والأوراق ، سابحا

فى أجواء الماضى المزين كالقبر . لقد عدت إلى أخيراً لتردى إلى شبابى وأمانى .
وجدت فيك الحب الذى يبحث عنه العالم..الحب الذى يحول القلب البشرى إلى
شعلة مقدسة مضيئة .. أنت غرامى الأول والأخير . . . .

قالت : أكاد اليوم ألمس السعادة بيدى . . ولكنها تمتزج فى قلبي على الرغم
منى بالخوف ! . وكأنى بهذه اللحظات الهنيئة مختلسة فى غفلة الزمن لابد أن تكلفنا
ثمنا غاليا . . كم تمنيت لو وقفت عجلة الزمن عن المسير حتى أنسى أن وراء هذا
الحاضر الحنون غداً رهيبا . وصمتت لحظة ثم رفعت بصرها وحدقت إليه ثم قالت
كأنها تهمس : — خبرنى يافريد ماأنت فاعل إذا أتاك يوما نبأ نعيي ؟ . .

— لماذا تلقين على سعادتنا هذه الظلال القاتمة ؟

— حقا . لا أدرى يافريد لم تطاردنى هذه الأوهام ! إنى أريد أن أعيش
طويلا لأكون بقربك وأخلق حولك ذلك الجو الهادئ الذى تحن اليه . . أنى
أحب الآن هذه الحياة الرائعه العجيبة ولا أريد أن أموت ! .

— لم تذكرين الموت ونحن على عتبة الحياة ؟ هذا الوهم هو مركز الضعف
الوحيد فى نفسك ، ويخيل إلى أنها تسربت اليها من كثرة قراءاتك وطول انفرادك ،
ومن دراستك مع أبيك حكايات العالم الآخر التى ابتدعتها مخيلات أسلافنا ! .
لقد أضعت أنا أيضا شطراً من ربيع حياتى فى الوهم والتشاؤم . ولى بالقاهرة
صاحب ظريف ضحوك اسمه سمير طالما اتخذ من كآبتى سبباً للسخرية والتهكم ،
وكنت أظنه يعبث ، وأراه الآن على كثير من الصواب !

يجمل بك أن تنتصرى بإرادتك على هذا الضعف وتدعى روح الحياة يسرى
فى عروقك حاراً متدفقا . . وتسيرى فى سبيلك شامخة الرأس . . فان جاء الموت
فليجىء متى شاء . فهو لن يستأذنك فى القدوم ولا فى الانصراف . .

— ياحاجتى إلى قوتك . إن حيويتى أطالت حياتى حتى اليوم ولكنها كثيراً ما تخوننى . . إنى منذ عرفتك أحسست بالقوة تسرى فى جسدى ، فأنا اليوم أصارع مرضى . . و كثيرا ماأزعم أنى أنتصر ، وأن الصحة فى متناول يدى ...

— أى مرض؟. شىء من الضعف الجسدى ليس بأمر ذى بال . . بالايحاء تشفين من هذا الضعف بل من هذا الوهم . إن روحك القوى ينمو على حساب جسدك .. انصتى إلى يا ايزيس ! لقد بحت لك بحبى ولست أمل تكرار ذلك على مسامعك . والآن أصارحك بانى أود أن تكونى زوجتى . فان قبلت تقدمت الى والديك لخطبتك . وتصبحين بعد عام أو نحوه شريكة حياتى . وسيكون حبك سلاحا أشق به طريقى نحو النور . فأصعد وأسمو .. هلمى ندبر الخطط ونرسم المشروعات . . سنتخذ لنا بيتا صغيرا فى ضواحى القاهرة نحوطه بحديقة جميلة نقرأ فيها ونلعب .. ولا تنسى أننا سنرحل معاً فى كل صيف إلى سفوح الجبال وشواطىء البحيرات . وستستردين عافيتك ويعود الورد الى وجنتيك . وتصبحين بهذا الجسد الفاتن وبهذه النفس السماوية مليكة عشنا الجديد ..

فرفت أهدابها وأرسلت نفسا مستطيلا . ثم تفرست فى فريد وغمرت قلبها موجة من الفرح ، وخيل إليها أنها بجوار هذا الشاب تستطيع أن تعيش وتأمن دون شك غدر الزمن ..

الفصل السابع

١

تكشف الأمر لسعاد ، فأيقنت بعد شك أن فريدا وايزيس متحابان . وهذا

مالم تحسب حسابه وما كان ليطرأ لها على بال حينما ألحت على فريد أن يصحبها إلى منزل ايزيس ..

وثارت فى نفسها الغيرة النسوية ممزوجة بغضب مكبوت . فهى اليوم تحب فريدا وتعتقد أنه كان يحبها وأنه كان لها وحدها . وهو ابن عمتهـا الذى تعرفه ويعرفها تمام المعرفة قبل أن يعرف الاخرى بسنوات طوال .. وهى ترى فى حبه الجديد لصاحبتها انكارا منه لوجودها وتخطيا منه إلى غيرها .. أما حب ايزيس فأدهى فى عينها ، لانها كانت تظنها أعز صديقاتها إليها . وفى هذا خيانة لعهدها وتعد على حقها . ولو أن ايزيس بالطبع لاتعلم من كل هذا شيئا ..

وتضاعف الغيظ فى قلبها لانها كانت السبب المباشر فى تعارفهما . وهى التى شادت بمديح كل منهما فى غيبة صاحبه . ومن سواها الذى ألح فى دعوته لزيارة الفيوم ؟ وكم شادت على مجيئه قصور الامانى .. فهل كانت تعمل كل ذلك ليحب غيرها ويتناساها؟. الغيرة والغضب والدهشة تتناوب احتـــلال قلبها الانثوى الحساس ، فتنغص عليها عيشها وتقض مضجعها . فهى اليوم جائشة الصدر ثائرة النفس،ولم تعد تلك الغادة الطروب اللعوب ، بل طال بها اليوم التفكير وارتسم الالم على وجهها ، واشتدت رقابتها على حركات فريد وسكناته . وهو كلما خرج من المنزل سألته أين يذهب ومتى يعود.. وظنت أنه يلاحق صـاحبتها ويلازم نجيب بك أباها من أجلها . وهو كلما عاد إلى المنزل أطالت فيه النظر بقلق وحيرة لعلها تكشف عما يضمره فى قلبه نحو ايزيس ونحوها ولترى أى مكان تبقى لها فى قلبه ..

وأشعلت الغيرة تلك الجذوة التى كانت تتقد فى قلبها فثارت نارا ولهيبا ، ولم تعد تستطيع كتمان ذلك الحب العاصف . فهى تجلس الآن بجانب فريد وتداعبه، وتمسك بيده طويلا وتنتظر منه أن يضمها إلى صدره ويغمرها بقبلاته لـكى ترده

إليها وتنتزعه من الاخرى وتشعر نفسهـــا فى ذات الوقت أنه صار لها وحدها ..

ومع ذلك فليته يعود إلى القــاهرة حتى تسكن هذه العــاصفة ، فتلقى راحة لنفسها ولينسى هو بعد سفره ذلك الحب الجديد . ولـكن كيف السبيل لى ابعاده. وهو الضيف المـكرم الذى دعته مع والديها لقضاء الصيف معهم ؟ أتغضبه فيرحل؟ إنها تخشى أن تفقد بذلك قلبه وهو الحساس ذو الانفة والـكبرياء . بل قد يكون ذلك سببــا آخر فى زيادة تعلقه بغريمتها . ثم ألا يستطيع إذا رحل من الفيوم أن يكتب إلى ايزيس وتكتب إليه ؟ وقد تكون الرسائل أقوى أثرا من الحديث ! ثم ألا يمكن لايزيس أن تزور القاهرة حيث تلقاه ؟

تواردت هذه الخواطر على رأس سعاد فزادتها حيرة ، وهــداها تفكيرها أخيرا أن تعمل على التفريق بين قلبيهما قبل أن يستفحــل الأمر ؛ وبذلك يعود الصفاء كما كان فلا تفقد حبيبها ولا تخسر صديقتها ..

وكانت الغيرة والالم والضيق تلح عليها مجتمعة بسرعة العمل على قتل هذا الحب فى مهده . وكانت تؤمن بوجاهة حججها وقوة سلاحها ..

٢

فى اليوم التالى كانت سعاد فى طريقها إلى منزل ايزيس ، وكان فريد وقتئذ مع خاله فى القهوة .. وتقابلت الصديقتان كعادتهما بالترحاب ثم جلستا فى ظلال أشجار الحديقــة : وكانتا تتحادثان كعادتهما فى كل ما يتصـــل بحياتهما الهادئة الساذجة ، فتحدثتا عن أخبار البـــلد وعن ليالى الصيف وكيف تمر سراعا وكانت ايزيس تكره الشتاء وتخشاه لأن فيه تستيقظ علتها وفيه يذوى كثير من أزاهير حديقتها ، وفيه تحتجب الشمس التى تحبها ..

وكان أن قالت سعاد : ومما زاد هذا الصيف بهجة وجود فريد معنا ، إنك لا تعلمين كم هو يؤنسني في هذا البلد الكئيب ! إنه شاب ظريف أليس كذلك ؟

— نعم

— وماذا ترين فيه ؟

— شاب وديع مهذب . .

— غير أن ما يروعني منه تلك النزعة المتقلبة ، فهو كما عهدته منذ الطفولة لا يثبت على حال حتى في حبه وكراهيته . .

— ومن منا ياسعاد يثبت دائما على حال واحدة ؟

— لكنه يتلون لأهون الأسباب فهو بهذا الضعف لا يحملني على الثقة به !

— ألا يجوز أن نكون في حكمنا على الظاهر أكثر خطأ من حكمنا على الباطن ؟

— يحدث هذا إذا نظرنا إلى الأمر دون تدقيق ، أما في موضوعنا فالحال غير ذلك .. فأنا أعرف فريداً منذ الطفولة وعشت معه كثيرا تحت سقف واحد كما هي الحال في هذه الأيام . وكان إلى عهد قريب يبادلني الحب ولكني كنت لا أسرف في التصديق خشية تقلبه المعهود . .

— هو ؟

— ليس في ذلك غرابة . فنحن متحابان منذ الصبا ، وهو ابن عمتي . ويكاد يكون خطيبي . ووالداي يعلمان ذلك ، ولكنهما يتريثان حتى ينظم عمله ويكون مستقبله . . فرتبه اليوم لا يكفيه وحده ، ولا بدله من سنتين يقضيهما في التمرن على المحاماة ثم يستقل بنفسه . أننا حتى الآن ننفرد كل يوم في الشرفة لنتحدث

ساعات طوالا ، ولكنى لا أستسلم للعاطفة حتى يستقر فى عمله ولا يعود يتلون فى حبه . .

وكانت ايزيس تنصت إلى هذه الكلمات الجديدة على مسامعها وراحت برهة فى شبه غيبوبة . ثم تجلدت وقالت فى شبه همس :

— لم تصارحينى بذلك من قبل وكنت دائما موضع سرك..

— ذلك لأنى كنت أخشى تقلبه فكنت أدارى ذلك حتى عن نفسى ..

— ولكن هل تثقين بأنه يحبك ؟

— كيف لا؟ وهو الذى حضر الى الفيوم ليقضى الصيف إلى جانبى ، ولم يشأ عند قدومه أن يتعرف إلى أحد بالمدينة . إنه حب قديم نشأ فى الصبا وترعرع فى الشباب ، وزادته المعاشرة والقرابة قوة ، إنى لأذكر الآن تلك الأيام السعيدة التى قضيتها معه فى القاهرة قبل أن يفقد والديه وكانت عمتى رحمها الله تدللنى دائما وتدعونى بعروس ابنها ، فشببنا نرى هذا القران طبيعيا وأمرا مفروغا منه .أما والدى فينظران إلينا كخطيبين على أبواب الزواج . .

— وأنت ؟ هل تحبينه ؟

— حسبت أنك تدركين ذلك منذ زمان !

. . كانت كلمات سعاد تدوى فى ذلك الركن الهادىء من الحديقة كألحان الجنائز ، ولما رفعت ايزيس عينيها إلى صديقتها التى تحبها رأتها لأول مرة فى صورة ملك الموت وقد حمل إليها منجله الرهيب ، فأدارت وجهها نحو الفضاء فرأته عابسا رهيبا يرميها بنظرات الاحتقار والتقريع . ودارت الدنيا برأسها وغشت عينيها ظلمة أقسى من ظلمة القبر . وأصابتها نوبة السعال حتى كاد صدرها يتمزق فارتمت على المقعد منهوكة القوى . .

لقد أصيبت منذ سنتين بذلك الداء الرهيب ـ السل ، الذى يحصد فى كل

عام ملايين الشباب ـ وكانت سعاد تعلم بمرض صديقتها إذ أسر الطبيب الى أبيها بذلك ، وكانت قبلا ترثى فى نفسها لحالها ـ ولكنها الآن تحت تأثير ماحدث تجردت من كل رحمة فانساقت وراء عاطفتها المقرونة بالغيرة والغيظ وحب الانتصار

كانت تظن أنها تطرد الحب من قلب صاحبتها بتلك الكلمات الهادئة المعسولة ولم تدر أنها كانت تمزق بها قلبها وتلهب حبها وتعين علتها على الثورة بل وتدفعها بلا شفقة الى القبر ..

وعادت سعاد الى مأواها وقد خفت أحمالها التى أثقلت كاهلها فى بضعة أيام سود عاصفات ..

أما ايزيس فقد قضت ليلة ليلاء أخذت تستعيد فيها حديث سعاد وحديث فريد ، وتحلل الألفاظ ، وتستعرض موقفها ازاء فريد وازاء صديقتها ، وتتساءل إن كانت دخيلة بين الفتاة وابن عمتها ، وأخذت الخواطر تنساب فى رأسها بلا ترتيب ، وكان كله مما أهاج أعصابها وزاد فى سعالها فزادت حالها سوءا ..

إن سعاد لا تعلم أننى وفريد متحابين ، فهى كعادتها تتحدث وتثرثر إلى صديقة صباها وموضع سرها . . ولكنها لم تبح لى بحبها قبل اليوم . . لاشك انها كانت تخجل من الافضاء بسرها . وهل أفضيت إليها أنا بسرى ؟ . لقد جاء اعترافها اليوم عفوا . وليس فى حبها لفريد غرابة فهما متعارفان منذ الطفولة ، وهو انسان يحب . . ولكن هل كان فريد يحبها حتى عرفنى فسلاها وأهملها ؟ أم هو يحبنا كلينا ! لقد قرأت عن رجال يحب الواحد منهم إثنتين أو ثلاث فى وقت واحد أوفى فترات مختلفة ! أم لعل فريداً يلهو بكل فتاة يلتقى بها فيبثها حبه ! لقد سمعت عن أولئك الفتيان الذين يصارحون كل حسناء يختلون بها بهيامهم ! ولا أظن فريداً واحداً من اولئك المنافقين .. تقول سعاد إنه متقلب متلون وهى أدرى به منى ، أنا التى لم أقض معه غير أيام قلائل .. ولكنى لا أرى

فيه غير النبل والأنفة والحساسية ؛ لقد صارحني بحبه بل هو كما قال سيخطبني من والدي . أليس في ذلك دليل على صدقه وبعده عن الخديعة ؟ ـ لقد أحببت فيه خلقه وسمو نفسه وقوة شخصيته قبل أن أحبه لذاته، بل إني لأشعر أننا متحابان قبل أن نطأ هذه الأرض . . ولم يبق إلا أن تكون سعاد خادعة أو مخدوعة . ولكني لم أعهد فيها منذ عرفتها غير الصدق . . ثم أن حبهما كما تقول أمر طبيعي ، وهما اللذان عاشا ويعيشان اليوم تحت سقف واحد . . وما أنا إلا دخيلة ساقني القدر لأفرق بين قلبين متآلفين منذ سنين ، أنا الفتاة الغريبة . . المصدورة . . التي لم تعد تصلح للحب ولا للزيجة . . لقد نسيت أنني أدب إلى القبر . . وماذا يقول فريد عن أنانيتي إذا علم بمرضي ؟ ـ إن حبه ولاشك ، إن كان حقا يحبني ؛ سيستحيل إلى الرثاء لي والشفقة علي ! ـ ان العاطفة غلبتني ـ وكان واجباً علي أن أذكر لفريد حقيقة مرضي ولا أخدعه . . والخير له ولسعاد أن أخلي لهما الطريق وأنتظر القدر المحتوم . . أنا عروس الموت وهما من أبناء الحياة . . لأطوين حبي في قلبي فيموت معي . . ذلك خير من أن أموت حاملة معي إلى القبر قلبين ممزقين لصديقين أحبهما . .

هذا الاحساس بالايثار غمر قلبها بالنور . . فافتر ثغرها الحلو عن ابتسامة حلوة . . وغلبها النوم الوديع وهي لم تزل باسمة المحيا مثل طفل برئ . .

٣

كان أصيل اليوم التالي والسكون ناشر جناحيه حول منزل ماهر افندي حينما جلس فريد في « الشرفة » المطلة على الحقل مستسلما لهذا السحر الذي أطلق أحلامه وأقلق راحته وحببه في الوجود . . ثم فزع لصوت فاجأه من خلفه ؛ فالتفت وإذا بسعاد تحمل إليه بيدها صينية عليها فنجان من القهوة وضحكت للمفاجأة ثم جلست على مقعد مواجه له . . وكانت على أتم زينتها ورشاقتها ـ وصوبت نحوه

نظرات خبيثة فاحصــة من عينين جميلتين ـ ولاحظت أن جبينه يعلوه التفــكير وشرود الذهن وأن وجهه دب فيه شئ من الشحوب فقالت :

— يظهر أنك مشغول الفكر هذه الأيام ياسى فريد :

فتصنع الجد وقال : إن الحياة ياسعاد مليئة بالمسائل والموضوعات التى تتناوب على احتلال الرأس ، ولماذا لاتقولين إنى مشغول بأمر مستقبلى وشئون عملى ؟

ولم تصدق سعـاد هذه الأقوال فتحرك فى نفسها الغيظ المــكبوت والغيرة الحمقاء وأجابته :

— من الميسور لمثلك أن يستقر فى عمل لائق ، وهذا لايستدعى كبير الاهتمام وانشغال الفــكر وحب الوحدة ، وضياع الاجازة فى المسائل التافهة !

وكان فريد يقول فى نفسه :

— الحق ماتقول ، انها لاتدرى من الأمر شيئا !

ثم قالت بهدوء ماكر : لايصيب الانسان من كثرة الاجهاد وتكبير الصغائر واطالة التفــكير غير خسارة الصحة وهى أثمن مانملك !

فأجابها فريد باسما :

— سأقلل التفــكير والانفراد طوعا لأمرك ياسعاد !

فظنت أنه إنمـا يسخر منها وهى التى لم يعد لهـا فى قلبه مكان، فقالت يخامر صوتهـا الغضب :

— نعم إن فى ذلك التضحية بالصحة بل فى ذلك ضياع الحياة . . وهذا مانراه حولنا كل يوم ـ انظر إلى إيزيس المسكينة ، ألم يكن خيالها وادمانها المطالعة وهمومها الوهمية سببا فى ضياع صحتها ؟ .

— حقاً إنها ضعيفة البنية ، تعلو وجهها غلالة من الشحوب ـ ولــكنى ألاحظ أنها بدأت تسترد لونها وعافيتها هذه الأيام ..

— لونها ! أيخدعك طلاء الوجه أم تظن أن المصابين بدائها يشفون ؟ يالمسكينة ! إن أيامها معدودة !

— ماذا تعنين ؟

فاقتربت منه وهمست إليه كمن يبوح بسر رهيب :

— ألا تعلم أنها مصدورة ؟

ثم تراجعت وأدارت وجهها نحو الحقول مكتفية بما قالت ، وأخذت تختلس النظر إلى وجه صاحبها وهى تستمرىء نشوة الظفر .

وجاءت فترة صمت عميق لم يسمع فيه غير عويل السواقى وأنات الريح . .

أما فريد فقد بهت وشحب وجهه وحلق فى وجهها مرتابا ، وزادته هذه اللحظة نفورا من هذا الوجه الصبوح الأنانى . . . ولم يكن على يقين من ذلك المرض قبل الآن ، وكان يظن أن بها ضعفا جسديا وسعالا عاديا لا يلبث أن يزول. وحامت مخيلته حول إيزيس فرآها تتدثر فى المساء وتتوقى برد الليل ورطوبة الجو ، وسمعها تسعل من آن إلى آخر . ثم ذكر مايعلو محياها من غلالة الشحوب ومايرتسم على جبينها من علائم الكآبة ، وماكانت تذكره عن الموت والحياة . .

إنه لا يجهل هذا الداء الخبيث وكيف يسير بضحاياه على مهل إلى القبر ، ذكر كل ذلك فاسودت الدنيا فى عينيه ، ثم أخذ بيد سعاد وسألها بصوت مرتجف :

— من أين علمت ذلك ؟

— أنا أعلم ذلك منذ عام ، إذ أن الدكتور حلمى طبيبها صديق لأبى وقد همس إليه أن يوصينى بالتقليل من زيارتها خشية العدوى . أنك أدرى منى بهذا الخطر فكن على حذر !

ولم تكن سعاد كاذبة فى كل ما قالت ، ولكنها كانت مغرضة ترمى إلى

هدم تلك الصلة الجديدة ليخلو لها الميدان . ولكنها لم تصب المرمى مع فريد . فقد كانت فى لهجتها واسلوبها قاسية أنانية ، وقد شعر فريد فى تلك اللحظة أن قلبه زاد عنها بعداً بل أحس أنه يكرهها وهو الآن يشعر بعطف قوى نحو ايزيس يكاد يذيبه ، وأن روحه بدأت تتمرد على الحياة وازدادت بهذا التمرد لصوقا بايزيس . .

وفى هذه اللحظة ظهرت تحت الشرفة الصبية زينب خادم ايزيس، مرتدية ثوبا نظيفا و«حرملة» بيضاء ، ولما رأتها لوحت برسالة فى يدها إليها. فأسرعت سعاد وفتحت لها الباب وتناولت منها الرسالة فاذا بها معنونة باسم : « الاستاذ فريد » !

وفض فريد الرسالة وانتحى بها جانبا ليقرأها إلى نفسه ووقفت سعاد عن كثب ترقبه بدهشة وقلق ، وتراه بعد أن قرأها يدسها فى جيبه صامتا..

أما ماجاء فى تلك الرسالة فهو :

«سيدى الاستاذ فريد :

أوصانى طبيبي وقد رأى سوء حالى ألا أقابل أحداً حتى الاصدقاء المقربين إلى وقت أرجو ألا يكون طويلا خوفا من الاجهاد والتماسا للراحة . وإنى لأرجو أن تقبل عذرى واحترامى والى اختى سعاد والجميع أطيب تحية»

ايزيس

وهمت سعاد بان تسأله عن محتويات الرسالة وأوشكت أن تتكلم ولكنها أبصرته أمامها شاحب اللون متجهم الوجه فأحست أن فى الأمر شيئا فلبثت جامدة ولم تتكلم..

الفصل الثامن

١

قرأ فريد رسالة ايزيس عدة مرات ، وهو كلما أعاد قراءتها كلما ازداد حيرة واستغرابا !

وجدها قصيرة جافة تحمل وراءها من المعاني ما لا يمكن أن يصدر عن فتاة كايزيس تحبه ويحبها ! فما الذى ياترى غيرها وبدلها فى يومين اثنين ؟ أليست تطلب منه الانقطاع عن مقابلتها بحجة المرض ؟ إنه تركها فى آخر مرة فى حال جيدة . واذا كان حقا ما تقول إن حالتها ساءت فما الضرر من عيادتها ورؤيتها ولو لحظة قصيرة وهى التى كانت ترقب مجيئه فى كل ساعة ولا تود فراقه إلا لتراه فى اليوم التالى . هل وشى به إليها أو إلى والديها ؟ إنها أكثر حكمة من أن تسمع إلى اولئك المتجرين بالوشاية بين الناس . وقد وثق به والداها وقرباه كأبن بار وصديق نبيل . ومن هو ياترى ذلك الواشى وهو لا يعرف أحداً ولا يعرفه أحد فى هذا البلد؟

قضى فريد ساعات طوالا من ساعات الليل يقلب الأمر على وجوهه ، وكانت كبرياؤه توحى إليه أحيانا أن يجيبها بالمثل فينقطع عن لقائها أو يرحل الى القاهرة ويدعها تندم فى وحدتها على تسرعها ..

ودارت فى رأسه شتى الفكر : —

خير له أن يرحل عن هذا الجو العاصف .. إنه لم يعد يطيق المكوث فى منزل خاله ! ان سعاد أيضا قد صارت عبئا ثقيلا على قلبه .. إن غرفته الصغيرة فى القاهرة حيث هجر كتبه وأوراقه وأحلامه وذكرياته ستمد نحوه ذراعيها

مرحبة به فيجلس وحده ليقرأ ويكتب ويحلم وسط جو صامت وديع مطمئن .. ولكن .. قلبه لا يطاوعه .. لابد أن يرى الفتاة التى أحبها ليستجلى منها هذا السر الغامض ، ثم له أن يرحل بعد ذلك ويغوص فى أعماق القاهرة حيث يلقى النسيان

واستقر رأيه على رؤيتها أولا ثم الاسراع فى الرحيل إلى القاهرة ثانياً حتى تهدأ العاصفة ، وسرعان ما حمله النوم إلى عالم النسيان ونهض فى الصباح يفكر فيما انتهى اليه ..

وانطلق فى الضحى يتمشى فى شوارع المدينة ثم استقل عربة خرجت به إلى الخلاء ووقفت به عند منزل نجيب بك . واجتاز الحديقة فوقع نظره على ايزيس مستلقية على مقعد مستطيل تظلله شجرة ياسمين وفى يدها كتاب مفتوح لا تقلب صفحاته . فوقف برهة على مقربة منها مترددا لا يدرى ماذا يصنع ، وشعر بحنين وعطف كادا يلقيان به عند قدميها . وسرعان ما انتبهت ايزيس إلى وجوده فهبت واقفة حيرى وبادر نحوها محييا فسمعها تقول :

— ألم تصل إليك رسالتى ؟

— هى التى ساقتنى إليك اليوم ، إذ أود أن تفسرى لى هذا اللغز قبل سفرى

— أتسافر ؟

— وهل يدهشك ذلك وقد طلبت منى ألا أراك ؟

— أصغ الى يافريد !

— إنما حضرت لأصغى إليك ..

— هل آلمتك رسالتى ؟

— بقدر ما حيرتنى !

— ألا تجلس فأحدثك ؟

— هذا ما أحب ..

وجلسا متقاربين فى ظلال تلك الاشجـــار المورقة التى طالما أنصتت إلى أحاديثهما ،وظللت غرامهما بغصونها - وحـدق فريد فى الوجه الذى طالما افتتن بملاحته فرأى الشحوب قد دب فيه وفارقته تلك النضارة التى تسربت إليه قليلا فى الايام الاخيرة ، فرق قلبه لحالها ، وأحس بالعطف يمازج حبه وباليأس يغالب أمله - وحدقت فيه النظر فحدثتها نفسها أن من المحـال أن يكون كاذبا فى حبه ومن المستحيل أنه يحب سواها ، وشعرت أنها مازالت تحبه بل أن حبها يزداد اشتعالا على الرغم منها -- ولـكن كلمات سعاد ما برحت تطن فى مسامعها فخانتها ارادتها و ترقرقت فى مآقيها الدموع ..

— أتبكين ؟

— أتحبنى حقا يافريد ؟

— وهل كنت فى شك من ذلك؟

— ألم تحب أحداً غيرى ؟

— ألم أقل لك إنك غرامى الأول والأخير؟

— عجباً !

— وما وجه العجب فى هذا ؟

— وما تـكون غايتك من هذا الحب ؟

— الحب فى ذاته غايتى وان قبلت كان وسيلة للزواج ليكون كل منا للآخر إلى الابد !

— ألا تعلم أن مثل هذا الزواج قد أصبح مستحيلا بل حماقة !

— مازال قلبى عامرا بالامل !

— ألا ترى أنى فتاة مريضة ، لا أمل لمثلها فى حب أو زواج أو .. حياة !

— أليس لكل داء دواء ؟ أيعجز العلم عن شفائك !

- هيهات ! لقد بذل والدى كل ما يستطيع انسان أن يبذل من جهد ومال وحيلة، فذهبت جهوده سدى . وقد مضيت أناضل مرضى مستبسلة فى النضال ولكن طول الجهد أضنانى ، وأخذت علتى تقوى حتى غلبتنا جميعا .. انصت الى يافريد وأخشى أن تمل حديثى ولكنى أعدك ألا أ كرر ذلك على مسامعك مرة ثانية : قلت لك إنى فتاة مريضة تدب الى الموت .. لو سمعنى غيرك لأشفق على فى نفسه وقال: « فتـــاة مريضة تهذى » اولكنى كما ترى سليمة العقل . فاياك أن تظن أننى أشكو إليك حالى وأبثك خوفى ولكنى أشكو اليك المقادير الساخرة التى جمعتنا لتفرق بيننا سريعا ! لقد حضرت إلى هذا البلد لا لتجد الحب وتهنأ بمن تحب بل لترى من أحببت تتأهب للرحيل ولتقاسى الفشل وحدك ..

ثم سكتت ايزيس برهة لتسترد قواها وعادت تقول

والآن أرى لك يافريد أن تواجه الحقيقة المجردة .. إنك شاب فى صحة وبهاء يبسم لك المستقبل وتمتد أمامك السنون ، فلا تعلق أملك بظل زائل . وعليك أن تحاول النسيـان ، نسيان هذا الحب العديم الامل ، وخير ما تفعله لتسلانى ألا تعود لترانى ، انك سرعان ما تفيق من هذا الحلم وتسترد حريتك

قال فريد : لا تحاولى ياإيزيس ابعادى بمثل هذه الحجج الواهية .. إن هذا مالا أستطيعه ، لأنى أومن أنك بت ضرورة لحياتى وأن القدر خلق كلا منا ليتمم الآخر . وأنا منذ رأيتك نسيت العالم ، وانقطعت بينى وبينه جل الصلات ، فلم أعد أحس بوجود غير وجودك ، إنى الآن فى حلم هنىء نسيت فيه الماضى والمستقبل ومرت على هذه الايام منذ عرفتك وأنا إنسان جديد متحرر من عبودية الجسد...

وأرادت إيزيس أن تتكلم فلم تقو ، وانهمرت من عينيهـا الدموع ، ثم نهضت وقالت : كفى .. لاتعذبنى .. فكر فيما قلته لك . . خيرلك أن تنسانى . . سودعك الله !

— إلى اللقاء ياإيزيس .

فتحركت شفتاها ولم تجب .. ثم مدت إليه يدهـا فأخذها بين يديه وطبع عليها قبلة طويلة حارة ، وسار مطأطيء الرأس وهى تشيعه بنظراتها حتى توارى وراء باب الحديقة ..

٢

وعاد فريد إلى بيت خاله فوجدهم جميعاً ينتظرونه لغذاء الظهر - فطوى همومه بين جوانحه . وجلس معهم وهو يرغم نفسه على مشاركتهم الحديث والطعام والضحك، كأنما يدفع ثمنا لهذه الضيافة .حتى إذا خلى بنفسه فى غرفته أخذ يعمل الفكر فى الكيفية التى يستطيع بها أن يرد إلى ايزيس عافيتها ! ففكر فى استشارة كبار أطباء القاهرة . . فلعل نجيبا بك لم يوفق إلى علاج ناجع خفى عنه .. ثم ماذا عليه لو رحل ابنته إلى احدى مصحات حلوان فى الحال؟. ولكنه عاد فذكر أنه الآن فى الصيف حيث يشتد الجفاف بمشتى حلوان . ولعل الفيوم تفضلها الآن لاسيما فى تلك البقعة الخلوية الزاهرة التى تسكنها إيزيس واسرتها .. ومع كل ما تنعم به إيزيس من أسباب الراحة والرفاهية فأنها أصيبت بذلك الداء فى يوم مشئوم من أيام قضتها بالقاهرة ..

« ماذا أستطيع أن أفعل ؟ » .. لقد أحس بضعفه وقلة حيلة أمام قوة القدر وجبروته . وشعر بغروره يتبدد وبنفسه ترتد إلى حالة الطفولة وبروحه تتخلص من نزوات الجسد وأوهامه ، وترفرف فى لانهاية الكون غير مقيدة بزمان ولا بمكان .. وهنا رأى نفسه ساجداً على الارض متجها إلى ذلك الملجأ الأقدس الأمين ، متضرعا إليه بحرارة وابتهال ، أن يشفى تلك الفتاة المسكينة .. وأخذ فريد يصلى برهة لا يعرف مداها ، فى ذلك الوقت الذى

لا يلقى فيه وسيلة أخرى تجديه نفعاً ، إلى ذلك الاله صانع المعجزات الذى قلما نلجأ إليه إلا لأمر فيه مصلحتنا وإلا حينا يتملكنا الخوف من المجهول . .

وفى ذلك الحين كانت سعاد ترقب أثر ذلك المسعى الذى قامت به ، وشددت الحصار حول فريد فوجدت أنه قد ازداد كآبة ونفورا ، وانه بدلا من أن يعود إليها ويقع فى شراكها أخذ يحادثها بفتور ويطيل المكوث فى غرفته وحده .. فعاد الغيظ يملأ قلبها . وبدأت تحقد على الفتاة التى سلبتها راحتها وأفسدت عليها آمالها .. نعم انها مريضة ولن تعيش طويلا ولكن ما الفائدة وقد تغير قلب فريد بسببها حتى لم يعد يبالى وجودها ؟

واستغرب ماهر افندى وزوجه هذه الحال التى لم تعد تخفى على أحد، فتهامسا فى الأمر وتشاورا وسألا سعاد عن الموضوع ،فأطلعتهما على جلية الخبر فكانت دهشة أعقبها اشمئزاز ، وكانت حيرة فى أمر فريد الذى تخطى ابنة خاله بعد تلك العشرة الطويلة ليحب فتاة غريبة مريضة لم يعرفها إلا منذ عهد قصير ..

وعادت سعاد تقول : لقد وثقت بها وصحبت ابن عمتى إليها فأوقعته فى شراكها ، تارة تحادثه فى كلام الكتب والاشعار ، واخرى تعزف له على البيانة بل أدت بها الحال الى مراسلته مع الخادم زينب فقرأ رسالتها وأخفاها عنى فى جيبه،ثم أسرع فى اليوم التالى للقائها . أنها تضرب له المواعيد وتورطه فى حبها..

وأردفت امها: ونحن ، أهله ، أنقف أمام كل ذلك مكتوفى الأيدى حتى تنتقل إلى قريبنا العدوى ويصاب بمرضها ؟.

ثم همست السيدة نرجس كمن تناجى نفسها : وماذا يقول الجيران وقد سألونى مرة عن موعد الخطبة . لاشك أنهم يتهامسون بهذا الشأن منذ رأوا فريدا وسعاد يخرجان معاً إلى النزهة وإلى السوق ،أين أدارى وجهى عنهم ياربى؟

وكان أن تصدع بناء الأمل الذى شادته السيدة نرجس وشاده معها زوجها ماهر افندى .. وانهار بذلك الترتيب الذى رسمته الاسرة فى دعوة فريد لزيارة الفيوم . ورأى الجميع فى ذلك انكارا منه للجميل والفضل وكرم الضيافة وأواصر القرابة ..

وكان أن تبدلت المعاملة ، فلم يعد فريد يلقى ذلك الاكرام الأول والعطف الأبوى الفائض . وبدأت نفسه تحدثه بحقيقة الموقف وتحثه على الهروب من البلد !

وقضى صاحبنا يومين فى حيرة من أمره ، وكانت نظرات امرأة خاله بالرغم من طيبة قلبها وسذاجتها تخيفه إذ قرأ فيها معانى التأنيب والألم ..

إذاً لقد علمت سعاد بحبه لايزيس ، ثم أفضت بذلك إلى والديها ، وكان من الجميع أن أنكروا عليه ذلك.. اذن كانوا يتآمرون على زواجه من سعاد . . إن ادراكه هذه المؤامرة جاء متأخرا .. فياله من أبله ! لقد ظن مرة أن هذا الخاطر لا يطرأ لهم على بال - لقد كان مشغولا بنفسه وبحبه وبأوهامه عن الاهتمام بما يجول فى أدمغة الناس - إن الكتب والوحدة والأشعار لم تكسبه هبة التغلغل فى أعماق النفوس واكتشاف مخبآتها - انه مازال فى طور التعلم والاستفادة - - ولكنهم بالرغم من ذلك فى رأيه مخطئين - فالحب عنده موضوع خطير متشعب الأطراف لا يعرفونه - وهم لم يقرأوا عنه شيئا - انهم أكثر منه بلاهة - انهم ما زالوا فى نظره «مساكين» ..

٣

وخرج فريد إلى شوارع المدينة - وجلس على احد مقاعد المقاهى المرصوصة على افاريز الطرق تاركا خواطره تنساب بخمول ومرارة وهو يحتسى فنجالا من

القهوة .. وكان على مقربة منه رجلان يلعبان «الدومينة» تزجية للفراغ وقتلا للوقت . ووراءه آخران يلعبان «الطاولة» ويطرقان الحجر بصوت كالرعد .. أعصاب بليدة من حديد ..

وأخذ يتطلع إلى المارة وهم يروحون أمامه ويجيئون لعمل ولغير عمل .. وارتسمت على وجهه ابتسامة مرة .. أحياء يولدون ويتناسلون ويموتون .. في شوارع ضيقة قذرة .. فقراء عجاف مهزولين يلبسون جلابيب زرقاء ممزقة .. هي كل ما يملكون من نتاج هذا العالم العظيم .. نساء حافيات الاقدام يلبسن ملاءات سوداء تكنس التراب حاملات أطفالا صفر الوجوه .. شحاذون مختلفو الاعمار والاشكال يمدون نحوه أيديهم السوداء .. جيش من ماسحي الاحذية يدفعون صناديقهم عند قدميه .. باعة يتادون بأعلى أصواتهم على قليل من البطيخ والعنب والعرقسوس .. أفندية يلبسون طرابيش حمراء ويختالون عجبا وسط اولئك المعدمين وينظرون إلى الدهماء نظرات مزرية .. الجميع يتجولون في سجون المدن غير مبالين بجمال الكون خارجها .. حولهم المباني والاسوار من كل جهة . رؤوس لاتفكر في غير ارضاء الذات بالغذاء والشراب وسفاسف العيش .. لقد طال مكوثي في هذه المدينة .. يجب أن أعود إلى منزلي . وأستقيل من وظيفتي لأصير محامياً .. وايزيس ؟ كيف أتركها . يمكنني مراسلتها من القاهرة .. هل ترد على رسائلي ؟ لقد قيدتني ايزيس بالفيوم !

ومن هذا ؟ كهل يجره حصان بائس في عربة عتيقة، تسير متهادية في الشارع تهتز وتقرقع . الله ! إنه نجيب بك والد ايزيس تبدو على وجهه آية الحزن البالغ انه يحمل هموم الدنيا على رأسه .. وقفت العربة أمام عيادة الدكتور حلمي .. ماذا حدث ؟

وأسرع فريد ولحق به على باب العيادة وحياه . فنظر إليه الرجل نظرة شاردة

حزينة فسأله - إلى أين ؟ فأجاب إلى الطبيب - لقد ساءت حال ايزيس فجأة ولم نم جميعا ليلة أمس ..

وبعد برهة عادت العربة ووقفت أمام المنزل الفرعونى ، ونزل منها نجيب بك وفريد والطبيب ..

وكان السكون مخيما كعادته على تلك الناحية مما زادها رهبة . وأسرع الجميع بهدوء نحو غرفة المريضة . ووقف فريد عند الباب فرآها تنهض قليلا وينتابها السعال ثم تبصق دما .. وبعد لحظة رحل الطبيب مقطب الجبين على أن يعود فى المساء . وخرج الجميع إلى غرفة مجاورة وتركوا المريضة تستريح . وكانت مستلقية على الفراش وقد دبت فى وجهها صفرة الموت ، وخرج فريد فى ذلك اليوم من منزل نجيب بك دون أن يحادثها أو تحادثه ..

وفى مساء اليوم التالى ذهب فريد وسعاد ليعودا صاحبتهما وكان قلباهما يحسان بدنو حادث جلل .. وقعدا بجوار فراشها ، وكانت جالسة فى سريرها الخشبى المصرى مسندة ظهرها إلى وسائد حريرية بيضاء طرزتها أناملها . وقد خفت وطأة الحمى قليلا ولكنها كانت تحس باضمحلال شديد فى قواها ..

وسألها فريد :

— كيف حالك اليوم يا ايزيس ؟

— أشعر بتحسن طفيف ولكنى أظن انى أسير إلى نهايتى بسلام ..

— ستشفين قريبا وسنخرج معاً إلى المروج والبساتين والصحارى التى تحبينها

— ما أحلى ذلك . ولكن قلبى يحدثنى إنى لن أبرح فراشى هذه المرة الا ..

— أهذا إيمانك بالحياة ؟ إن نفسى تحدثنى أن ليل المخاوف سينقشع عن صباح صاف منير !.

كانت إيزيس تصغى إليه فى حماسته وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حلوة مرة . ثم عادت إليها نوبة السعال فهرول والداها نحوها فقالت : افتحوا النوافذ ودعوا الهواء والنور يملآن الغرفة . .

ثم جلس الجميع بالقرب منها وقد ساد البيت صمت عنيد رهيب ، ينذر بوقوع كارثة فى هذا المنزل الآمن ، ويوحى إلى القلب بدنو الخطر . . وحانت من فريد التفاتة إلى النافذة الفاغرة فاها بجانبه فرأى الكون حوله يعكس له ما فى نفسه من صور كئيبة . فالسماء مثل قبة لحد هائل ، والطبيعة مكفهرة الوجه ، والنسمات تتأوه ، والغصون تتلوى ، وهناك بحر يوسف علا صفحته الصدأ . وقد شمل الحديقة والمزارع صمت المكر والنفاق . وبدت له الحياة فى تلك الساعة فى سحنة الجبار الصخرى القلب . . وأخذ يحدث نفسه : ألا أستطيع أن أقدم لهذه الفتاة التى أحبها أية مساعدة ؟ماذا أفعل هنا الآن؟أعزيها بكلمات جوفاء! يالى من عاجز عديم النفع ، لا أفلح فى غير الثرثرة وتنميق الألفاظ !

ولاحظت سعاد أنها تأخرت عن العودة . فمدت إليها إيزيس يداً ذاوية وقالت :وداعا !. ثم ضغطت على يد فريد ولم تستطع الكلام ..

٤

عاد فريد إلى مأواه وقضى ليلة أخرى من الليالى السوداء الهائلة لم ينم فيها إلا غرارا . وكان سعالها يدوى فى مسامعه ويلاحقه فى يقظته وغفوته ، وكان له صدى رهيب مثل طبل الجنائز ..

الألم أيضا . . الألم يطارده دائما فى حياته وينغص عليه مسراته ويدس له السم فى الدسم . . لايعرف فريد الجابى أين يفر منه ويختبىء ! منذ طفولته وفى

صباه وفى شبابه ، يسلط القدر ذلك الخنجر المسموم على قلبه الحساس فى كل يوم وفى كل ساعة . . فى الشارع وهو يسير .. فى الجريدة التى يقرأها كل صباح . . فى الكتب والقصص .. فى أفكاره .. فى عمله .. فى بيته .. فى حبه .. طفق يتساءل عن علة وجود الألم والشقاء والاذى والشر فى هذا العالم . لماذا لا يمحو الله هذا الشقاء ويدع أطفاله الضعاف يقضون أعمارهم القصيرة سعداء آمنين فى عالمه الجميل الذى أبدعه ؟ . عقله لا يسعفه فى فهم هذه المسائل وعقله يتساءل لماذا خفيت عنا اجوبتها حتى لا نظل إلى الابد متخبطين فى ليل دامس من الحيرة والشك ..

ثم استلقى فريد على فراشه فأخذ عقله الباطن يصور له مشتهاه ، وينتقل به من صورة كاذبة إلى خاطر خادع . فرأى ايزيس تقبل نحوه مشرقة الوجه ممتلئة الجسم ، تبسم له وهو يحدثها عن عشهما الجديد الذى سيعيشان فيه كزوجين سعيدين .. واستيقظ فوجد الشمس تملأ الفضاء بالنور . فأسرع فى ارتداء ملابسه وخرج من غرفته ذاهلا ، فرأى خاله وزوجه وسعاد جالسين حول المائدة يتناولون الفطور . فوقف لحظة ينظر إليهم وهم ينظرون اليه ، فظن أن هناك نبأ جديدا وسألهم : ماذا حدث ؟ فزادت دهشتهم . ثم استأذنهم فى الخروج فزادوا عجبا من خروجه على غير عادته فى الصباح الباكر ..

حتى إذا تركهم وخرج ، أخبرتهم سعاد أنه لابد ذاهب ليطمئن على ايزيس .. فلم يرق لخاله ولا للسيدة نرجس تلك « المناورات » وذلك اللحاق بفتاة غريبة عنه . وبدأ كل يدلى برأيه مستهجناً سلوكه الجديد !

واستقل فريد عربة جرت أذيالها إلى بوابة المنزل الفرعونى . . وكان كل شئ كما تركه بالأمس كئيبا صامتا ، فترجل وسار كمن يمشى وحده فى أحد دهاليز وادى مقابر الملوك . فاستقبله ذلك التمثال الجرانيتى الغامض الساخر ، الذى يمثل أبا الهول قابعا كعهده أمام المنزل مثل كلب الحراسة . ووقف برهة أمام

التمثال كمن يتأهب لملاقاة خطر داهم . . ولما صعد إلى السلم المؤدى إلى الشرفة الفسيحة طرق مسامعه صوت اقشعر له بدنه . . وما هى إلا برهة حتى علم أنها . . ماتت . .

—أبهذه السرعة ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

وما كانت ايزيس أول من مات ولا آخرهم ، وما كان نبأ الموت مستغربا لديه وهو الذى فقد اخوته ووالديه تباعاً . بل كان موت ايزيس متوقعا منذ زمن . . ولكنه تخيل آنئذ أن الدنيا تبدلت وأن المقادير وقفت تناوئه وحده .

واندفع نحو غرفتها . . فرأى الفراش وقد تمدد فوقه جسد هامد مسجى بملاءة بيضاء ، وقف على رأسه الموت قاسيا جاهلا مثل قاتل مجنون . .

وكان نجيب بك وزوجه وابنهما يبكون . . وتقدم الوالد من فريد يقول ودموع الشيخوخة تنهمر على خديه المجعدين : لقد فاضت روحها بعد منتصف الليل ، فجلست أنا وامها ساهرين بجوارها حتى الصباح . وكنا نحبس البكاء خشية أن نوقظ الولد . وكانت تقول : عانقنى ياأبى ، فعانقتها وأسلمت الروح بين ذراعى بهدوء كمن يستسلم للنوم .

ثم تقدم الوالد ورفع الغطاء عن وجه ابنته وقال كمن يرثيها : انظر اليها باسمة ، تحسبها نائمة كالملاك . . كانت روح البيت وبهجته وسلوته . . كانت تحب الجميع والكل يحبها . . ثم قبل جبينها فتساقطت دموعه على ذلك الوجه الشاحب الذى انطبعت عليه ابتسامة تهزأ بالموت وبالحياة . .

وكان فريد قد جمد فى مكانه وجمد دمعه فتحول فى تلك اللحظة إلى تمثال للحزن الأبكم . . ولكنه استطاع أن يطوى آلامه بين ضلوعه ليعزى الأب الواله والأم الثكلى والغلام الباكى . .

وفى أصيل ذلك اليوم كان يسير وسط المشيعين وراء النعش إلى مدينة

الأموات ذاهلا وكأنما الناس وهم يمشون بجانبه ويمرون بقربه ،أشباح تتحرك .
وكانت الشمس قـد جنحت إلى المغيب صفراء اللون تعكس أشعتها الشاحبة على وجوه الأحياء التعبة ..

وأخـذ المشيعون يؤوبون إلى المدينـة جماعات وفرادى .. وتسللت الطيور نحو وكناتها .. وعاد سائر الأحياء كل إلى مأواه .. وبقى فريد واقفا وحـده وسط القبور ، وكأنما تخلف عنهم عمـدا لينفرد لحظة فى هذا المكان .. وكان الظلام يحوك حوله غلالة سوداء فبدا وسط الأنصاب واللحود مثل تمثال رمزى للأمل الضائع ..

... ألوف الموتى مضطجعين فى رموسهم تحت الأشجار الحزينة الصامتة . والهاوية الفاغرة فاها تتطلب أجسادا جديدة تحيلها إلى تراب يتكدس فوق تراب .. والأرض لا تكف عن أنينها .. والليل كأنه أمواج من الظلمات تدفع بعضها بعضـا .. وأشباح الليل تتخبـط فى تلك الظلمة الحالكة .. وأوراق الكافور والسرو تهتز فى الريح النائحة فيصدر عنها صوت مثل حشرجة النزع ..

— بالأمس كانت ايزيس تتنفس وتتحـدث واليوم يطوى الزمن حياتها فى أعماق التاريخ ، ذلك الزمن الذى يطوى فى لانهايته المظلمة كل حى وجماد سيطوى وجودى أنا أيضا قبل أن أحل المسألة العظمى التى حيرت الكل ، مسألة الموت وما وراء الموت ..

.. لم تبد الحياة فى تفاهتها وغرورها مثلما بدت له فى تلك الساعة وهو يفكر فى هوله وحزن مع نشيد الموتى يردد الفضاء صداه ..

وألقى فريد نظرة أخيرة على ذلك القـبر الجـديد الذى تتوزع حوله مئات القبور ، والذى طوى حبـه وأمله .. وحينما لقى نفسه وحيدة بجانب الضريح ، انطلق من عينيه ذلك الدمع المحبوس وخر على ركبتيه عند رخام القـبر ، وطفق

يبكى ـ ثم نهض وقد أحس بشىء من راحة النفس بعد تلك الدموع التى ذرفتها عيناه ثم أخذ يجر قدميه كالجريح فى السبل الضيقــة المحصورة بين صفوف المقابر ، متجها نحو فانوس حارس المقبرة المضىء بجوار البوابة . . ثم سار تحت سدول الظلام ومشى نحو ساعتين على غير هــدى فى طرق تهبط وتعلو وتستقيم وتتعرج ، حتى اقترب من أنوار المدينة . .

ولما وصل إلى الأسواق والشوارع ، وجــد الناس فى شاغل عنــه . . ليس فيهم من يعرفه أو يقاسمه أحزانه . . ومر بأقوام جالسين كعادتهم فى القهوات يتسامرون ويلعبون الطاولة والورق ويدخنون الجوزة ، ويملأون المكان بأصوات معربدة . . وصادف فى طريقه عرسا تعالت فيــه زغاريد النساء وأصوات الطبل والمزمار . .

— من من اولئك اللاهين لم يمت له عزيز أو لم تحل به يوما مصيبة ؟ إنه السلوان ! إنه النسيان ! يغمر القلوب البشرية . . سعداء هم اولئك القادرون على النسيان ! ـ

« إن ما يجرى قد جرى وكان يجرى دائما وسيجرى كذلك ـ وهو جار الآن فى كل مكان » !

والأيام ـ ـ تمر فى مسيرها ، لا تلوى على أفراح الناس وأتراحهم ! ـ

٥

لم يطل مقام فريد بالفيوم بعد تلك الحوادث ـ ـ فبعد يومين ودع خاله واسرته معتذرا بأن أعماله تتطلبه فى القاهرة ـ فلم يلحوا عليه بالبقاء ـ وفضلوا جميعا الصمت على مضض ـ ـ وكانت نظرات سعاد تنبعث منها القسوة ـ ـ فهى لم تشفق عليه ـ بل لم تحزن على فقــد صديقتها ، لأن الغيرة العمياء طغت على الرحمــة الغريزية فى قلب المرأة ـ ـ

وسرعان ماكان القطار الذى حمله إلى هنا يعود به إلى القاهرة .. ولكنه أحس لدى وصوله بأنه بات أشد وحشة عن ذى قبل .. وقضى بعدذلك عدة أيام فى حال غير طبيعية .. وكان عاجزا عن التملص من ربقة تلك الكآبة التى خيمت عليه وزادته نفورا من كل عمل .. ولم يجد حوله من يعطف عليه أو يرثى له وكان عليه أن يشجع نفسه ويواسيها بنفسه ..

وفى أحد الأمساء جاء سمير إلى صاحبه مستغربا تلك الغيبة الطويلة التى لم يكتب إليه فيها خطابا واحدا .. وتساءل عن علة ذلك الحزن الجديد .. فقص عليه فريد حكايته .. ولكن سميرا عزا استسلام صاحبه للحزن الى الضعف وإلى اجترار الحوادث الاليمة التى يجب تناسيها . ورأى أن أثرها وقتى لايلبث أن يزول . لأن لكل جرح فى رأيه التئاما ولكل شىء حد ونهاية ..

— إنك يا أخى تنصح المحموم بأن يهجر فراشه لأنالصحة خيرمن المرض بينما هو فى حاجة إلى الدواء أولا قبل النصائح ..

— الدواء ! نعم دواؤك النسيان وعدم المبالاة والسخرية مثلى بمشا كل الحياة .. أما أنت فقد عهدتك دائما تنظر الى الحياة من وجهها القبيح المؤلم وتتناسى وجهها المشرق البهيج . إنك كلما عبست فى مرآة الوجود لم تر غير وجه مقطبالجبين !.

— أنى لك أن تتغلغل فى أغوار القلوب فتدرك قصتى على حقيقتها . إن على الارض أشقياء لايحصرهم العد ، ولكن أشقاهم ذلك القوى الشعور الذى يحس بشقائه ..

— ستعود إلى اضجارى بفلسفتك الفارغة !

* * *

والآن كفانى ضعفا وبكاء كالنساء . والآن الى العمل . والانغماس فى

العمل . لأداور الدهر وأغالبه . ولأدفن حبى وماضى فى قلبى وأسير مع التيار وسط الزحام . .

وبدأ خطته فاستقال رؤساءه الخدمة ، إذ ضن أخيرا بنفسه وبمواهبه أن تقبر فى تلك الكهوف . وتناسى ذكرياتها وسنيها الآسنة كالمستنقعات . وتأبط شهادة الحقوق وأخذ يطوف بمكاتب كبار المحامين ليقضى لدى أحدهم فترة يعقبها استقلاله بنفسه . وكان يرى أن لا بد له أن يصمد فى الكفاح ليشق له طريقاً وسط ذلك الجيش البشرى الصاخب . .

وتردد على المحاكم فرأى ما تعافه نفسه من قضايا الاحتيال والسرقة ، والقتل وهتك العرض ، والتزوير ، وبلايا الحجز والرهون . . وسمع شكات الانسانية ظالمة ومظلومة . . ورأى أنه سيقضى أيامه مكتنفا بأقذر الصور . . وسيدع أفكاره تتمرغ فى الأوحال فى ذلك الوسط الذى تسفر فيه النفوس عن غرائزها ، كأنه قطعة من الجحيم . . وسيحتك بصنوف الناس وغوغائهم . . وسيرى شعوره يحترق كالبخور . . ذلك الشعور الحى الذى طالما كان سبباً فى بلائه سيظل يعذبه ويضنى جسده . .

ورأى حوله جموعا من خريجى « الحقوق » متأبطين مثله شهاداتهم ، ومئات من صغار المحامين يتنافسون ويتزاحمون . وقد صدمتهم الحقائق فنزلوا عن شىء من أحلامهم وأوهامهم التى نعموا بها أيام الدراسة حين خالوا أنهم سيصبحون قادة وزعماء ووزراء . وقد أخذ بعضهم يلتمس وظيفة كتابية وقنع البعض الآخر بأن يكون وزيراً على خشبة المسرح ولو بضع ساعات !

نعم إنه سيدافع عن المظلوم ، وسيأخذ بناصر الفقير ، وسيعين المهضوم الحق . ولكنه زعم أن هؤلاء مهما كثروا أفراد قد تنصفهم المحاكم . وهناك تقف شعوب حاشدة تشكو الظلم والعبوديه ، وجماعات تعيش فى الفوضى

والرجعية ، وطبقات تعـانى الجوع والحرمان .. إنه يشعر منذ زمان أنه مبعوث برسالة،وعليه أن يقدم نفسه فداء عن بنى أمه.. فليكن إذن محامياً عن الشعوب.. أنه أديب فنـان ، والعمل الذى يتفق مع طبيعته هو الدفاع عن الحق والعـادل والجميل .. بالقلم ينفس عن نفسه ، ذلك الـبركان المسدود . . سيتخـذ من قلمه معولا يهدم به تلك الخرائب المكـدسة فى بلاده .. سيتخذ منه مكنسة يجرف بها تلك الأقذار والرمم الملقاة فى طريق نهضتها .. سينـاوئ به الرجعية البشعة الوجه المستبدة بالبلاد،وذلك التعصب الأعمى للتقاليد الباليه، والتشبث بالقديم بلا تفكير .. بقلمه سيخط سبل الاصلاح والتجديدفى الاجتماع والفن والادب والحياة، وينافح عن الحرية..وهو يعلم أن الطريق وعرة فى وطنه لأن الأمية مخيمة على البلاد ، والكتابة لمن لا يحبون القراءة عبث . والقراء هنا أقلية تافهة يقبل معظمهم على الصحف الماجنة والموضوعات الغثة . . ولكنه على الرغـم من ذلك عزم على الجهاد مستمداً الوحى من ألمه وحبـه . . سيلهب الألم ذكاءه وحمـاسته .. لقد طهرت الآلام روحه وصقلتها . وهيأته خيبة الأمل لتفهم نواحى جديدة كان يجهلها .. فأذا جاءه الصيت عفواً فليتخذه وسيلة أخرى للجهاد ..

وذهب فريد يعرض نفسه على «رؤساء تحرير» الصحف والمجلات ، فرحب به بعضهم على أن يكتب بالمجـان ، واعتذر له آخرون بشغل الوظائف وبقـلة الاقبال على الصحف ، وأخيراً قبله مـدير صحيفة كان يعرفه فسمح له بالعمل فى جريدته .. ومرت الشهور وهو منكب على عمله بين سائر «المحررين» .. ثم أتت عليه أيام لقى فيها الأهوال وذاق الجوع وكـثر أعداؤه ووقف أمام المحققين .. ولكنه صبر وهزأ بالفقر والاضطهاد .. وكان يشعر أحياناً أن روح إيزيس تغشاه وتقرأ كتاباته فزاد بهذا الوهم قوة ..

وتسربت أخباره إلى أسرة خاله بالفيوم .وعلمت أنه ترك المحاماة إلى الكتابة

في الصحف. وسمعوا هناك أنه يعاني الفقر ، فأساءوا بعقله الظن ونفضوا أيديهم من أمر تزويجه من سعاد ـ وفي أحد الأيام وصلته رسالة رقيقة يدعوه فيها خاله إلى حفلة زفاف سعاد إلى أحد مهندسي الري بالفيوم فبعث إليهم بتهنئة ثم طوى ذلك الفصل من قصته في زوايا النسيان ..

الفصل التاسع

١

قضت انعام الشهور الأولى في ملجأ الراهبات بالعباسية ، ووجدت من بعضهن حنواً ورعاية لاسيما من الأخت لوسيان التي أحبتها محبة الأم ... وكانت تعمل كتلميذة وكخادم .. وكان لانتقالها من تلك البؤرة الجهنمية التي عاشت فيها إلى هذا القصر البديع المكتنف بالحدائق والأزهار أثر بين في نفسها وجسدها فنما عودها وعاد إليها رونق الصبا . .

وكثيرا ما كانت تطوف في ردهات الملجأ وحجر الراهبات وتقف طويلا أمام التماثيل الجميلة والصور الزيتية والسدول المطرزة باعجاب وخشوع ـ فتجري في ممرات الحديقة وتنبطح فوق العشب الأخضر ، وتتأمل العصافير والشجر ، والأزهار المغروسة بعناية وتنسيق . . فتمثل روح المراح والدعابة في هذه البيئة الوقور ..

ولقد ثابرت على تلقي الدروس الفرنسية والعربية ، وكانت تختلس لحظات كثيرة في الانصات إلى البيانو ، وتشتهي أن توقع عليه نغمات حلوة ، ومن وراء الأبواب كان جسدها يهتز وأقدامها تتنقل مع النغم . فقد نشأت مع أم

راقصة ، ومع كراهتها لتلك المرأة التى تعدها أما ،ولذلك الضرب الوضيع من الرقص البلدى الذى كانت تحترفه ،فأنها كانت تنساق إلى الرقص فى غنائهاومرحها ، تارة فى الحديقة وأخرى أمام المرآة ، بل كثيراً ما كانت ترقص وتغنى وهى تنظف الآنية والنوافذ والمقاعد كلما انفردت بنفسها ..

ومرت سنوات لم تعد فى أثنائها خضرة للسؤال عن ابنتها فبدأ الجميع يظنون أنها ماتت ولم يدر أحد أين قذفت بها المقادير ..

وشبت انعام فتاة حسناء هيفاء واستردت ذلك الجمال الموروث الذى خبا ضوؤه فى تلك السنين السود ، كما أخذ ذكاؤها يسطع واستعدادها للفن يقوى ..

وجعلت توازن بين حالها اليوم وحالها بالأمس ، فتشمئز نفسها من ذلك النمط الشاذ من العيش الذى كانت تحياه مع جابر وخضرة . . ولم تستطع اخفاء ذلك المقت لماضيها فباحت يوماً بكل ماتذكره إلى الأخت لوسيان ، وقصت عليها فى خلوة كيف كانت تعيش مع أبيها الوغد وأمها الراقصة ،وكيف كذبت أمها وادعت موت أبيها وهو حى . . فتأثرت الراهبة تأثرا شديداً من حكايتها وأوحت إليها بأن تصير راهبة مثلها لتكفر عن ماضيها فى النسك والعبادة . .

أما خضرة فقضت السنوات التى حكم بها عليها فى سجن النساء ثم أطلق سراحها . فخرجت قبل زوجها وقضت الأيام الأولى فى زحمة القاهرة لاتدرى ماذا تصنع .. وكانت تفكر فى الصبية وماتصنع بها حين تستردها من الملجأ وهى تكاد لاتملك قوت يومها . وتخيلت الفتاة وقد شبت وزادت رونقا وملاحة ، وأخذت تفكر فى الكيفية التى تستغل بها الفتاة وملاحتها ! .

وأخيراً عزمت على أن تستردها أو على الأقل أن تعرف أخبارها وتطمئن

على وجودها ـ وذهبت تجول خلسة حول أسوار الملجأ وتتطلع إلى النوافذ ،فلم تر شيئا .. فاتجهت نحو البوابة ووقفت وراءها برهة مترددة ، ثم قرعت الباب ففتح لها ، ومشت نحو قاعة الانتظار .. وأقبلت الرئيسة وهى تخفى ذلك الامتعاض الذى أحست به حين رؤياها .. فبدأت خضرة تقص عليها كيف اضطرت إلى السفر إلى الصعيد وهناك أصيبت بمرض أقعدها طول تلك السنين ، ولما عوفيت استدانت أجر السفر لترى وحيدتها التى كادت تجن شوقا إلى رؤياها !. فطمأنتها الرئيسة وأخبرتها أن ابنتها تتعلم وتتهذب ولاخوف عليها فى هذا المكان الأمين ، وأن فى مقدورها أن تتردد عليها من حين لآخر لتراها وتطمئن عليها . ولكن خضرة تشبثت باسترداد ابنتها ، فزادت حيرة الرئيسة وأمرت باستدعاء الفتاة لترى أمها ما آل إليه حالها . .

وحضرت انعام مهرولة لاتعلم من الأمر شيئا . وماوقعت عيناها على المرأة حتى جمدت فى مكانها ذاهلة كمن يرى حلما رهيبا ـ وهبت خضرة للقائها بشوق وترحيب ـ ـ وعاد الماضى الرهيب يظهر بهوله وشقائه أمام الفتاة وتذكرت تلك الأيام التى كانت تضرب فيها وتهان وتجوب الأسواق حافية القدمين تشكو الجوع والمرض وتحيي حياة الحيوان ـ ـ فارتعدت فرائصها وخرجت هاربة، ثم ألقت بنفسها على مقعد تبكى وتنتحب ـ ـ

وبدت على وجه خضرة علائم الغيظ والغضب ، وانقلبت إلى ذئبة شرسة تتأهب للقتال ـ ـ وهنا اتصل النبأ ببعض الراهبات فأقبلن على المرأة يلطفن من حدتها ويسألنها أن تدع للصبية مهلة أخرى تتم فيها تعليمها فتنفع نفسها وتعول أمها ـ وأخرجت لها الرئيسة جنيها تستعين به فى اصلاح حالها ،فما رأته المرأة حتى عادت حيواناً أليفاً ، ورضيت أن تترك وديعتها على أن تستردها فيما بعد .. وخرجت فرحة بهذه البداءة الحسنة ،وزادت يقينا بأن هذه الفتاة ستكون منجما

يدر عليها الذهب ، سواء أبقيت حيث هى أم خرجت معها إلى الشوارع. .

حتى إذا انصرفت أحاط الراهبات بانعام يلاطفنها ، ويؤكدن لها أنهن لن يتركنها تذهب ، مادامت ترغب فى البقاء معهن .. وبدأت الأخت لوسيان تظن أن من المستحيل أن تكون هذه الفتـاة ذات الوجه الأبيض المشرق ، والبشرة النقية والقد الممشوق ابنة تلك القروية السمراء الشرسة . وليس بعيدا أن يكون فى الأمر سر دفين . . فسرى فى قلب انعـام شيء من العزاء . ولـكنها ظلت عدة أيام كئيبة النفس يساورها الخوف والقلق . وكانت تفكر :

لقد ألقى بها القدر بين براثن أبوين متنمرين .. وهى اليوم غيرها بالأمس، وهى لن تسمح بعد اليوم لانسان أن يتحكم فى حياتها .. بدأت روحها تتمرد بل تثور ، بل تستخف بالحياة وبالاحياء . إن فى عنقها واجب البر بوالديها ولـكن هذا الواجب قد رفع عن عنقها منذ أن أرغمـاها على العيش فى جو موبوء ، يوم كانا يدفعان بها إلى السرقة والنشل والتستر على الجريمة ، ويعاملانها بلا شفقة .. إنها سترفض الخروج من هذا الملجأ الحنون ، ولـكن شبح جابر الرهيب الذى لن يتورع عن اختطافها أو التنكيل بها أقض مضجعها وملأ أيامها ولياليها بالرعب ومن أدراها فلعلهما الآن يجولان تحت نوافذ الملجـأ ، ويدبران الخطط الشريرة لاختطافها . ومن ذا يحول بينها وبينهما وهى ابنتهما والامانة التى يرغبان فى استرجاعها؟.

ثم تشعبت بها الظنون وأساءت الظن بنظرات الراهبات ،ومن معها من الرفيقات ، وتوهمت أنها سقطت فى عيونهن جميعـاً ، وهى ابنة شريرين من الطغام . وكانت قد تناست ماضيها ولـكنها لم تستطع كتمان سرها فزلق لسانها وباحت يوما للأخت لوسيان بقصتها كلها ..

لقد باتت حياتها منغصة فى هذا البيت المسور الشبيه بالسجن ! . انها هنا

حبيسة قفص ذهبي - إنها أسيرة ترقبها العيون فى الداخل والخارج - لابد من تحرير نفسها وتحطيم قضبان القفص ، فالطيور التى تغنى وتمرح أمامها على الشجر ليست أحق منها بالحرية والانطلاق ..

وهكذا اختمرت فى رأسها فكرة الفرار من المدينة كلها ، ليفهم الجميع انها ليست متاعا يتسلمه بعض الناس عن البعض الآخر - إنها تعشق الحرية وقرأت عنها كثيرا فى كتب الدراسة .. إن كلمة الحرية تلاحقها فى هذه الايام وتحول دمها إلى نار .. انها ستهرب أيضا من ماضيها الاسود وستتحرر من ذكريات طفولتها وسينسى الناس كلهم من هى وابنة من هى ! ولكن ألا تستطيع أن تخرج رغم أنف الجميع فى أى وقت تشاء - لقد عزمت على الرحيل ولا حق لانسان أن يقف فى وجهها - إلا أن الفرار أخف وطأة من اعلانها الثورة ومن انذارها بالرحيل بين أخوات لم يستأن إليها قط .. ولاشك انهن سيقابلن عزمها بالدهشة والالم ، وسيثنيها عن رغبتها بشتى الاساليب فتذعن وتبقى ..

ولم يكن ذلك الهروب بالأمر المستحيل ، فلترحل فى الحال .. وهى قد أعدت رسالة طويلة أودعتها شكرها على ما لاقت من جميل وعطف ، وأفضت فيها إلى الراهبات بعزمها على الرحيل من القاهرة إلى حيث لا تعلم ورجتهن ألا يبحثن عنها لأنها ستطوى صفحاتها الماضية كلها وتحيى حياة جديدة ، وألا يبلغن نبأ فرارها إلى «البوليس» للبحث عنها لأن ذلك لن يعيدها إليهن راضية ، بل يزيدها بعداً عنهن .. وختمت رسالتها بعبارات خاصة بثت فيها إلى الأخت لوسيان حبها وشكرها ..

ثم تسللت فى ظلام الليل إلى الحديقة ولم تحمل معها متاعا ولا رداء غير قطع من النقود كانت تقتصدها منذ زمن . وتسلقت السور وقفزت منه إلى الشارع ، وانطلقت مسرعة الخطى تتلاقفها الطرقات ، واختفت تحت ستار الليل فى أعماق

القاهرة تحدوها تلك الروح الشغوف بالمغامرة ..

٢

علم جابر عبد الصمد وهو فى ليمان طره أنه قد أفرج عن امرأته خضرة بعد أن قضت مدتها. وأسر إليه مسجون جديد كان من جيرانه فى «عشش الترجمان» أنه رآها تسير سيراً معوجا ولا تخشى رقيبا .. وكان جابر يعتقد أنها ستسعى إلى رؤيته عند إخلاء سبيلها. ولكن كرت الأيام وتلتها الأسابيع ولم تحضر إليه، بل إن إنساناً آخر لم يفكر فى السؤال عنه فى محنته، كأنه قطعة مهملة فى هذا الكون المكتظ بالأحياء ..

وأخذ جابر يتخيل امرأته وقد انطلقت تنعم بالحرية دونه وتنتقل أنى شاءت، وتفعل ما أرادت بلا رقيب .. ثم تصورها وقد ذهبت إلى الملجأ واستردت البنت، فاذا بها فتاة حسناء مليحة، تقاسمها نعمة الحرية واللهو، بينما هو يقطع لياليه وحده فى « الزنزانة » نائما على « برش » وملتحفاً ببطانية قذرة؛ ويقضى نهاره فى قطع أحجار الجبل تحت وهج الشمس، لابساً على رأسه لبدة من الصوف الخشن ومرتديا قميصاً وسروالا من « الدمور » الأزرق، وفى رجليه سلسلة غليظة من الحديد متصلة بحزامه، وقد علت وجهه ورأسه وثيابه طبقة من التراب الأبيض. فاذا سار فى « الطابور » لم يسلم من سب السجانة ودفعهم إياه بيديهم أو لكمهم إياه فى وجهه ..

وأخذ تمرده على سجنه وسجانيه يوحى إليه بالانتقام .. من امرأته على الأقل. وزادته الأيام غيظا وتملكته رغبة جامحة فى الانتقام وشوق لجوج إلى يوم حريته .. ومما زاده حقداً أنها ليست فى متناول يده ليكتم أنفاسها ويروى

ظمأه إلى الدماء بتهشيم عظامها .. وماذا يضيره وقد مل الحياة واعتقد أن العالم كله ينتقم منه ويعاديه ولا يعده أكثر من بهيمة .. لقد ذبحها فى نومه ويقظته ألف مرة ، ولكن يده لن تصل إليها إلا بعد سنوات أخرى عليه أن يقضيها فى هذا الجحيم .. فليبادر إذن إلى انتقام وقتى يخفف عن نفسه بعض ما بها .. وعليه وعلى أعدائه ! . .

ورسم جابر خطتهوأعد مقاله، ثم طلب من سجانه أن يذهب به إلى المأمور ليفضى إليه بجريمة ارتكبهاهو وامرأتهمنذسنين ولم يصل المحققون إلى كشف سترها

وسرعان ما سيق إلى غرفة المأمور وقد أمسك سجان بذراعه الأيمن ،وأمسك بالأيسر سجان آخر وسار «الباشسجان» من وراء الجميع وهناك وقف يعترف باختطافه ابنة كرم بك شكرى بدمياط بمشاركة زوجه . وكيف عزما فى أول الأمر على قتل والديها . وذكر كيف ساعدته امرأته على اخفائها طول تلك السنين ، وكيف وضعتها المرأة فى ملجأ الراهبات ليستردها بعد خروجهما من السجن . وكان جابر فى اعترافه صريحا لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا رواها ليثبت ارتكابهما الجريمة . . فأبلغ المأمور الأمر إلى النيابة وأخذ وكيل النيابة فى التحقيق ، ولم ينقض يومان حتى سيقت خضرة أمام المحقق ووجهت بزوجها فلم تستطع الانكار . .

واتصل المحقق براهبات الملجأ وعرف منهن كيف جاءت بها خضرة حتى ليلة فرارها إلى حيث لا يعلم أحد . . وبعثت الأوراق القديمة فى نيابة دمياط من مخبئها ، واتضحت حقيقة الجريمة ، كما اتضح موت كرم بك وزوجه بعد أن رحلا عن دمياط إلى القاهرة منذ سنين ، وعرف أن أملاكهما بالسنانية بيعت منذ زمان ، وأن كوخهما الصيفى مازال قائما مهجورا . وأن لها أخا لا يعرف اليوم مكانه . .

وحوكم جابر وزوجه وزجا فى السجن ثانية .. أما الفتاة فلم يعرف أحد مقرها ثم حفظت أوراق التحقيق فى احدى خزانات المحكمة ومرت شهور جر عليها النسيان فيها ذيوله . .

أما الراهبات ولاسيما الاخت لوسيان ، فلم ينسين الفتاة وقصتها ، وكانت موضع أحاديثهن مدة طويلة ولم يألين جهدا فى سبيل العثور عليها ..

٣

خرجت انعام فى تلك الليلة التى فرت فيها من الملجأ ، تضرب فى الأرض فتتلقفها الطرقات ، وراحت تسير بخطى متخاذلة على غير هدى وتتلفت حولها على الرغم منها كأنما تطاردها العيون ،ولم تكن تبالى بالتشرد وقد قضت حياتها الاولى فى عيش بوهيمى وقضت حياتها التالية فى وحدة وانقطاع . إنما كانت تحس بدبيب الخوف كأن هناك من يلاحقها ويود اختطافها .. وكانت كلما فكرت فى أن هناك من يقفو فى الظلام أثرها كلما زادت روحها تمردا وشغفا بالحرية ..

وماهى إلا أن أدت بها قدماها إلى ميدان باب الحديد ، ورأت محطة السكة الحديدية تعلوها ساعة مضاءة مثل عين هائلة فى وجه عملاق ، وسمعت صفير القطر كأنها تهش للقائها .. فأسرعت خطاها نحو فناء المحطة الداخلى وسألت عن موعد أول قطار يبرح القاهرة إلى الاسكندرية فقيل لها أنه يقوم فى منتصف الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة ، وأن بينها وبين الموعد نصف ساعة ، فاتجهت إلى احدى نوافذ الدرجة الثالثة وابتاعت لها تذكرة إلى الاسكندرية ..

وبعد برهة كان قطار الركاب البطىء يشق ظلام الليل مثل ثعبان يلهث بين الحقول وتشع عيناه شرراً فى الظلمة .. وقد تجمعت على مقعد خشبى فى ركن يكاد لايصله ذلك الضوء المرتعش الضئيل المنبعث من مصابيح العربة . ولم تكن وحدها فى ذلك المكان إذ كان معها فى العربة عدد من فقراء الصناع والمزارعين

الذين كانوا ينزلون ويصعدون فى المحطات الواقعة على الطريق - وكان بجوارها عدد من الصعايدة الهاربين من قحط الجنوب إلى حيث يعملون بالاسكندرية فى حمل الأحجار وبيع الفاكهة -- وجوه شاحبة أضناها السفر والسهر. فبدأ النعاس يثقل الجفون ويميل الرؤوس - وعلى مقربة منها عيون سوداء تلمع فى الضوء الشحيح وتحدق فيها مستقصية أمرها معجبة بحسنها ! -

وأخيرا غلبها النعاس فاستسلمت لنوم عميق وهى جالسة مسندة رأسها إلى الجدار الخشبي البارد. ولم تستيقظ إلا فى منتصف الساعة السادسة من صباح اليوم التالى حين دخل القطار محطة الاسكندرية. فلفحتها نسمات الصبح الباردة ، ودوى فى أذنيها صفير القاطرة وضجيج المسافرين والحمالين --

وبدأت الشريدة الحسناء تسير فى ذلك الصباح الرطب الباكر فى طرق وشوارع لم ترها من قبل ، ولم تدر إلى أين تقصد - ولكنها لم تتوقف فى مشيتها وقد أنستها صور الاسكندرية وهى تتهيأ لاستقبال النهار ذلك المأزق الذى احتواها

وأخذت النسمات البحرية المنعشة تملأ قلبها بالعزاء بل بالغبطة ، وتذكرت أنها قريبة من البحر فسعت إليه كأنما تسعى إلى لقاء حبيب غائب --

وأدى بها المطاف إلى افريز الميناء الشرقية فوقفت على الشاطىء ذاهلة ، تحدق فى اتساع البحر وزرقته وجلاله بعينيها الساحرتين اللتين لا تشبعان من مرآى الجمال . وطفقت تملأ صدرها بنسماته وأذنيها بخرير أمواجه ، ثم تسلقت الافريز وجلست تجاه البحر الواسع الجبار وقد نسيت كل شيء سواه -- نسيت ذاتها ووحدتها وهمومها فى تلك الساعة ، وخيل إليها أنها تسبح على صدر هذا اليم الزجراج وأنها ترقص مع هدير أمواجه ، وترف كاحدى طيور البحر فوق وجهه -- ومرت أمامها بعض تلك الطيور تحط على الماء وتصعد إلى الفضاء ،

فتأوهت واشتهت لو انقلبت فى تلك الساعة إلى طائر حر يتنقل أنى شاء ، ويرقص ويغنى ويمرح طول النهار بعيداً عن عيون الناس وقيودهم ..

وأفاقت بعد ساعتين أو نحوهما من تلك الغيبوبة اللذيذة ، إذ أحست بالجوع وفكرت فى ذلك الجسد أو السجن الذى يلح بالمطالب ، ويحتاج دائما الى غذاء وشراب ولباس ومأوى .. إنها لاتستطيع أن تعيش بالروح وحده ولا بالأحلام وحدها .. إنها تحس بجسدها يربطها بالارض ، ويلصقها بالتراب ويرغمها على السعى لتلبية أوامره ونواهيه ..

والآن !. إلى أين تذهب ؟ وماذا تنوى أن تصنع فى هـذه المدينة التى لم ترها من قبل ؟ إنها لاتعرف هنا انسانا ولاتملك من حطام الدنيا غير ما عليها من ملابس وما فى جيبها من قطع قليلة من النقود .. لاخبرة لها بالحياة .. وهذه الجموع التى تروح وتغدو أمامها لاتحس بوجودها ولا تبالى همومها ..

وهى فى هبوطها إلى أرض الحقيقة قد تكالبت على رأسها المخاوف والافكار فنهضت وسارت على الشاطىء كأنما تحتمى بالبحر وجماله من بشاعة الحقائق .. وأخذت تتطلع إلى الشوارع الفسيحة وقد ازدحمت بالعربات والسيارات والناس ، تمر أمامها جيئة وذهوبا وهى لاتدرى لماذا تروح وتجىء بهذه العجلة وبهذا النشاط .. لعل الناس مسوقون إلى أعمالهم وهى لاعمل لها ولا غاية .. ورفعت عينيها إلى المبانى المنيفة المشيدة بقرب البحر ، ورأت فى بعض الشرفات نساءاً وأطفالا آمنين فى بيوتهم وهى لامأوى لها ولابيت ..

وجذبتها المدينة اليها فمازالت تجوب شوارع جميلة فسيحة وأخرى ضيقة ملتوية ، وتقف غير مرة أمام وجهات المتاجر تشاهد مختلف السلع المعروضة وراء ألواح البلور حتى أنهكها التعب ..

٤

كاد النهار ينتصف وهى تتسكع فى الشوارع ، لأنها لاتدرى أين تذهب ولا أين تستقر ، وعادت تحس بوطأة التعب والجوع ، فأخذت تعد ما تبقى فى جيبها من قروش ، ومرت بمطعم فسيح الجنبات تفوح منه روائح الطعام ، فانساقت اليه وارتمت على أحد مقاعده تعبة . ومن ركنها المنعزل بجوار نافذة عريضة تطل على شارع محطة الرمل ، أخذت عينـــاها تتطلعان إلى المارة والعربات والغادات المهندمات بشىء من الذهول وعدم الاكتراث .. لقد رأت الآن أنها تسرعت فى الفرار من ذلك الوكر الامين وخرجت عزلاء إلى هذا الميدان المزدحم .. كان خيرا لها أن تتريث وتفكر فى مصيرها ..

ومرت أمامها سيارة أنيقة يسوقها شاب مهندم استرعى انتباهها ، هو شاب ثرى على جانب من الوسامة والثقة بالنفس .. إنه ولاشك ، لا يفكر مثلها فى يومه ولا فى غده !

وأسندت رأسها إلى كفها وأخذت تتلهى بالنظر إلى أناقة الشاب وسيارته وقد وقف بها فجأة بالقرب من باب المطعم . . صورة سارة . . شباب ووسامة وثراء .. هناك ولاشك نساء عديدات يحببنه .. يخيل إليها أنها رأت ذلك الوجه قبل اليوم .. لعل ذلك فى أحد شوارع القاهرة حين كانت تخرج أحيانا مع الراهبات للتنزه على شاطىء النيل ..

وترجل الشاب من سيارته ثم دخل إلى المطعم وجال برهة بين الموائد كمن يبحث عن شخص ولعله على موعد مع صديق .. لقد قطب جبينه ثم نظر إلى ساعة ذهبية فى معصمه ..

وأحس الشاب بشعاع عينين تتفرسان فيه من بعيد فالتفت نحوها بلا قصد ،

ووقعت عيناه على فتاتنا وهى جالسة وحدها ترتدى « فستانا » ساذجا رخيصا . وقد أسندت ذقنها إلى كفها ببساطة وبلا مبالاة . وكانت تتلهى برؤيته وهو يبحث عن ضالته ، وعلى شفتيها القرمزيتين ابتسامةعطف رقيقة ..

وتلاقت أنظارهما فأدارت عينيها إلى ناحية أخرى ، وتصنعت أنها لم تره .. إنها فتاة بديعة ، محتشمة فى ملبسها .. لعلها احدى طالبات المدارس أو احدى عاملات المتاجر . . فقيرة لكنها وديعة فاتنة .. ولكن ، ماله ولها ؟

وتركها وعاد إلى شأنه . ولكنه وجد أنه أتم دائرة حول الموائدو المقاعد وعاد إلى حيث بدأ مواجهاً تلك الفتاة المنزوية .. وتلاقت عيناهما ثانية فوقف يفكر ملياً ليذكر أين رأى هذا الوجه من قبل .. لعلها تشبه واحدة من أولئك الكثيرات اللائى صادفهن وعاشرهن . وكأنما أثارت فيه اهتماما خاصاً فاتخذ له مقعداً قريباً منها ولم يدر لم فعل ذلك ، وهو لم يجذبه إليها مافى غيرها من الغوانى .. وإن هى إلا فتاة رقيقة الحال ساذجة الملبس .. ولكنه شعور خفى غمر نفسه بالعطف والاشفاق، زادهما ما رآه فى وجهها من إشراق وبراءة وسذاجة . .

وجاء «الجرسون» يحمل صنفاً رخيصاً انتقته من قائمة الطعام. وبدأت تلتقط اللقيمات كالعصفور، بحياء . ثم أقبل على الشاب هاشاً باشاً فاختار صنفاً رخيصاً مثلها . وأخذا فى أثناء الطعام يختلس كل منهما النظر إلى الآخر ، وابتسم لها فصبغ وجهها بالارجوان ، وأومأ إليها برأسه بالتحية فردت عليه تحيته بخفر ، ودعاها إلى الجلوس الى مائدته فترددت ، فنهض جريئا كعادته واستأذنها فى الجلوس معها فقبلت، ثم دار بينهما الحديث :

— تحدثنى نفسى ياآنسة أنى رأيتك قبل اليوم ولكنى لاأدرى متى ولا أين كان ذلك !

— هذاما كنت أفكر فيه ساعة رأيتك . قد يكون ذلك فى أحد شوارع

القاهرة لانني لم أعتد الظهور فى المجتمعات، بل هذه أول مرة أجلس فيها فى مطعم عام..

ـــ وأظنك مثلى من القاهرة ؟

ـــ نعم وهذه أول مرة أزور فيها الاسكندرية !

ـــ وأهلك ؟ أهم فى القاهرة أم هنا فى الاسكندرية ؟

فشعرت الفتاة بانقباض ومذلة عند ذكر ذويها ، وتجسمت أمامها صورة والديها وهما يجوبان أزقة القاهرة ، وكانت تظن أنها هربت من ماضيها فاذا به يطاردها فى كل مكان! وتطلعت إلى وجه محدثها كمن تتوسل إليه أن يعفيها من هذه السيرة ثم قالت :

— ليس لى أهل ! لقد ماتوا جميعاً ! وأنا هنا أبحث عن عمل شريف . .

— هونى عليك ولا تبالى .. أنا أيضاً لا أهل لى فاتخذت الناس كلهم أهلا وأقارب !

وشعر الفتى فى تلك اللحظة بحنان غريب لم يعهده فى نفسه ، وبتعلق طاهر برىء بهذه الشريدة اليتيمة . وتوارت أنانيته برهة وراء تلك العاطفة النبيلة التى غمرت قلبه . فهو يود أن يساعد هذه المسكينة وأن يخلص لها الخدمة ولا يطلب منها جزاء ولا شكوراً . وهو الذى لا يفكر منذ سنين فى غير ذاته ولذاته . . ولكن هل تخلو النفس البشرية من فضيلة مستترة أو من جملة فضائل تطفو وتغرق فى القلب الانسانى البعيد الغور ؟ . ثم قال :

— يبدو لى أن الأقدار ساقتنى الآن لمساعدتك . وكنت عزمت على العودة إلى القاهرة لبعض شأنى .. تقولين إنك تبحثين عن عمل . فهلمى نتدبر فى الأمر .. إن لى هنا صحابا وعملاء من التجار، فأى عمل تجيدين ؟ أتطريز الملابس أم غيره ؟

— لا أجيد التطريز ولا الحياكة ولا أعلم ماذا أصنع !

— هل ترضين بالعمل فى أحد المتاجر كبائعة مثلا؟

— أى عمل شريف أرضاه . .

— إذاً فسأصحبك فى أصيل اليوم إلى متجر كبير لبيع الملابس ونحوها إذ أعرف صاحبه ولا أظنه يخيب سؤلى .. ولدينا الآن بضع ساعات نقضيها فى التجول بسيارتى على شواطىء «الرمل» إن شئت ..

وكانت نزهة على « الكورنيش » بجانب البحر الممتد إلى غير مرآى .. فى السيارة الأنيقة يسوقها الشاب الأنيق .. وقد أنست الفتاة إلى كلامه المعسول، وإلى تلك الابتسامة التى تصحب كل عبارة من عباراته . فسكنت نفسها إلى نفسه وأخذت تثرثر وتتحدث كطفلة غمرتها هدايا العيد !

ثم جلسا فى مقهى صغير صفت مقاعده واخونته على تل رملى صغير، يشرف على البحر الواسع من يساره، ويترامى إلى منارة رأس التين أمام النظر . ويرى خليج ستانلى المستدير على يمينه وقد علته بعض المنازل والقصور واعترضته صخور شهباء تتكسر عليها الأمواج ليل نهار . فيسمع لها صخب متواصل وخرير دائم . . وكان البحر يمتد أمامها أزرق اللون إلى الافق، حيث يرسم قوساً من دائرة تنطبق عليها قبة السماء ..

وكانت أشعة الشمس تنعكس على جزء من هذه المساحة فتعيره بريقا ووهجاً فضياً متلألئا . وحينا يبرقع وجه الشمس سحاب تفلت من ورائه الاشعة مثل سهام ذهبية تنطلق نحو البحر ونحو السماء . . وفى عرض البحر تتدحرج الأمواج ثم تتكسر على الصخور القريبة من المقهى، فيتحول الماء عندها إلى زبد أبيض يلمع فى الضوء ..وهناك مراكب الصيد ذات شرع بيضاء مثلثة تروح وتغدو وتثبت وتتمايل . . والهواء البحرى المنعش البليل يهب عليهما بسخاء . .

فى ظل هذا الركن الشعرى كانت تجلس انعام مع ذلك الشاب الذى

فتنها مظهره منذ قليل . وكانا يتحدثان ويضحكان،فغلب الفتاة التأثر وترقرقت في عينيها الدموع . .

— ماذا جرى ؟ أتنوين البكاء ؟

— جميل . ! جميل جدا . . هذا المكان . . وهذه الجلسة الهنيئة . . ليتها تدوم إلى الابد . .

— إذاً أنتِ من أهل الشعر والعواطف ! إن الشعر يلحق بي ويطاردني في كل مكان ! لقد هربت من فريد فوجدتك !

— ومن يكون فريد هذا ؟

— صديق « ملحوس » مصاب بالشعر والفلسفة ! سأعرفك به إن حضرت يوماً إلى القاهرة ، ولو كان جالساً معك الآن لشاركك البكاء من سحر الجمال! ولكان منظركما معاً مسرحيا بديعا . .

— لقد قلت أن لا أهل لك — هذا عجيب !

— وما وجه العجب في ذلك ؟ لقد ماتوا . فما ذنبي ؟ وأنت ألست مثلي ؟. إني لم أشك الوحدة قط،بل أنا أبحث عنها أحيانا فلا أجدها !

— ولا أقارب ؟

— أما هذا فلا . إذ لا يخلو انسان في رأيي من قريب يعرفه أولا يعرفه ، وأظن أن لي أقارب بدمياط ولكني لا أعرف أسماءهم !

— ليتني كنت أحدى قريباتك !

— لكنت أنا السعيد !

— الله ! أنظر هناك . . باخرة ؟ إني لم أر باخرة قبل الآن في غير الكتب !

— وماذا كنت تفعلين لو كنت على ظهر هذه الباخرة ؟

— كنت أطير من الفرح !.

— إن شئت الطيران فاركبي طيارة لاباخرة !.

— وأنت، هل ركبت باخرة فى حياتك ؟

كثيراً. لقدسافرت إلى اوربامرارا،ولاغنى لى عن باريس بلدالشباب والمرح!

— آه.. السفر.. إلى بعيد.. إن ركوب البحر حلمى الدائم.. ليتنى أرحل وأنطلق إلى بعيد.. بعيد.. إلى بلاد السحر وأرض الجمال.. وأعيش حرة كالطير والسمك! ليتنى كنت رجلا، اذن لحققت أحلامى بسهولةوجرأة.

— الحق ماتقولين.. إن البحر جميل كما ترين ولكنه أجمل عندى على ظهر المركب حين يكرم البحر ضيوفه، وحينما تهدأ الأمواج ولاترين حولك غير زرقة الماء من تحت وزرقة السماء من فوق، والباخرةتهادى فى مسيرها، كما يقول أصحابنا الكتاب، كالعروس المجلوة، وقتئذ لاتمالكين نفسك من البكاء. غير إنى لا أنصح لك بالسفر!

— لماذا ؟

— لأنك بكيت منذ برهة لجمال هذه الجلسة على شاطىء ستانلى، وأخشى إن رأيت الجنات وبلاد السحر والأحلام أن تجنى من شدة التأثر!

فضحكت أنعام. وكانت الساعات القلائل تمضى متلاحقة سريعة المرور كما تمر الأحلام الهنيئة. وكان الفتى وهو يحادثها يدهش من افتتانه بطهارتها ومن عدم احساسه بأية رغبةمن تلك الرغبات الوضيعة التى يحس بها أمام الفتيات اللواتى يتصيدهن.. حار فى أمر هذه العاطفة وزاده دهشة واستغرابا أن هذه الفتاة جميلة وساحرة وذات إغراء ظاهر عميق. فكيف تكون على مثل هذا الحسن ولا تصبو إليها نفسه ولا تتوق إليها حواسه، بل يظل أمامها هادئا يمرح ويضحك كأنه أمام صديق لا أمام انثى.. وشعر بقوة غريبة تدفعه لا إلى التغرير بها بل إلى مد يد

المساعدة إليهـا والاخلاص فى معاونتها وتسهيـل سبل الحياة الشريفة أمامها .
وقدأطربه هذا الاحساس وخيل إليه أنه قد شعربه الآن لأول مرة أمام امرأة.. وارتدت السيارة تشق الزحام إلى المدينة .. ووقفت أخيراًأمام مخازن شالون وقد زينت وجهاتها « بالفترينات » البديعة التنسيق .. وقدم الشاب صاحبته إلى مدير المحل وزكاها لديه ، فهش هذا للقاء زبونه المثرى ولم يتردد ارضاء له فى قبول الفتاة عاملة تبيع مع غيرها من الفتيات ، على أن تبـدأ عملها فى صبيحة الغد . .

وخرج معها الشاب وقال لها فى الطريق :

— بقى على أن أدلك على أحد المنازل الشريفة التى تؤجر غرفاً مفروشة ، وأظنك أيضاً فى حاجة إلى النقود ، وسأقرضك إن شئت شيئاً منها فلاترفضى ، لأن هذا قرض سيرد إلى فى أول الشهر . ولابد من سفرى الليلة إلى القاهرة كما أخبرتك على أن أعود بعد شهر أو نحوه فعساى أن أراك عند عودتى فى أحسن حال ..

وقبل أن يودعها أخرج من محفظته الثمينة بطاقة ناولها اياها وانصرف ..
فقرأت عليها الفتاة : « سمير كرم » ... وما أن توارى عن عينيها حتى رفعت هذه البطاقة خلسة إلى شفتيها ، ثم أخفتها فى جيبها ..

* * *

استغرقت هذه الحماسة فى عمل الخير فترة قصيرة غمرت نفس سمير دون أن يعى .. فهو قد انساق فى هذا النهار إلى عمل الاحسان بدافع خفى سرعان ماتبدد فى نفسه .. فأخذ يعجب بعد ذلك كيف أضاع نهاره مع بائسة لم يرها قبل اليوم ولعله لايراها فيما بعد ! .

لقد ساقت الأقدار التى تعمل من وراء الحجب وتسير الكواكب وتدير الأكوان، ذلك الأخ المثرى القادر ليعين اخته المنكودة الحظ دون أن يعرف أحدهما الآخر .. وهذه الأقدار التى لاتغفل عينها عن الظالم والمظلوم . هى التى

أوحت من قبل إلى جابر عبد الصمد أن يكشف للناس عن حقيقة الفتاة وهو يقصد الايقاع بامرأته فزج بنفسه وبزوجه فى غياهب السجن ليلاقيا جزاء عملها ولو بعد سنين

وعاد سمير إلى القاهرة فشغل عن التفكير فى الفتاة ، وما لبث أن نسيها أما هى فلم تستطع نسيانه .. ولم تكف عن التفكير فى تلك الساعات القلائل، التى سعدت بها معه على الشاطىء .. وأحست أنها تحبه حب الأم أو الأخت ، وتمنت فى نفسها لو كان لها اخ مثله !

وبعد شهرين أو أكثر عاد سمير إلى الاسكندرية كعادته فى التنقل بين العاصمتين . و مر على ذلك المتجر الفتاة ، فهاج فيه شوق غريب إلى رؤياها . وطاف فى المتجر فلم يعثر عليها .. فسأل عنها مديره وموظفيه فأنبأوه أنها رحلت منذ عهد قريب إلى حيث لا يعلمون ! .

الفصل العاشر

١

شيد سمير « فيلا » بديعة أسماها « عش البلابل » بضاحية عين شمس وهى كما نعلم ، المدينة القديمة التى لم يبق من معالم حضارتها وجامعتها غير تلك المسلة القائمة وحدها وسط حقول القصب ..

وأراد سمير أن يتخذ من هذا البيت ملجأ يستريح فيه من التنقل والأسفار والملاهى ، واستعان بفريد وخياله فى « تصميم » الدار وتأثيثها قبل أن يكل أمرها إلى المهندسين ..

ولاشك أن فريدا هو الذى أغراه على بنائها ليحقق بها تلك الامنية القديمة التى طالما اشتهاها وضاقت ذات يده عن الحصول عليها . فلا أقل من أن يحققها سمير وهو الوارث الغنى ، فيستطيع فريد أن يتردد عليها ويرى حلمه يتحقق ..

ولم يتوقع كلاهما أن تخرج هذه القطعة الفنية بمثل هذه الروعة . .

وأحاطها سمير بحديقة واسعة غرس فيها الكروم العارشة فوق ممرات مستطيلة ، وزين سندسها بمجموعات من مختلف الأزهار والرياحين . ونثر فيها أشجار الفل والياسمين والورد الأحمر العطرى . وكذا أشجار المنجة والتفاح والخوخ. وعهد إلى العم عطية البستانى بالعناية بالحديقة وحراسة الدار . . ثم جلب إلى هذه الروضة أقفاصا يعيش فيها السنونو والببغاء والشحرور . وبيوتا أخرى تأوى إليها بعض الغزلان . وكان أجملها عشاً كبيراً للبلابل. ثم ملأ أحواض النافورات المرمرية بالسمك الصينى الاحمر. وكان هناك أيضا طاووس أبيض ذو منقار ذهبي ، يخطر فى الحديقة وعلى الشرفة الواسعة المطلة عليها ، ويتبختر تحت الخمائل صائحا صيحات الفرح والفخار . .

وفى ركن من هذه الحديقة يطل على الشارع قامت حجرة مربعة تسلقت على جوانبها غصون اللبلاب ، وكان لها بابان أحدهما يؤدى إلى الحديقة والآخر إلى الشارع ، هى غرفة العم عطيه، يعاونه فى الحراسة كلب « شيان لو » ذو ذكاء ونشاط خصص له كوخ خشبي أخضر اللون على مقربة من بوابة الحديقة .. وكان المعلم عطيه رجلا أشرف على الخمسين يعيش وحده فى هذه الحديقة ويتردد عليه أحيانا بعض أبنائه المقيمين فى العزبة القريبة . .

وزين سمير غرف الدار بالورق الجميل الألوان وبثريات الكهرباء الفاخرة ، وعرض بها مجموعة من الصور ذات المغزى الشعرى والقيمة الفنية ، وإلى جانب هذه الصور علقت لوحات أخرى زيتية لعدد من المصورين النابهين . فهذا منظر الشروق وراء المقطم ، وتلك صورة النيل ساعة الغروب ، وصورة الكرنك فى ضوء القمر وغيرها . . ثم أتى بمجموعة من التحف والتماثيل المرمرية التى تمثل آلهة الاغريق

والتماثيل الجرانيتية التى تصور آلهة المصريين القدماء . كما جاء بعدد من الآنية الفينقية ،والتحف الصينية ، والأسفار الهندية المقدسة والأطياب العربية،والبسط الايرانية . . وأثث الغرف بأبدع الاثاث والرياش ، واقتنى عدداً من الكتب الخالدة والآلات الموسيقية المختلفة الأصوات والأشكال . .

فجاء «عش البلابل» محرابا يخلب القلب ويفتن النظر، وكان أشبه بطفل وديع ينام مطمئناً بين لمة من الزهور . . وظن سمير أنه سيلجأ إلى هذا المكان كثيراً لتهدأ فيه نفسه القلقة النشيطة ،ولكنهمالبث كعادته أن مل الانفراد فى تلك الناحية الصامتة صمت المقابر ، وهو الذى يعشق الحركة والتنقل وتستهويه حياة المدن وزحامها ومجتمعاتها . فانتقل إلى القاهرة واتخذ له «شقة» بشارع قصر النيل وترك حراسة «الفلة» إلى العم عطية البستانى . .

* * *

فى ذلك الحين كان فريد الجابى منقطعاً للدرس والتحصيل..كان يقرأ بنهم. ويدمن على المطالعة ..كان لا يشفق على عينيهولاعلى بدنه .. كان ينهل من آراء القدماء والمحدثين . . يقطع الليل ساهراً مع كتبه .. وكان يجد فى التفكير عبادة وفى الملاحظة لذة متجددة .. كان يسير أحياناً ساعة الفجر بين الحقول المبتلة بالندى . ويجلس ساعة الغروب فوق قلعة القاهرة ليرى المدينة وهى تتوشح بالظلام ويصعد أزيزها نحو السماء .. كان يجول وحده فى الصحارى القريبةمن الأهرام . ويتسنم أحياناً تلال المقطم ليشرف علىمساحات الرمال الممتدة إلى الأفق.. كان يخطر فى بعض الأحايين فى حقول الجيزة متأبطاً أوراقه وكتبه، ويتفيأ أحيانا أخرى ظل الشجر على ربوة تطل على النيل بحدائق القناطر الخيرية .. وقيل أنه كان يخرج غير مرة إلى الخلاء أيام الشتاء ليسمع قصف الرعد

وعويل العاصفة ويتفرج برؤية المطر وهو يتساقط على ورق الشجر .. وأنه كان يسعى فى قيظ الصيف ليتأمل الفضاء وهو يضطرم ويحس الهواء وهو يلتهب !

وكان يتجدد على مر الأيام ، ويواجه العـالم على حقيقته المجردة ، وأخذت السنون تشفى جراح قلبه ، وآلى على نفسه أن يعيش أعزب ، واقفا حياته على خدمة الناس والفن . معتاضا عن الحب الجنسى بحب العلم وحب الفن وحب الانسانية. فتسامى بعواطفه وميوله إلى آفاق فسيحـة منيرة . وأخذت الليالى توحى إليه أنه أتى إلى العالم برسالة ،عليه أن يؤديها ويتألم بل ويموت من أجلها !

وكأنما كان يكتب بوحى علوى ، وكان يدعو إلى إصلاح بلاده وتجديدها وإلى تحطيم الأصنام القائمة للعبودية بهـا . . كان من أهل الرأى الحر لا يتابع ولا يحابى ، وكان يحمل هموم الانسـانية على رأسه وهذه الهموم تزيده لصوقا بالمجتمع ، فيتحمل من أجـله الهوان والعـذاب . وفى أعماق روحه صراخ هائل محبس، كان يخرج أحياناً كاللهب الرائع . .

وقد تورط فريد فى هذه المهنة ، فكان يحترق ليضىء لغيره السبيل ،ولكن لم يقدر أحد تضحيته ولم يدر عليه عمله الأدبى والصحفى من المال ما يكفيه قوت يومه. .وكان الجمهور فى شاغل عن كتاباته .. وكان «رؤساء التحرير» يحذفون ما شاءوا من سطوره خشية أن يغضبوا المحافظين . . وكان يفاجأ أحياناً بالعزل، فيظل يبحث عن عمل آخر حتى تكل قدماه ..

ومع ذلك فقد شاع صيته، وكثر فى نفس الوقت أعداؤه من العامة والطغاة والمحافظين والأغنياء والرجعيين . .

ودهش فريد حينما رأى سميرا يمل العيش فى « عش البلابل » فكان يذهب وحده أحيانا إلى ذلك الهيكل المزدان بأعمال الفن ويحيا فيه يوما فى جو ملؤه السحر والفن ، تهدأ فيه أعصابه من ضجيج المدينة وصخب الناس . ويبتعد فيه

قليلا عن ذلك القلق الجنونى وتلك الحركات العصبية والملامح الملتوية التى تبدو حوله فى وجوه الناس وأعمالهم .. هناك يقضى وقتا فى الهدوء والصمت والتأمل والقراءة والتمشى فى الحديقة . . وهناك يغوص فى باطن النفس ، ويحاول معرفة نفسه ومحاسبة روحه. ويجتهد فى أن يتخذ لوجهه وجسده ذلك الاتزان وتلك الوداعة والرصانة والهدوء. ليتتطبع بها ، وليقف « مثل برج شامخ هادىء وسط العواصف حيث يتساقط عند قدميه الوف المجانين مثل قش تذروه الرياح » . .

والأيام تمر . . والليالى تتوالى .. والصاحبان فريد وسمير يتابعان المسير فى ناحيتين متنافرتين . . الأول يتطور ويسمو ويناضل ويزداد محصوله واطلاعه . . والآخر يلهو ويعبث مثل طفل كبير ، وينفق من ذلك المورد الذى تعب أبوه فى جمعه فورثه هذا لقمة سائغة لم يبذل أقل الجهد فى أعدادها . وقد ضيع كثيرا مما ورث وباع أطيانه بالسنانية وأنفق على بناء « عش البلابل » وتأثيثه مالا كثيرا ، وأخذ يسرف المال وينفقه بلا حساب على لذاته ورحلاته دون أن يتخذ له عملا يجدد ثروته المضمحلة . . كان الأول يسير وراء مبادئه ويدعو إليها متحملا العذاب، معتقداً بأن الغاية من حياته هى الارتقاء بنفسه وبمن حوله من الناس . والآخر يسير وراء الجسد ويفتش فى الاعماق عن لذات قشيبة ليغرق فى أمتع ألوان النعيم. الأول يمثل الروح القوى المتجدد ، والثانى يمثل الجسد الأنانى الذى يتطلب كل يوم مايشبع نهمه من الماديات الزائلة . .

غير أن هذين السبيلين المتنافرين لم يفرقا كثيراً بين قلبى الصاحبين القديمين كأنما كان كل منهما يجد فى نقيضه ما يكمله . فالحياة روح ومادة ، وشعر ونثر وعقل وجنون . . فكانا يتلاقيان كما يتلاقى الروح والجسد فى كل انسان وكانا يتزاوران مادام سمير فى القاهرة . .

وكان فريد يرتاح أحيانا إلى طيش صاحبه ومجونه ونكاته وقلة اكتراثه لأتعاب الحياة ومشاكلها .. العبث والهذر و « الهجص » هى فى رأيه خير ما تعامل به تلك السخافة الكبيرة المسماة بالحياة ! . الحياة عنده لا تستحق تلك النظرة الجدية ولا ذلك العناء الباطل وهذا الجهد الضائع .. كلها تسير إلى الزوال وتؤدى إلى القبور !. فهو يعيش ضاحكا ماجنا يحمد أمسه ويسر بيومه ويستقبل غده بصدر رحيب ..

وهو يجلس إلى فريد فيقص عليه نوادر المدن وخفايا لياليها المضطرمة ، حيث يباع سحر العيون بحفنات الذهب .. حيث تتعثر الأقدام بالزجاجات الفارغة .. وتغيب العقول عن وعيها فتنسى متاعب الحياة الدنيا ، وتثأر لنفسها من غدر الأيام وتصرفات الزمن .. فى البؤر المستترة حيث تقدم القرابين لآلهة المسرات والمحرمات .. وتعلن الثورة على شرائع الناس وتقاليدهم ومصطلحاتهم .. حيث تتثنى الأجسام الوردية العارية فى أشعة المصابيح ، معبرة عن ميول الجسد وشهواته ، ناعمة فى حرية مطلقة وصراحة مستهترة ! ..

٢

بعد سنوات قلائل ظهرت على مسارح القاهرة وأنديتها الليلية راقصة جديدة ، لم يلبث أن تألق نجمها بغتة فى سماء الفن . خلبت القلوب بفنها الجديد وبرشاقتها المغرية . وقد ذاعت عنها الأحاديث وتندر الناس بقصصها ، ولم يدر حد من أين هبطت ولا كيف ظهرت . .

تلك هى الراقصة « الهام » التى تسابق أصحاب المسارح الكبرى بمصر إلى التعاقد معها . وهرع الناس يتذوقون فى فنها جديداً يثير الاعجاب . وكان ظهورها فى وقت سخط فيه الجيل الجديد على تلك الأنواع المبتذلة من الرقص

البلدى الذى لا يشير فى النفس غير ميولها المنحطة ، وفى فترة ظهرت فيها عشرات من محترفات ذلك الضرب من الرقص الوضيع . .

وكان أن هبط الذهب على إلهام فأثرت بعد فقر وشبعت بعد جوع . وكان أن غزا مسرحها ودارها جيش من مندوبى المجلات ونقاد المسارح يستملونها الأحاديث ويدونون تفاصيل حياتها ، وهى لا تضن عليهم بحكايات يمليها خيالها الخصب ولا تمت إلى الحقيقة بصلة . .

وأكد بعض اولئك المندوبين لقراء مجلاتهم أنها مغرمة بالكلاب والقطط والأطفال.وقال آخرون بل هى تحب العصافير تشتريها فى أقفاصها ثم يلذ لها أن تفتح لها الأبواب فتطير أمامها متمتعة بحريتها .. وذكرت إحدى الصحف المسرحية أن إلهاما تجمع طوابع البريد وتشرب كل يوم كوبا من عصير الطماطم ! وقيل بل هى تقتنى مائة زجاجة من العطور والأطياب وتعزف على قيثارة «هاواى» ألحاناً ناعسة غامضة !

وقد أثارت إلهام فى نفس «الأستاذ» احمد عبد العال اهتماما غريباً ،ووجد فيها موضوعا جديداً يطرف به قراءه.فأخذ ينشر عنها الفصول المسهبة فى مجلته الاسبوعية التى يعالج فيها عدد من الطلبة نقد الملاهى المصرية من مسارح وصالات رقص وغيرها .. وما دمنا فى صدد الحديث عن أحمد افندى عبد العال فلا يفوتنا أن نشير إلى أنه استطاع بفضل ما ينشره على الناس من أنباء الراقصات وأحاديث الممثلات وفضائح الزواج والطلاق أن يشترى سيارة فخمة وعدداً من الأفدنة ، وأن يحشر نفسه فى زمرة أهل الثقافة والفنون ورجال القلم . ولو أنه فى الواقع لا يستطيع أن يكتب فقرة واحدة صحيحة . . ولكنه كان يفخر بفهمه عقلية الجماهير ونظام العرض والطلب ، وهو بمجاراة قرائه وتلبية رغباتهم واشباع غرائزهم،عرف كيف يروج صحيفته . وكان لديه عدد من

مرتزقة الكتاب، ينشئون له المقالات المنمقة فيمهرها باسمه . وهو مع جهله، ظريف المجلس سريع الخاطر ذو كرش مستديرة وشخصية يحب أن يحشرها بين شخصيات الأعيان، فاذا جلس فى «قهوة الفن» التف حوله نفر من صغار الكتاب يلقبونه بالاستاذ ويخلعون عليه «البكوية» وهو ينفث فى وجوههم دخان «الشيشة» فأذا غاب عنهم فهو فى رأيهم أجهل من دابة !

وآلى «الاستاذ» احمد عبد العال على نفسه أن يقيم للراقصة الهام « حفلة تكريم » بفندق سميراميس إذ رأى فى ذلك دعاية لمجلته وبابا يسده ببعض الاعمدة. فدار يجمع الاشتراكات ويدعو أهل الادب والفن إلى ذلك الحفل . وكان يسمع عن فريد أنه كاتب ممتاز فذهب إليه فى جملة من قصدهم . وسأله أن يساهم فى تكريم الراقصة بأن يلقى فى الحفل قصيدة ! . فعجب فريد فى نفسه كيف يقضى هذه السنوات الطوال فى القراءة والكتابة وفى الدعاية إلى تجديد الحياة المصرية واصلاح المجتمع ، ثم يأتيه رجل شهير من أصحاب الصحف ويسأله القاء قصيدة فى حفلة تكريم راقصة .. وراقصة لا يعرفها !. وظهر على وجهه الامتعاض لحظة ثم أدرك أن الرجل بالرغم من جاهه وثرائه لم يزل ذا عقلية أمية ، وسيان لديه كتابة المباحث أو نظم القصائد للحفلات .

— ولكنك لا تعرفنى فكيف تثق بقصيدة ألقيها فى حفلتك ؟

— لا أعرفك ؟ استغفر الله يا استاذ .. لقد ملأ صيتك أنحاء البلد ! .

— فان كنت تعرفنى فكيف لا تعرف ما أشتغل به من الأبحاث ؟

— أنت أدرى يا استاذ فريد بهموم الصحافة ومشاغلها ، ووقتى لا يتسع للقراءة مطلقا ..

— وكيف يتسع وقتى أنا للاشتراك فى تكريم راقصة لا أعرفها ؟

— فاتك أننا لا نكرم راقصة معينة . ولكننا نكرم الفن والنبوغ سواء أكانا

فى راقصة أم فى ممثلة أم فى كاتبة . وأنى لم آت إليك الا لما أعهده فيك من تقدير الفن وأهله . أولست أنت فنانا ؟

— ولكنى لم أر هذه الفنانة ولا فنها حتى أكون لنفسى رأيا قد يخالف رأى الجمهور كله !

— أنها جديرة بأن تراها ! ياللفنانة الفاتنة ، كيف لم ترها بعد ؟

— ومع ذلك فقد أثرت فى نفسى الشوق إلى رؤيتها .. الحق أننى فى حاجة إلى مايثير رواكد وحدتى بمثل هذه السفاسف ، ومن يدرى فلعل فلسفتكم فى الحياة أفضل من فلسفتى !

— إذن فألى اللقاء غدا فى قهوة الفن ، وسأحظى برأيك أتحف به قرائى !

٣

فى تلك الليلة كان فريد منكمشا فى مقعده بمسرح الكورسال بشارع عماد الدين وسط مئات الناس الجالسين فى صفوف منسقة ميممين بوجوههم شطر ستار لم ترفع بعد ، يتحدثون ويتهامسون ويتلفتون حولهم ، ويصعدون أبصارهم إلى المقصورات المزدانة بأسراب الحسان ، تدور عيونهم كصابيح المنارات فى جوانب القاعة..

وترك لأفكاره العنان ومرت بذهنه خواطر تترى : لماذا حضر إلى هذا الجو الصاخب المحبوس ليلزم مقعده بضع ساعات وسط جموع متعطشة إلى اللهو والعبث ولكن أليس هو مثلهم فى حاجة إلى ساعات اللهو والنسيان؟ فلينس نفسه وأفكاره برهة ولينعم بهذا الفراغ .. لقد حضر الليلة ليلهو برؤية الراقصة ..ثم ذكر احمد عبد العال وكيف أتى ليدعوه إلى تكريمها معه .. فضحك من نفسه وعجب لذلك

الحياء الذى يلازمه أحيانا فلا يرد سائلا ولا يخيب رجاء انسان .. إنه يحس الآن بشيء من التعب .. إنه يجهد نفسه ويضنى جسده ويتعب عينيه بتلك المطالعات والكتابات.. والكتب أمامه بحر لا قرار له ونبع لا ينضب معينه.. ماذا يهيىء له القدر من وراء ذلك المجهود الضائع الذى يتحمله فى سبيل الناس وهم فى شاغل عنه؟ من منهم يهمه حياته أو موته ؟ إنه يحترق ويذوب كالشمعة .. ها هو جالس بين الجموع ولا يحس بوجوده انسان .. يا لحاجته إلى الراحة الطويلة يقضيها لاهيا طافراً كالطفل ، وسط المروج الفسيحة وعلى سفوح الجبال ، حيث ترقص الطبيعة عارية .. كان خليقا به أن يلزم فراشه ليريح أعصابه المكدودة .. وهذه الراقصة ما له ولها ؟ من تكون؟ ثم لماذا يضمر هؤلاء الناس فى أعماق قلوبهم أحتقاراً للرقص ومحترفيه ؟

ثم نظر فريد إلى ساعة صغيرة فى معصمه وعاد فاستوى فى مجلسه، وانسابت خواطره ثانية متلاحقة كأنما كان ينشىء مقالا : كل هذه الجموع أتت لترى الراقصة ! . ولكن أليست الحياة مرقصا ؟ . وأى إنسان لم يرقص فى جميع أدوار حياته طربا أو ألما ؟ . بل أى حيوان أو طير أو غصن أو زهرة لم ترقص وتترنح ألوف المرات قبل أن تموت ؟ وأى فرق بين فنون الرقص والموسيقى والشعر والتصوير ؟ أليس الرقص شعراً متحركا يصور ما انطوت عليه النفس من عواطف ووجدانات ؟ . منذ أن دب الانسان على هذه الارض وهو يرقص ! . رقص فى طور الوحشية كما رقص فى عصور المدنية . إذ كان الرقص حاجة من حاجات الجماعات لا ضرب من الرفه والكماليات ! ونحن لم نحتقر هذه النزعة الفطرية إلا حينما ابتذلت وتسفلت أخيراً لا سيما فى بعض ربوع الشرق إبان انحطاطه .. فخرجت عن مغزاها وطبيعتها إلى ناحية أخرى هى تمثيل الكسل والتراخى ،

وإثارة الغرائز الوضيعة ، واتخاذها مسحة البغاء لا مسحة الفن والجمال .. ولذا فنحن هنا لا نستطيع أن نتصور كيف كان الملك المصرى اسرتسن يرقص أمام الاله امسو . أو لماذا كان سيتى الأول يرقص أمام الاله سخت ، والملك بيبي الأول أمام أوزيريس ، وداود النبي وهو يرقص أمام رب اسرائيل مع أصوات البوق والرباب والصنوج ..

وكأنما خال فريد نفسه جالساً إلى مكتبه فى الجريدة فاستمر يتمتم : إن قدماء المصريين كانوا يقدسون الرقص و الغناء ويعدونهما من لوازم الطقوس الدينية والاحتفال بالآلهة داخل هياكل طيبة ومنف وهليوبوليس ، بينما كانت هياكل أورشليم وبابل ، ومعابد بعل وعشتروت تدوى جنباتها أيضا بنغمات الموسيقى والرقص أمام المعبودات .. والاغريق أيضا أهل الحكمة والفنون ، ألم يفتنوا فى الرقص ويجعلوا منه فنا مقدساً يمارسه المصلون فى الهياكل المرمرية ؟ ألم يتخذه شبابهم وشيوخهم رياضة للجسم وترويضا للنفس وبعثا للحركة ؟ لقد كان له عند هؤلاء الناس تلك الروعة وذلك السحر ..

***

ووقفت خواطر فريد فجأة حينما طفئت الأنوار ، ودوت نغمات « الاوركستر » فاعتدل فى جلسته وتطلع إلى الستار وهو يرفع عن منظر رائع ..

وبرزت الراقصة الهام فى وسط المسرح ، وانعكست الاضواء على جسدها الوردى الساطع كالحرير ، وقد انسجمت خطوطه ، وتجمعت فيه كل عناصر الاغراء .. وبدأت تتحرك كالنسيم وتسيل كالماء وتشتد كالزوبعة بساقيها البديعتين ، وقدها المشوق ، وأطرافها الدقيقة وكتفيها العاجيين ، وصدرها الممتلىء الناضج . وكأنما كانت إحدى عرائس الفنون التسع !

كانت فى رقصتها الأولى تمثل الرقص الفرعونى ، وكانت فى لباس رقيق تسير برشاقة متناهية وتتعبد أمام الآلهة فى هيكل مصرى مزدان بأعمدة الجرانيت وتماثيل الأرباب . بينما كانت الموسيقى المصرية تملأ الجو بالسحر والرهبة..

ثم خبت الأضواء واسدل بعض الستائر ،فظهر منظر قاعة مصرية بعث فيها بعض المصريين بلباسهم القديم ، رقص بعضهم بحركات عنيفة تقترب من الحركة البهلوانية وبدت الهام فى رداء آخر ترقص وتتلوى بنشاط وسرعة ..

ثم تبدل المنظر وعادت الهام إلى المسرح ثانية ، تمثل الفراشة وهى تتطاير بجناحيها المتلألئين فى ضوء الشمس ، تعلو وتهبط فوق الزهر ، ولا تكاد تمس زهرة حتى تجفل وتنتقل إلى أخرى.. ثم عادت فى رقصة رابعة إلى تمثيل النعامة وهى تسرح فى الفيافى،ثم وهى تتلوى من الألم ثم تحتضر ثم تموت . مع نغمات الموسيقى المتطايرة كالأحلام ..وعادت إلى رقصات استلهمتها من التاريخ فمثلت شالومة وهى ترقص أمام هيرودس وتطلب رأس يوحنا. ثم مثلت كليوبترة وهى تنتحر قبل أن تستسلم لأعدائها..ثم تجلت أخيراً بين طائفة من الحسان يرقصن رقصة الشياطين وسط لهيب الجحيم ، فـدوت مع رقصاتهن الطبول والصنوج . وكانت إلهام تخطر بينهن كالطيف مرتـدية ملابس سوداء وواضعة قرنين على رأسها وذيلا كالثعبان وراءها ..

كان جسدها فى كل تلك الرقصات يتمشى كله كاللحن المـوسيقى ، وكانت فى مرونة قدها ،وامتداد قامتها ، وانسجام جسمهـا ورشاقة حركاتها : شبيهة بديانا إلاهة الصيد والقنص .. كانت تتحرك وتطـير وتسبح مع الموسيقى ، تارة مثل أمواج البحر وأخرى كتدفق الينبوع،وحيناً كترنح الغصون وحينا آخر كاهتزاز لهيب النار .. كانت تتكلم بساقيهـا ،وتفصح عن عواطفها التمثيليـة بقدميها ، وتعبر بحركات الجسم كله وبالموسيقى التى تسبـح فيها تلك الحركـات عن أدق

المعانى ، وأسمى الاتجاهات النفسانية وتموجات العاطفة وتجلى الأحلام ..

أما فريد فمنذ أن ظهرت إلهام على المسرح فى رقصتها الفرعونية الاولى وهو فى حال من الذهول والدهشة .. فأخذ يغمض عينيه تارة مستسلما لغيبوبة الحلم، وتارة يرمق الفتاة التى تتحرك أمام عينيه كأنما يرى شبحاً خرج إليه من وراء القبور ! . عادت إلى ذاكرته صور عهد قديم يثير الألم والحنين . وكان هذا العهد قد توشح بالضباب. فاذا بهذه الرؤيا الجديدة تحرك فى روحه سواكن كانت الأيام قد سحبت عليها أذيال الغموض . .

وأيقظه مرارا تصفيق حاد دوى فى أذنيه فأخذت أنفاسه تتردد سريعة وأخذ ينظر حوله إلى المصفقين ثم إلى المسرح فيرى الفتاة تبسم للجمهور وتحييه ، وهذا يزداد ضجة وحماسة ..

كانت فى رقصتها المصرية الاولى ايزيس بنفسها حين رآها لأول مرة تخرج إلى شرفة منزلها بالفيوم .. هى ايزيس بعينها بعثت من القبر ولم يعهدها من قبل ترقص أمام الجماهير .. هى بقامتها الممدودة وقدها الممشوق وعينيها الساحرتين وفمها الساهم الدقيق وابتسامتها المشرقة ، وشعرها الأسود الغزير ، وهى بعينها باشاراتيديها وبسكناتها !

لعله يحلم ! لكنه عاد إلى نفسه فذكر أن بين الناس كثيرين ممن يتشابهون فى الملامح والمظاهر شبها قد يثير الدهشة ويسبب الالتباس . لقد سمع عن أناس ذهبوا ضحية مشابهتهم لغيرهم ، وعن آخرين انتفعوا بتلك المشابهة ..قرأ عن بعض الملوك الذين كانوا يسخرون شبيههم فى مناسبات كثيرة .. وكثيراً ماصادف شخصا يمقت آخر لالسبب غير مشابهته لعدوه وآخر يحب شبيه من يهوى.

هذه الخواطر أعادت إليه شيئا من هدوئه . ورأى أن هذه الراقصة ليست بالطبع سوى فتاة أخرى لا تجمعها بايزيس غير المشابهة الجسدية ..

وانتهت السهرة فى منتصف الليل . وعاد فريد إلى منزله . ولـكنه لم يستطع أن يبعد عن مخيلته تلك الرؤيا التى تجلت له فوق المسرح ، وقضى ليلة مضطربة أقلقت راحته فيها شتى الهواجس . .

وفى مساء اليوم التالى قابله احمد عبد العال وبادره بقوله : هل رأيتهـا ؟ ألم أقل لك إنها نابغة ؟ انظر ما جاء عنها فى مجلتنا لمندوبنا الفنى !

فتناول فريد المجلة ، وإذا بصورة الهام تطالعه وسط مقال طويل ، فعاد إلى ذهوله وسمع هاتفا فى نفسه يقول : هى بعينها ، إنها صورة ايزيس الحبيبة !

وسأله احمد افندى عن القصيدة ، فأجابه : إنى سأحضر على شرط أن تعفينى هذه المرة من الكلام ! فقال : على رسلك ولنرجىء القصيدة إلى منـاسبة أخرى!

الفصل الحادى عشر

١

التحقت انعام بمخازن شالون حيث قادها سمير لتـكسب عيشها كبائعة فى قسم الجوارب . . وكانت لاتدرى من هذا العمل شيئا ، لـكنها كانت فى مبدأ أمرها تستعين بزميلة على جانب من الذكاء والظرف تقف على مقربة منها، وسرعان ماارتبطت الفتاتان بأواصر الود والصداقة . فأخذت تلك الزميلة ترشدها إلى ماتجهله من عملها الجديد . كما أخذت تصحبها فى أوقات الفراغ وأيام الآحاد إلى أنحاء الاسكندرية فطافتا معاً على «البلاج» وفى حديقـة « النزهة » وفى المـكس والرمل . ثم صحبتها إلى دور التمثيل والسينما وردهات الرقص . وهنا استيقظت فى نفسها تلك النزعة القديمة . وزاد ذلك الميل إلى الرقص اشتعالا

عقب سهرة قضتها مع زميلتها فى مشاهدة راقصة شهيرة بمسرح الحمراء .. ولم يعد يهدأ لها بال فى غدوها ورواحها ولا فى نومها ويقظتها .. وأخذت تحلم بأن تكون راقصة شهيرة وكوكبا من نجوم المسرح ..

وهنا أخذ ذلك المتجر الذى تعمل فيه يتراءى لها كسجن جديد زجتها فيه المصادفات .. سجن يقيد روحها المتمردة التى تحن إلى الانطلاق والحريه .. واشتهت مغامرة جديدة تشفيها من هذا السأم وتحقق لها أحلامها .. وباحت لصاحبتها بتلك الامنية التى تقض مضجعها ، وهى أن تصبح راقصة شهيرة ، فسخرت هذه من ذلك الأمل الغريب . ولكنها عجبت لما رأتها تهجر عملها وتحتجب عن الانظار ..

وفى ذلك الحين أخذت الفتاة تتلقن مبادىء الرقص فى احدى المدارس الصغيرة . ثم عرضت نفسها على بعض أرباب المسارح فرفضوا طلبها . وكانت كلما تطلعت إلى المستقبل الباسم وتخيلت ما وصلت إليه «أنا بافلوفا» من مجد ، زادت حماستها ، وبات السفر إلى أوربا حلمها الذهبي القديم يشغل بالها .. هناك حيث تتلألأ أنوار المسارح وتسير نجوم الفن كما تتخيلهن فى سبل مفروشة بالتبر والرياحين .. لقد رأت صورهن وعرفت عن بعضهن أشياء كثيرة واتخذت من كواكب « هوليود » أمثلتها العليا . وأخذ بريق الشهرة يبهر بصرها ، ومظاهر المجد والترف والاستقلال والحرية تتراءى لها فى كل لحظة ..

وقد شاء حظها أن تقع فى عين المنسيو ديفال صاحب مسرح الحمراء بالاسكندرية ، وكان هذا كهلا فرنسيا طيب القلب . ماتت زوجه منذ سنين ولم

ينجب أولادا ـ وظل وحده يدير مسرحه فى الشتاء ويرحل إلى بلاده فى كل صيف .. وقد أثرت فيه فتنتها ويتمها وشغفها بالفن ـ ورأى بثاقب نظره أن مواهبها تبشر بمستقبل باهر يمكن استغلاله فى مسرحه ـ فاتفق معها على تدريبها لتكون نجم مسرحه فيما بعد ـ ورأى أن يتعهد نبوغها الدفين حتى يخلق منها الفنانة التى ينشدها ، وصحبها معه إلى باريس .. وهكذا حققت الفتاة حلمها القديم فركبت البحر ، وانطلقت نحو المجهول ، وغامرت فى سبيل المجد والشهرة ..

هناك أدخلها اكاديمية الرقص ، فتجلت مواهبها ، وتقدمت تقدما سريعا باهرا .. ووجد فيها الشيخ أنيسا ملأ خريف حياته بالبهجة والعزاء ، فلم يضن عليها بما ترغب وبما تشتهى .. وكان يصحبها إلى مسارح باريس وملاهيها ـ ويريها فن شهيرات الراقصات والممثلات . وبقيت انعام بمدينة النور نحو ثلاث سنين تفوقت فيها باستعدادها ومواهبها على كثيرات غيرها ممن قضين طوال السنين فى ممارسة الرقص . وكان الرجل يأتى كل صيف إلى باريس فيزداد اعجابا بتقدمها ورشاقتها. وأخيراً عادت معه إلى الاسكندرية وقد اكتسبت فوق فنها أناقة وظرفا وكياسة .

وتألق نجمها على مسرح الحمراء مدة عام كامل مات الشيخ بعده وبيع مسرحه ، فرحلت إلى القاهرة وظهرت بغتة على مسارحها الكبيرة . واتخذت لها اسما جديداً هو «الهام» فذاع هذا الاسم ، وانبسطت لها مناعم الحياة وذاقت حلاوة الكسب . وكان أن رآها فريد فى تلك الليلة من ليالى رقصها ـ فغيرت رؤيتها مجرى حياته إذ رأى فيها صورة ايزيس حبيبته وتمثالها الحى ، فقد كانت تشبهها شبها عظيما ..

٢

لم ترفض الهام الحضور إلى تلك الحفلة التى نظمها احمد عبد العال ـ لأنها

رأت فى هذه المظاهرة اعترافا بنبوغها ووسيلة للاعلان عن نفسها، كما كان فيه ارضاء لغرورها وهى التى تسعى وراء المجد والظهور.

وقد لبى المدعوون هذه الدعوة وانتظمهم مجلس طريف. وظهر حول مائدة الشاى عدد من النقاد والشعراء والممثلين والممثلات، والموسيقيين والراقصات. وكذا عدد من صعاليك الصحافة وقد علق بعضهم فى رقبتـه «ببباغا» كبير أسود، وأرخى البعـض شعره وجلس آخرون يتحادثون بتؤدة وتكلف ، يدور همسهم حول جهل الكتاب والشعراء جميعهم !

وجاء فريد الجابى يسعى إلى مكان الحفـلة وبدا فى ذلك المساء أنيقا يدل مظهره على الجاه. وتصادف أن كان مجلسه بالقرب من الهام، فاستطاع أن يحادثها ويسمع صوتها الحنون ، وقدمه إليها عبد العال وشفع اسمه كالعادة ببعض عبارات الاطراء المألوفة ، فرآها تبتسم وسمعها تتحدث وكاد يسألها : ألم ترنى من قبـل ؟ وبعـد أن تناولت جماعتنا الشاى والقيت غرر القصائد والخطب ، تفرقوا. وخرج فريد من المكان شاعرا بعاطفة مبهمة جارفة تجذبه نحو الهام ، تكاد تكون حبا أو هو صدى حب ! فهو حب ايزيس الذى توارى فى مجاهل نفسه قد بعث وهب مرتديا حلة قشيبة !

بدأ يقدرها تقدير الراهب لايقونته والعابد لتمثال معبوده. وكما أن نور الشمس ينعكس على وجه القمر فيكسبه روعة وبهاء ، وكما أن صفاء المرآة يعكس فتنة الحسناء فلا يفرق الخيال عن الحقيقة ، كان فريد يرى فيها شبح ايزيس وقد نفخت فيه نسمة الحياة فاستوى انسانا حبيبا !

لقد سمع عن رجل جن غراما بتمثال الاهة من المرمر كان يضعه أمامه كل ليلة ويسجد قدامه بخشوع ! وسمع عن شاعر كان يضع أمامه صورة امرأة مجهولة خلقها خيال مصور وكان يستوحيها أرق الشعر وأعذب النسيب. وسمع عن راهبة

جنت غراما بتمثال السيد المسيح . وها هو ذا يعشق تمثال ايزيس الحى !

هذه الصورة الحية لايزيس سترقص كل ليلة نصف عارية أمام الجماهير ولن يرى أكثر النظارة فيها سوى انثى جميلة تبيع الهوى .. وسيدنسها العامة بألسنتهم المفترية ونظراتهم الجائعة .. وكم من أفاق سيلوث سمعتها بأباطيله كما يعبث المعتوه بقيثارة جميلة ، وسيقرأ فريد ما يكتبه عنها صغار النقاد من السخافات ، وسيرى بابها يطرقه صعاليك الأغنياء ينثرون عند قدميها الذهب ابتغاء مرضاتها .. وهكذا ستصبح فريسة الاثرة . وستنقاد بضعفها الأنثوى إلى الهاوية . فاذا ولى الشباب وزحفت الشيخوخة إلى جسدها الغض فلن تلقى يومئذ خدنا ولا رفيقا !

أخذ فريد يفكر فى شئون الهام وخيل إليه أن عليه واجب المبادرة إلى حمايتها إذ هى فى حاجة إلى رجل مخلص يشد أزرها فى هذا الوسط الصاخب . ولكن أى حق يخول إليه التطوع إلى مساعدتها وهى لم تسأله معونة ولا حماية ! . لن يكون فى عينها غير واحد من ألوف المعجبين والمتطفلين الذين تضيق بهم ذرعا .. إنها ستشكره بابتسامة حلوة متى قدم إليها أية خدمة .. ولعلها تقبله فى دارها ضيفا مكرما ثم تشيعه إلى الباب لتستقبل غيره .. إنها لن تصدق كل مايقوله الرجال، وقد سمعت منهم ألوان الثناء وكلمات المديح والاطراء وعرفت أنه كلام مكرر زائف .. ولا بد أنها تتغابى وتبين لهم من وراء ابتساماتها أنها لا تصدق أكاذيبهم !

ولكن أليست هى امرأة ؟ . أليس لها كما لسائر النساء قلب حساس وعاطفة وثابة ؟ إنها ولا شك قد بحثت وما زالت تبحث عن العاطفة الصادقة ولا بد أنها ستجدها . ولا بد أن خيالها قد صور لها منذ زمان مثلها الاعلى .. ثم أى مرأة تستطيع العيش بلا حب ! . لا بد أنها غامرت وسط المجتمع واكتسبت

عديد التجارب من اختلاطها بالجماهير ومحادثتها لعديد الرجال.. لا بد أنها سمعت الألسنة تعرض عليها الصداقة بل الحب بل الزواج .. ولاسيما من ذلك الصنف الذى تغلبه العاطفة الوقتية فيرغب فى الاستئثار والامتلاك السريعين .. ولكنها لم تر فى أولئك العارضين ولا شك، من يحقق ذلك المثل الأعلى الخفى الذى تضمره وهى تخشى أن يكون مثل هذا الزواج المعروض ، حتى من أصحاب الذهب، حماسة وقتية زائفة .. وهى من ناحية أخرى فنانة وهبت حياتها للفن - الفن الأنانى، الذى ينشد الحرية والاستئثار بالفنان ولا يرضى بسجن الجسد ولا بسجن الروح. إنها لا تبيع حريتها وفنها رخيصين لمثل هؤلاء الطلاب - إنها تنعم فى جو من حرية الروح والجسد - ولديها فى بيتها كما يقال كلب جميل وقطة وعصافير تغرد ، وقد سكبت عليها عاطفة الامومة الصارخه فى كل قلب انثوى ..

لا بد أن التجارب علمتها كيف تتقى أثرة الرجل وهى تحذره ولو دل مظهرها على الظرف والوداعة ..

لا يعلم أحد غيرها أنها قابلت فى يوم من أيامها السود شابا ملك فؤادها بكرمه ونبله ووسامته ! لقد أعانها أبان شدتها ووجد لها عملا ومأوى ، وأقرضها مالا فى وقت كانت أحوج فيه إلى المال - ولم يسألها على كل ما فعل أجرا . لقد شغل أفكارها طول تلك السنين - ولكنها لم تره منذ ذلك الحين - فقدته ولم تفقد ذكراه ولم تنس جميله - ولو صادفته اليوم لردت إليه ذلك الجميل ولاتخذته صديقا وفيا - ولكن ، أين تجده وهو لو رآها اليوم لما عرفها ولما تذكرها !

وفى اليوم التالى بعث إليها فريد بأحد مؤلفاته ، وكان فيه كلام كثير عن الفن وأهله ، وشفعه برسالة رقيقة فيها اطراء واعجاب. فبعثت إليه تشكره بكلمات قليلة خالها فريد دررا ، ثم وجد نفسه يسعى كل ليلة نحو مسرحها لمشاهدتها - وكان هذا يكلفه كثيرا مما لا طاقة له به ..وفى ليلة عزم على الذهاب فلم يجد لديه

مايكفيه ،ومكث برهة يفكر فى أمره ولم يشأ الاقتراض ،ولـكنه تذكر أن لديه شيئا يبيعه ، وحدثته نفسه أن هذا الشيء لا ينفعه مادام مخزونا ،فقام إلى صندوق صغير كان يخفيه منذ سنوات ، وحينما فتحه ثارت فى نفسه ذكريات قديمة غمرته بالحزن،إذ ذكر أمه التى كانت تتعذب فى حياتها وتصمد لها ثم ماتت بعدأن قاست كثيرا . وأخذ من الصندوق سوارا ذهب به إلى « الصـاغة » وعاد منها بمبلغ استطاع أن يذهب به ليالى أخرى لمشاهدة الهام فى مسرحها ..

وعاد فريد يوماًوفتح كتاباً فلم يفهم ما كان يقرؤه وأخذ قلماً ليكتب فلم يتحرك قلمه ، وكانت الهام تطالعه فى صفحات الـكتب وترقص أمامه بين السطور فأخذ يحدث نفسه :

— ويحى ، قدعادت المقادير فوضعت فى طريقى امرأة تحبس أفكارى كلها فى فكرة واحدة ، وقد رجعت فجأة إلى الوراء مثل غر فى العشرين يطير فى ملكوت أخيلته ويزحف على أعتاب حبيبته ! ألعلها تلك الغريزة الجنسية التى تطغى على خلايا الجسم كله هى التى تطرقنى متنكرة لتعبث بأفكارى وتلهينى عن عملى وتلهب فى دمى جمرة من الجحيم ، لقد خلت انى تساميت بهـذه الغريزة التى تشغل أفكار الناس وتطغى على أعمالهم ، فاذا بى اليوم أسيرها وإذا بها تتشكل أمامى بصور غريبة ومعان لا تخرج فى النهاية عن حب المرأة وامتلاك المرأة ..أم لعل من يخيب فى حبه يتجه بعواطفه نحو مخلوق آخر ؟

لم تعد الفلسفة ولا مئات الكتب التى قرأتها تستطيع انقـاذى من ورطتى . فأنا مهزوم ، ضعيف ! أعترف بضعفى وأتمرغ عند باب امرأة .. راقصة ..تتعرى أمام الجماهير كل ليلة لترضى أنانيتها وتنال مشتهـاها من الشهرة وحب الظهور ، امرأة ضعيفة تستهزأ بضعفى وتتلذذ باذلالى . وها أنذا ألقى بعملى ومبادئى جانبا لأسعى وراء الراقصة . وغداً أسخر مواهبى، لا لأكمل رسالتى فى الحياة بل لأظفر برضى

تلك المرأة واستأثر بها من دون العشاق والمعجبين. وسأشعر بلذة الانتصار حينما أراها تخضع لى فى النهاية وتفضلنى على الآخرين ! فعلى أن أعترف بأن العاطفة التى تسير الناس تسيرنى أيضا ذليلا، وما أنا بين يديها غير صنم من أصنام الالاعيب! فاذا كانت المرأة خيال الرجل والرجل حلم المرأة أفلا أستطيع بارادتى أن أنتصر على عواطفى وأقهر غرائزى كما قهرها البوذه والمسيح من قبل ؟ ألا أستطيع أن أتحرر من ربقة العاطفة وأن أحيل هذا الدم الحار الذى يجرى فى عروقى إلى لهيب وحماسة يدفعاننى إلى التضحية فى سبيل مبادئى ؟

٣

وأخيرا دعته الهام إلى بيتها فى إحدى ليالى راحتها فهرع إليه. وإذا بهمنزل صغير فى «حدائق القبة» تحوطه حديقة صغيرة.. وقاده بخيت خادمها النوبى الحالك السواد إلى « الصالون » ثم تركه وخرج. وهنا لقى نفسه وحيدة فجلس على أحد المقاعد الوثيرة وأخذ نظره يجول فى أنحاء الغرفة وكانت ذات لون أزرق شاحب ذات ستائر سماوية اللون ، وضع فى صدرها تمثال ابوللون منحوتا من مرمر «بنتليك» وقد علم أنها تراه فى قوته وجماله والوهيته مثلا أعلى للرجولة. وزينت الجدر والمناضد بعدة صور لانا بافلوفا وهى تمثل موت البجعة ، وارجنتينا الاسبانية فى احدى روائعها القومية ، ومدام اوريا فى دور «سيرس» ، ومونا بايفا وهى ترقص عارية فوق الا كروبول ، وايزيدورا وهى تطير مع غلالتها الحريرية فى الهواء ، وماريه تاليونى وهى ترقص فى رواية فتاة الدانوب. ورأى فوق البيانة ثلاث صور لها تمثلها وهى ترقص بين أعمدة الكرنك وبجوار فوهة فيزوف وبين أعمدة هيكل بوسيدون بجهة «سونيون» الاغريقية.. ورأى على منضدة صغيرة باقة من الورد الأحمر فى أناء من بلور سيفر،

وجمجمة ميت ، وجعرانا قديما ، وكتابا عن سيرة بافلوفا وفنها ..

في هذا الصالون الانيق كانت تستقبل الهام ضيوفها العديدين، وتقيم الأعياد، وفيه كان يجتمع فى بعض الليالى الصافية نفر من الشعراء والممثلين والموسيقيين ، وفيه كان يجلس فريد الجابى فى تلك الليلة لأول مرة، ويقف عند كل تحفة متأملا . .

وبعد لحظة أشرقت فى الغرفة ابتسامة إذ أقبلت الهام مهندمة أنيقة، تلمع ابتسامتها على ثغرها الحلو وتشع عيناها ببريق خالب ، ومدت إليه يدا لينة محيية، ثم جلست على مقعد مواجه له تحفها الوسائد الحريرية ، واستلقت قليلا فى مقعدها فظهرت ساقاها الناصعتان. وبرز قليلا صدرها الناهد المرمرى وتدلى على عنقها الناعم شعرها الغزير المنضد ، ودخل بخيت بالقهوة المصرية فى فنجانين ثمينين، وبدأت الهام الحديث عن حفلة التكريم وكانت تشفع ملحوظاتها بالنكات والضحكات الفضية لاسيما عن عبد العال صاحب الدعوة ، فقد كان أنفه الشبيه بالمنقار وكرشه الشبيهة بالكرة من مباهج الحفلة .. ثم قدمت إلى ضيفها سيجارة مصرية وتناولت سيجارة أخرى، فنهض فريد وأشعلها لها فاقترب من وجهها المشرق وبهره ضوء هاتين العينين اللتين تبعثان السحر والفتنة وكانتا فى هذه اللحظة قريبتين من عينيه . ثم أخذ الدخان ينعقد حولها ويؤلف غمامة شفافة رمادية اللون زادتها اغراء .

على هذا «الصالون» أخذ فريد يتردد على صديقته الجديدة ، ويقضى معها ساعات هنيئة يتناولان فيها شتى الأحاديث . وقد دعته لتناول الغذاء على مائدتها غير مرة ، فشعر أنه لم يعد يستطيع الانفصال عنها ، وأحس بقوة تدفعه إلى الاستئثار بها وحده ، وبغيرة من أولئك المعجبين الذين يغمرونها بالهدايا ويتملقونها بمعسول اللفظ ، وهى تبتسم للجميع وتلاطف الكل وتتقبل المجاملات

بشكر ودعة ، إذ كان الجميع فى عينيها سواء . ولم تكن لتكره أحداً أو تحب أحداً !

وكان حديث فريد يروقها بل يسحرها .. كانت فيه نغمات جديدة على مسامعها .. كان مثل خرير الماء المتدفق من نافورة مرمرية يعلو فى الهواء ويهبط ويتشكل ملوناً بألوان قوس قزح .. كان صوته يبدو لها أحيانا كأنما يخرج من أعماق الابدية ، و كثيراً ما خلت فى فراشها تفكر فى تلك الأحاديث الشيقة التى تنتقل بروحها من سماء إلى سماء .. كان يعرف كيف يثير انتباهها بملحوظاته وحكاياته وكيف يضحكها بنوادره ودعاباته . ويخلق فى مجلسه الهادىء الوديع ذلك الجو الذى تتجمع فيه أشتات نفسها القلقة وأعصابها المكدودة ، من فرط السهر والرقص و الزحام والضجيج .. كان لا يطمع من زيارتها فى أكثر من التحدث إليها والاصغاء لها .. كانت أفكاره منطقية متزنة تلقى فيها كثيراً من الحلول المقنعة لمسائل حياتها .. كانت بديهته المطاوعة وخاطره السريع تميزه عن ألوف الشبان الذين حادثتهم .. كانت ترى فيه عبقرية تتجلى وتستتر ، ووراء تلك العبقرية روحانية تفيض من نفسه على من حوله . وشاعرية تسمو فوق الماديات التى ترهقها ..وهو فوق ذلك يستحق لديها العطف ، لأنه شاب وحيد ولا أهل له .. وليس من ذوى اليسار بل هو فقير يصارع الحياة ولا يشكو ولا يتبرم .. شاب كيس يخفى وراء بسماته تاريخا غامضا مليئا بالأشجان والآلام .. وهو فوق ذلك لا يحاول أن يأخذ من الحياة أكثر مما يعطى .. وعيناه ! إنها ترى فيهما قوة مبهمة تمغنطها .. قوة جارفة تنبثق من روح هذا الفتى الغريب فتجعلها أمامه تلميذة تأتمر بأمره .. ثم ملابسه القاتمة ومنظاره المستدير وتلك الشعرات البيضاء المنثورة فى سواد شعره الغزير ..

أما حديثها فكان فى مسامع فريد كالماء المتدفق الرقراق .. كانت تثرثر وتقص عليه شيئا عن باريس ولياليها ومسارحها .. وتحدثه عن انه بافلوفا حين

رأتها لأول مرة وهى ترقص وتسبح فى الاثير .. وعن أملها فى أن تصبح فنانة عظيمة مثلها. أو أن تشد رحالها إلى هوليود لتصبح كوكبا عالميا من كواكب السينما.

وأصبحا صديقين حميمين ، وربط اليتم والوحدة بينهما بأواصر قوية .. فتحدثا غير مرة عما لقياه فى صباهما من شدائد ومحن..

وكان فريد منذ عرفها يحس فى مجلسها بسحر يعيده إلى الماضى المتوشح بالغيوم . فيرى ايزيس أمامه تتحدث وتبسم وتتحرك وتعود إلى الحياة فى صورة جديدة . ولكنه وجد أخيرا أن تلك المشابهة لم تعد كونها مشابهة جسدية حتى فى نبرات صوتها وبريق عينيها . ولكنهما كانتا على اختلاف كبير فى الطباع والصفات وصور النفس ..

لم تكن الهام بالفتاة الوديعة الساذجة إذ كانت لا تخلو من المكر والحيطة . وكانت يقظة متنبهة ، اكتسبت بتجاربها الذاتية من كفاحها فى الحياة مزاج الرجال فى الجرأة والاستقلال والتنبه وحب المغامرة .. وكانت تحس أكثر مما تدرك ، وفى احساسها لا تقيد نفسها بعاطفة واحدة ، بل تفتح قلبها لشتى الاحساسات ، وهى فى ذلك متلونة متقلبة فيها كثير من استهتار الطفولة وعبثها ..

وكانت تعبد الجمال وتقول إنه علم يجب الاحاطة بأسراره وخفاياه كسائر العلوم . وهى تقدس المال لأنها ذاقت الحرمان والجوع طويلا ، فرأته وسيلة ذات قوة ونفوذ . وهى التى تعجب بالقوة وتبجلها ولكنها فى ايمانها بالقوة تحن إلى ممارستها . فللجمال فى رأيها جبروت وللانوثة سلطان . والذهب بين يديها صنم معبود لكنه يدفع ثمنا لعبادته ! فهى ترفعه إلى رأسها ثم تدوسه بقدميها . وهى تصونه اليوم كالسر ثم تبعثره غداً فيصيب منه الشبعان والجائع .. لم تحفل بالمال ولم تدخر منه شيئا لغدها وهى تجهل ذلك الغد وقلما تفكر فيه . كما أنها تناست ماضيها ،

ولم تفكر فى غير حاضرها وما يأتى به من جديد ..

وفكر فريد مراراً فى أن يجعل صلته بها صلة صداقة عادية،فيزورها فى أوقات فراغه . ولكنه شعر أن الايام لا تزيده إلا تخبطا فى القيود، كنحلة وقعت فى نسيج العنكبوت. وقد جعله تكرار الزيارات كما صيره قلبه السخى بالعاطفة شديد التعلق بها ..

وبدأت تختمر فى رأسه فكرة .. فكرة عادية مألوفة يحققها الناس فى كل ثانية تمر من ثوانى الزمن .. فماذا يحول بينه وبين الزواج بها ؟ ولكن هل تضحى الهام بالشهرة والصيت والمال لتصير زوجة ؟ وهل هى تستطيع البقاء طويلا فى المنزل ،وهى عصفور أهوج يمقت الأقفاص !

ولم تكن فكرة الزواج جديدة فى رأسه ،فقد طرأت عليه ابان حبه لايزيس. فهو من ذلك الصنف الذى يحب «البيت» والهدوء فى كن منظم مرتب، تشرف على تنسيقه زوجة جميلة مدبرة، تملأه حياة وبهجة، وتخلق حوله ذلك الجو الهادىء الذى تتطلبه نفسه . وهو اليوم قد برم بالوحشة والانفراد ،فكثيراً ما يقضى ساعات النهار والليل وحده بين جدر وسقوف صماء كئيبة . وقد وجد أنه ليس بالكتب ولا بالخبز ولا بالفن وحدها يحيا الانسان .. إن قلبه مثل صحراء موحشة تبحث عن ظل وارف .. عصفور شريد يحن إلى الالف الذى يعمر عشه .. إنه كاد يتخطى سن الزواج فألى متى ينتظر ولمن يخلف صورة ايزيس؟

وجمع فريد قواه وسخر مواهبه ليغزو قلب الهام ، وأخذ يفتن بشتى أساليب الاقناع .فأيقن أنها معجبة به تعطف عليه وتبادله الود ،فليضيق على قلبها الحصار، وليوجه عاطفتها إلى الاتجاه الذى رسمه ..ليحتال على إغرائها بالعيش معه ،فهى لن تكون فى زعمه خاسرة بهذا الزواج ..

وانفرد بهامرة وتحادثا طويلا فى هذا الموضوع الجديد، وكان أن سألها :

ـــ هل لك أن تكونى زوجتى ؟

ـــ ألا تحكم العقل على العاطفة الوقتية يافريد، فيريك أن الأفضل لك أن تنتقى عذراء طاهرة تطيعك وتخضع لك وتعيش معك فى «البيت» ولا تحن يوما إلى الانطلاق والجموح ؟

ـــ لقد فكرت كثيراً فى هذا وفى غيره . فوجدت أنك ستألفين بعد قليل حياة الزوجية الهادئة . وأن نفسي لتحدثنى أننى قادر على كبح جماحك يوم تفكرين فى الثورة وتحطيم القيود ثم وأى امرأة لا تشتهى البيت والزوجية والامومة؟

ـــ لقد وقفت حياتى على الفن ومنحت وقتى للجميع ومن كان على شاكلتى لا يصلح للحياة الزوجية الهادئة المطمئنة التى تتخيلها !

ـــ ولكنك امرأة قبل أن تكونى فنانة . ثم ألا يمكنك الجمع بين الاثنين؟ ألم تتزوج ماريا تاليونى أعظم راقصات القرن التاسع عشر وترزق ولدين ؟. إنها لم تكن أول ولا آخر من تزوج من أهل الفن . .

ـــ دع لى يافريد مهلة من الزمن لأتدبر فى هذا الأمر . نعم ،أنا فى الواقع فتاة مقطوعة النسب تبكى فى قلبها وحدتها وتنشد قلباً بريئا مخلصاً تلقى عليه شيئا من أحمالها ، فتاة لا تلقى حولها غير ابتسامات الملق والمداهنة والاغراء . وكم من مرة شعرت بالغربة وبالانفراد ،فعافت نفسي الجموح وحنت إلى الحياة السعيدة الهادئة البعيدة عن النفاق وكم من مرة حسدت أولئك الامهات السعيدات بين أزواجهن وأطفالهن قانعات فى بيوتهن. ولكن أنى لى أن أطلق الفن لأتزوج من الرجل ؟إن مثلى لا يصلح لمثل هذا النمط من العيش !

٤

وعادت الهام ذات ليلة من عملها،وقد كاد الليل ينصرم واستلقت على مقعد

طويل ، وأغرقت رأسها بين طيات الوسائد الحريرية اللينة ثم أشعلت سيجارة أخذ دخانها يرقص فى الفضاء الصامت حولها . . وكانت الستائر مسدلة وضوء المصباح البنفسجى تتكسر ظلاله على المقاعد الخالية ..

كانت كل المخلوقات نائمة تسبح فى أحلامها تحت جناحى الليل الوديع ، وهى ساهرة وحدها وفى عينيها ذبول وسقم .. إن الناس يعملون نهاراً ويأوون إلى بيوتهم فى الليل الساكن، أما هى فتقطع الليل ساهرة ،تنهك جسدها بالرقص وأعصابها بالضجيج ،وبالأحاديث والمقابلات ، ثم تعود مع الفجر لتستريح وقتما يهب الناس وتستيقظ الطيور .. الليالى تكر متشابهة وهى كلما ذاع صيتها دفعت ثمن شهرتها غاليا إذ يزدحم المعجبون والمتملقون على بابها ،وجلهم يحوم حول أنوثتها وفتنتها بالحاح مضجر ، ينشـدون إرضاء انانيتهم وهى لا تجهل نواياهم .. وسيأتى اليوم الذى تسأم فيه نفسها هذا الانطلاق وهذا التبذل ، وإذا نال الزمان من شبابها وجمالها فر المعجبون وهرب العشاق ووقفت وسط العاصفة وحدها ..

ستذوى نضارة هذا الجسد الجميل، وستدب الشيخوخة يوماً إلى هذه الخطوط البديعة،فتكون النهاية المرة لهذا الغرور وهذا الثراء وهذا المجد .. سيكون السقوط رهيبا يوم لاتقوى ساقاها على الرقص فتنبذها المسارح وينظر إليها الجميع نظرات الاشفاق ..

وهذا الشاب العاقل الاديب فريد الذى يبادلها الود والاخلاص ، ويسألها أن تـكون له زوجة مكرمة ، لماذا تفر من سؤاله .. من هى ومن تكون ؟ إنها لاتستحق أن تـكون زوجه !

الزواج .. إنه مغامرة جديدة فى حياتها المليئة بالمغامرات ،تلجأ إليها حيـنما

تستشعر السأم يتسرب إلى قلبها والركود يخيم على حياتها . وليست هـذه أول مغامراتها ولن تـكون آخرها ! . هي تجربة جـديدة يتخيلها ثم يحققها مـلايين البشر منـذ فجر الخليقة بهدوء وسلام ، وجلهم لا يقلق لها كما تقلق هي اليوم ، ففي كل ساعـة عرس وفي كل دقيقة يقوم صرح اسرة .. وهي لا أسرة لها ولا أهل ولا أمل ... إنها لم تجرب هذه الأعراس البهيجة ولم تلبس ثياب العروس البيضاء من « الـكريب ستان » حين يتجمع حولها عـدد من وصيفات الشرف الحسان وتسير أمامها فتيات صغيرات جميلات كالملائكة ، ينثرن في طريقها الورود والرياحين .. ثم تتقبل تهاني الصديقات والاصدقاء ودعائهم . ويلي ذلك كله شهر العسل الهنيء .. فماذا تنتظر والسنون تتوالى ولا تلوى في مسيرها على شيء ؟ وعما قليل ستتخطى سن الشباب ثم تصبح عجوز وحيدة مغضنة الجبين ..

والامومة ؟ تلك العاطفة السماوية التي ما زالت لديها في حاجة إلى اشباع .. إنها ستصبح أما .. وسيكون لها طفل جميـل له خـدان كالتفاح تقبلهما كل يوم بحنان الف مرة .. طفـل يناديها « ماما » فتناغيه وتداعبه وتبسم له وترمق وجهه الملائكي الباسم وتغمره بحبها وحنانها وتنسى في حبه العالم كله .. إن وجهه المشرق سيـكون لديها أروع من كل أضواء المسارح ، وابتسامته البريئـة لن تعادلها الف ابتسامة في وجوه المتملقين .. إنها تحب الأطفـال بل تتـدله في حبهم وكم وزعت عليهم الهدايا واللعب وكم تمنت لو كان لها طفل حلو تهبه قلبها ومالها ..

ثم عادت خواطرها تتجمع حول فزيد الذي ينتظر جوابها :

إنه شاب خفيف الظل ذو علم جم وشمائل سامية ولكنه ليس مثلها الأعلى .. هو يتميز بالـكثير وينقصه الـكثير .. تنقصه تلك الخشونة والقوة الجسدية اللتان تنشدهما في الرجال . لـكنه وديع لطيف المعشر لن يكدر يوما صفوها .. ولـكنه

أيضا كثيرا ماتفاجئه نوبات الكآبة فيستغرق فى تفكيره وكأن العالم حوله قد تبدد .. وهو لايتأنق كثيرا فى ملبسه وهى تعد الاناقة ضرورة فى كل انسان .. وهو على شيء من النحول الناشيء من ادمان الفكر والمطالعة .. ولا يلتفت كثيراً إلى طعامه وشرابه بل هو لا يأكل كما يجب أن يفعل شاب قوى صحيح البدن فى مكانه .. وهو أيضا لا يخلو من الشذوذ فهو يكره اللحوم ويمقت ذبح الطير والحيوان .. ويحب الكتب أكثر من الناس ..

إلا أن ذلك كله ليس بذى خطر .. ثم .. إذا ما فشلت هذه التجربة وأظهرت لها الأيام أن هذه الزيجة لم تحقق ما أضمرته من الآمال، ألا تستطيع يومئذ أن تثور كعادتها وتحطم القفص ؟ أكان الطلاق مستحيلا ؟

ظلت تفكر فى هذه الأشياء حتى أثقل عينيها النعاس فنهضت إلى فراشها .. وبعد يومين حضر إليها فريد فعادت إلى مناقشته فى الأمر لتصل إلى نهاية تطمئن إليها ، وبعد برهة دار بينهما الحديث :

— ولكن .. هل قلبت الأمر يافريد على وجوهه وقبلت الاقتران براقصة تحمل اسمك ، وذكرت ما سوف يقوله عنك تلاميذك والمعجبون بك ، ألا يتهمونك بالنزق والجرى وراء الأهواء؟

— لا تهمنى تقولات الناس ماداموا لا يفهموننى ولا يفهمونك ، وأى شأن لهم فى مسألة خاصة بى وحدى ؟ .

— فاذا ضربنا بأقوال الناس عرض الحائط، أترى من السهل أن أضرب بالفن والحرية ؟ ومـاذا يدفعنى إلى تضحية ما أكسب من مال وشهرة . لقد خلقت لأكون راقصة وقد ساعدنى الرقص على نسيان حياتى وغمرها بالمرح ، ولذ لى أن أرى الحياة مرقصاً تدوى فيه الألحان والأنغام ، فأطير وحدى أو أمام الناس فرحة طروبا ، وكم لذ لى أن أحوز إعجاب الناس فأقف أمام أنظار

النهمة لأثير فى قلوبهم شتى الميـول ثم أختفى كالظل لأضحك من سذاجتهم وهم يصفقـون ويهتفون ، فاذا حمــلت إلى باقات الأزهـار نثرتهـا تحت قدمى بجنون ! ..

ـــ تغترين بالمظاهر وتتناسـين ما أنت فيـه من وحدة مريرة بالرغم مما يحوطك من شراذم المتظرفين السفهـاء وجموع المنافقين ، وتتناسين أيضا ذلك الجهـــد الذى يضنى جسـدك فى التمرين اليـومى وفى السهر كل ليـلة حتى مطلع الفجر ! .

ـــ أليس فى سبيل الفن تهون المشاق؟ إنى أجد لذة فى العمل وأفنى فى الفن ..

ـــ ولكنك لـن تخسرى بالزواج شيئاً . فليس هو كما تتوهمـين قيوداً وأغلالا وليس فيه استعباد ولا اســترقاق . . إنما هو اتفاق أو شركة . . وعليك باستشارة نفسك فى ساعات الوحدة. تلقين نفسك حليلة لبعل يحبك ويبذل النفس فى سبيل إسعادك وترين أنك تحيين الحياة الراضية التى تستردين فيها كرامتك وطمأنينتك ، وتوفرين على نفسك سماع الثرثرة والأكاذيب . ومن يدرى فربما تصبحين أما لها ملك صغير فى بيت هو مملكة المرأة . أما الفن فليس بلباس يخلع ويلبس بل هو فى النفس يعيش معها فى الزيجة والعزوبة !

ـــ ياللاغراء !

ـــ بل سأكون سعيداً اذا استطعت أن أنقذك وأسعدك. ستكونين شريكة حياتى وسأستمد من روحك المتمرد المتحرر ما يمـلأ قلبى حماسة فأناضل بقلمى لتحرير قومى من أصفاد الخرافات والأوهـام والتعصب والفقر والجهـل . نعم أمامى كثير جـدا من الواجبات . قلبى بركان مسدود يريـد أن يتنفس . . سترعيننى بعين رعايتك وستحفزيننى على احتمال التضحيات فأنا فى حاجة اليك وأنت فى حاجة إلى . لقد عثرت عليك أخيراً ولا أستطيع أن أتركك وحدك !

ـــ تكلم يافريد .. لماذا سكت ؟ إن هذا الكلام حلو وجديد على مسامعي، إن فيه أشياء عجيبة .. إنك ترفعني إلى أعالي لم ترها عيني .. أحقاً أكون سعيدة في البيت الزوجي ؟

ـــ لن أكون يوما سببا في شقائك وأما نفسك فهي التي تحاسبينها .. فلتكن قانعة بالحياة البسيطة ولا تطمح يوماً إلى ما وراء الغيوم - أنني فقير ولكن الروح لا تشبع بالمادة ..

كان لفريد سلطان عليها .. وكانت لعينيه قوة جارفة تكاد تسحقها .. فهي تنساق وراءه إلى حيث يسيرها .. إلى حيث لا تعلم .. حب المغامرة يغريها .. راقها أن تجرب تلك الحياة الجديدة، وهي التي تهوى المغامرات والمفاجئات المسرحية ! وبدأت تحب فريدا حبا هادئا مقرونا بالاعجاب . ورضيت أخيراً أن تحني رأسها لا كليل الزواج ! ..

وكان سمير في ذلك الحين قد رحل إلى أوربا قبل أن يهل الصيف . ولم ير الهاما، ولم يسمع بقصة صاحبه معها .. وكان قبيل سفره قد وكل أمر « عش البلابل » إلى فريد وأعطاه مفاتيحه ليشرف عليه ويرعاه بعنايته .. فكتب إليه فريد أنه سيتزوج وسيقضي شهور الصيف فيه إلى حين عودته . ثم أخبر الهاما أنه اكترى منزلا يقضيان فيه الصيف لأنه لا يستطيع أن يبرح القاهرة في هذا العام، وأنه يمكنهما في نهاية الصيف الانتقال إلى بيت آخر يختارانه ..

الفصل الثاني عشر

١

وتزوجا في حفل بسيط لم يدعوا إليه إلا نفرا قليلا من أقرب الناس إليهما .

واحتجبت الهام عن المسارح ، وبحث عنها المعجبون فلم يعثروا عليها . وأخيرا علم مندوبو المجلات الاسبوعية بنبأ قرانها فنشروا عنه الأحاديث. وخصص احمد عبد العال صفحة من مجلته عن هذا الموضوع ولم ينس أن يزين الصفحة بصورة العروسين .. وما احتوى الهاما « عش البلابل » حتى أخذتها فتنته ومحتوياته ، وراقتها تلك البيئة الرائعة . وبدأ مزاج الريف يتنبه فى نفسها ، وسنو ملجأ الراهبات تعود إلى ذاكرتها . فسكنت إلى تلك الراحة بعيدا عن الهرج والضجيج . . وشعرت بروحها تتخلص من حلم مزعج ، وتهدأ كالبحيرة وقد انعكست عليها صور الكون . . وأحست بنفسها تصفو بجوار هذه الطيور وهذه الأزهار ووسط هذا السلام وذلك السكون الشامل . . لقد كانت فى حاجة إلى هذا المكان وإلى هذه العزلة وإلى حنان القلب المخلص الرحيم . . وكانت هذه « الفلة » الانيقة بمحتوياتها ورياشها وهندستها وموقعها ، مشتهى قلبها وتحقيق خيالها . . فكم كان جميلا أن تقضى فيها بضعة أشهر من الراحة والسلام . .

وجالت مع عريسها فى غرف الدار ، وهو يحدثها عن كل طرفة وعن كل صورة وإذا بها وقد وقفت ذاهلة أمام صورة زيتية معلقة على الجدار فى اطار بديع ، وتغيرت ملامحها برهة ثم صاحت بدهشة وفرح :

— سمير كرم ؟ .

— أتعرفينه ؟

— إنه هو لم يتغير . . من أتى بصورته إلى هنا ؟

— هو صاحب هذا البيت . .

— صاحب البيت ؟

— وما أنا كما قلت لك إلا مستأجر للدار أو نحن هنا فى الواقع ضيفاه إلى حين .

— ياللعجب ! .

— لماذا؟ نحن صديقان منذ الطفولة، وقد اقتسمنا مشقة الاشراف على بناء الدار

وتنسيقها ، هو بماله وأنا بفكرى وخيالى ! ولما فرغنا منها هجرها لأنه لا يستطيب هذه العزلة ولا هذا السكون ، إنه جواب آفاق . فى الصيف تقذف به الاسفار إلى شتى البلاد ، وفى الشتاء تحتويه القاهرة فلا يستقر بهـا إلا كما تستقر السمكة فى البحر . ولولا عنايتى بهذا العش البديع لخرب وعشش فيه البوم !

— وأين هو الآن ؟

— هو اليوم بسويسره وغدا بباريس . فاذا عاد إلى القاهرة فليرحل منها بسيارته إلى الاسكندرية !

— يا للمصادفة الغريبة !

— لعله أحد المعجبين . إنى أعرف بالخبيث من نفسه !

— لا . إنى لم أره منذ سنوات طويلة ، إذ عرفته مصادفة بالاسكندرية. ثم لم أعد أراه بعد ذلك . وأعجب كيف لم يرنى مرة على المسرح ، ومن يدرى فلعله رآنى ولم يعرفنى !

— إن الحياة ملأى بالمفاجئات . وأن فيها ماهو أجل من ذلك وأخطر .. هو شاب ظريف أحبه بالرغم من نزقه . وسنجد فيه كلانا صاحباً أنيساً يملأ عزلتنا أحياناً بالبهجة والمرح ..

وتحولت الهام عن وجه الصورة وهى تائهة نشوى بالفرح تتمتم «ياللعجب» ! ثم قالت : لم أر الحديقة . فأخذ فريد يدها وسـارا معاً فى ممرات الحديقة وجعل يريها أنواع الزهر والطير . فقالت : طيور جميـلة لكنها سجينة ، ألا تخشى أن أطلق يوما سراحها ؟ فأجابها حسناً تصنعين غير أنى أخشى عليها فى فضائها النزق فتندم على هناءتها فى هذا الروض الآمن ! ثم أراها حجرة العم عطيه وكان جالساً يقرأ فى مصحفه.فأثنى فريد على تقواه وحسن ذوقه فى تنسيق الحديقة .. ثم عادا فجلسا فى الشرفة الفسيحة يتحادثان .. ولـكنها ظلت شاردة الذهن برهة

طويلة وكان فريد يتأملها كعادته وهو بدوره شارد اللب ثم قال:

ـــ سأدعوك منذ اليوم بايزيس !

ـــ لماذا ؟ إلا يروقك اسمى؟

ـــ بل لكى أحس بالتجديد وأزداد شعوراً بأنك بت لى وحدى .. هذا ضرب من الانانية كما ترين ولكنها محبة الزوج . وكم فى الحياة الزوجية من عديد التضحيات الصغيرة ، فليحتملها كلانا صاغراً حتى نمهد ذلك الطريق الجديد الذى نسلكه جنبا إلى جنب..

ـــ كما تشاء فلقد اعتدت مختلف الأسماء ..

٢

ومرت أيام أرق من أنفاس الربيع .. كان كلاهما راضيا ناعماً .. والدنيا تسير هادئة .. ضاحكه .. سبلها مفروشة بالورد والريحان .. وفريد الجابى مغتبط بهذه الدنيا الجديدة التى كشفها وأشرك فيها معه زوجه الحسناء . . وكان يلازم بيته فى أوقات فراغه حتى افتقده صحابه فى القهوات والأندية . واتخذ نفر من زملائه من قصة زواجه فكاهة يتندرون بها فى القهوة ويضيفون إليها من خيالهم ألوانا جديدة اواستغرب واحد منهم أن يكون رجل ذو ذهن جبار ،عبداً لامرأة من هذا النوع ! وقال آخر إنه لا يذكر فى تاريخ الأناسى ، أن رجلا أعد نفسه ليكون زعيما من قادة الفكر قد انحدر إلى ما تورط فيه فريد ! وأنحى آخر باللائمة على تلك الراقصة التى أوقعت المسكين فى شراكها !

وفى أثناء هذه الفترة وردت على فريد رسالة من سمير يهنئه فيها بالزواج، ويمزج التهنئة بالمزاح والتهكم، ويعلن عجبه من تلك المفاجأة التى قام بها فريد فى غيبته وبدون استشارته ! وقرأت الهام الرسالة مراراً وهى تضحك !

وتعلقت إلهام بهذه «الفيلا» السحرية حتى كادت تنسى من أجلها المسرح وما إليه .. وكانت هى روح تلك الدار الذى يعير كل ما حوله جمالا وفتنة . وكانت ضحكاتها وغناؤها ورقصهـا ومرحها تملأ ذلك الجو الراكد بالنشاط واليقظة .. كانت تروح وتجىء فى الغرف وفى الحديقة كالنحلة .. وتجمع كل صباح باقات من الزهر تنضدها فى الآنية البديعة وتصفها هنا وهناك . .

وكان فريد يحب بساطة العيش وأما هى فذات شغف بالتأنق والترف. وكان يعرف أنه ضيف على هذه الدار ويفكر فى بيت آخر تتعلق به إلهام كما تعلقت بهذا، أما هى فكانت تتوهم أنها صاحبة البيت وما فيه ..

ومع ذلك فقد نسى فريد معها نفسه .فكان يجاريها فى عبثها ومرحها. وكانا يلعبان معاً كطفلين سعيدين .. وكان لا يمل النظر إليها فيلقى فى وجهها وصوتها وقوامها ذكريات حلوة تتجدد فى نفسه ، وأحلاما كان عقله يختزن صورها فعاد الزمن يحققها .. وكثيراً ما كانا يجلسان فى «الصالون» بعد العشاء على مقعدين وثيرين فيحدجها بنظره طويلا وهو غائب الفكر يذكر تلك الأيام العجيبة التى مرت عليه بالفيوم ..

وأراد فريد أن يسعد زوجته بقدر ما يستطيع ، ورام أيضا أن يبدل بعضا من طباعها وكان يزعم أنه سيخلق منها امرأة جديدة . . كان يرى الحب وإن كان ضروريا للحياة الزوجية فأنه ليس كل شىء. إذ لا بد من التفاهم المتبادل والايثار والمرافقة بين الزوجين . . وكان يدرك أن خير الزوجات من لو كانت رجلا لكانت صديقا وفيا لزوجها فى رخائه وشدته. فطفق يبث فى نفسها المتلونة الغامضة مبادئه وميوله ويحبب إليها الدرس والمطالعة والحياة البيتية البسيطة القانعة ، ويضع بين يديها كتبا جدية ملحاً عليها فى قراءتها . فكانت الهام تتقبل عباراته ومطاليبه ببشاشة كعادتها ، ولكنها لم تخلق للتقيد حتى بالمبادىء والنظريات . وهناك

فى قرارة نفسيهما هوة عميقة تفصل بين هاتين النفسيتين المتباينتين ..

رغب أن يوجهها توجيها رفيعا وأن يشركها معه فى عشق الطبيعة وصور الكون الجميلة .. وكان يقضى معها أوقاتا صافية فى تنسيق الحديقة بمفوف الزهر ومنضور النبت واصص الرياحين .. ويقص عليها ما قرأه عن الأزهار والنبات ، ويجلس إلى جانبها يطالعان تحت الخمائل والكروم وقد تدلت منها عناقيد العنب. وفى ضوء القمر كانا يفترشان العشب ويلمحان وجه العالم ضاحكا ، ويتحدثان عما مر بهما من حلو ومر . ويستران فى قلبيهما صفحات مطوية من تاريخيهما لا يرغب أحدهما أن يطلع الآخر عليه ..

وكان فريد فى بعض الاحايين يحن إلى قراءة الكتب وإلى الكتابة فى ذلك الجو الشعرى المعطر. ولكن الهاما كان يغلبها طبعها ولا يروقها منظر زوجها وهو مكب على القراءة والكتابة .. كانت تخاف الكتب وتغار منها بل تكرهها ، لانها تسلبها اهتمام فريد. ولان فيهـا يخيم الهدوء والصمت والركود مما لا تطيقه . فكانت تخطف الكتاب من يده وتسأله أن يتحدث إليها . بينما كان فريد يخاف الشهوة الجنسية التى يثيرها هذا الجسم الغض الفاتن الذى يطوف حوله. ويسعى إلى التحرر من الفطرة الحيوانية لانها فى رأيه تلهيه عن عمله وتضعف ملكاته العقلية .. ولم تدرك الهام أنها زوجة فنان لها عليه نكران الذات وتهيئة الحياة الهادئة الهنيئة التى يمكنه أن ينتج ويخلق فى كنفها ، لانها كانت أيضـا فنانة لا تعرف كيف تضحى بشىء من رغباتها فى سبيل هناءة زوجها وحمل متاعبه ..

ولم تكن حال فريد المادية تسمح له بمجاراة زوجه فى اسرافها ، ولكنه لم يشأ حرمانها من متعها .. إنه يقدر على تحمل مصاعب الحياة وبؤسها وحده ولكنه لا يستطيع أن يشرك معه فيها هذه المرأة التى لا تعرف للمال قيمة ..

ومرت أيام أخرى شعر فيها فريد أنه والهاما ليسا وحدهما فى ذلك العش إذ

كان كل ما فيه يعلن عن وجود سمير . فالمنزل منزله ، وكل ما فيه من تحف ورياش ، وكل ما فى الحديقة له وحده يذكرها دائماً بوجوده . ثم هذه الصورة الزيتية الرائعة التى تطل عليها دائما بعينين واسعتين . فكان ذكره يأتى فى مناسبات كثيرة ويتطرق الحديث إلى ذكر نوادره وأنباء حياته وكان هذا الحديث يلذ لالهام ، وكان من الطبيعى أن تسأله كثيراً عن هذا الصديق الغائب الحاضر الذى يشاركها حياتها . وكان أيضا أن قصت الهام على فريد ما أسداه سمير إليها من جميل ، وذكرت أنها مازالت مدينة له ببعض النقود وكثير من الفضل ..

— ولم يسبق له أن رآنى قبل ذلك اليوم ، ومع ذلك فقد أنقذنى من مخالب الجوع وذل السؤال . وأوصانى قبل أن نفترق أن أكون على حذر من ذئاب الناس !

— هذا شىء جديد أسمعه عنه !

— إن قصته معى تدل على نبل وكرم !

— فهى بذلك قصة جديدة على مسامعى إذ لم يسبق له فيما أعلم أن ساعد أحدا ، ولطالما نصحته أن يكف عن مغامراته ونزقه واسرافه حتى لا تضمحل البقية الباقية من ثروة أبيه . ولكنه مابرح يبيع فى مخلفات والديه حتى لأخشى أن يأتى عليها وعلى هذه « الفيلا » فى القريب !

— لا أحسبه متهورا إلى هذا الحد ! إنك تقسو عليه . إن له من ثرائه ومزاجه وشبابه مايشفع له فيما تزاه أنت نزقا ! ولو كنت أنا مكانه لفعلت أكثر مما يفعل !

— ترك له أبوه فيما ترك عزبة كبيرة بالسنانية باعها منذ سنين . وكم أسفت على ضياع هذه الأرض المليئة بذكريات الصبا وذكريات الآباء والأهل . وكم كنت أود لو أتاح لى الحظ أن أرحل معك لقضاء شهر من هذا الصيف فى تلك

الربوع التى كانت مسرحا للطفولة - ولكن ، لنتعاون معاً على اصلاحه ، لعل تلك البذور القديمة لم تمت فى نفسه . اذن لكسبنا أخا لا أحب أن أفقده ، ولاّ نقذناه من هاوية الافلاس !

إلا أن فريدا لم تفته ملاحظة ذلك الاهتمام بسمير وشئون حياته . وعاد يستغرب تعلقها بصورته فهى تارة تطرى مصورها وتارة أخرى تعجب من وقفته فيهـا . فبدأ يرى أن الوقت قد أزف لفراق البيت الذى يشاركه فيه غيره حتى ينعم باستقلاله وحريته . .

٣

وكرت شهور الصيف سراعا . وعاد فريد من عمله فى ظهر يوم من أيام أكتوبر الزاهية فوجد الهاما جالسة فى الصالون . . ولم تكن تتطلع هذه المرة إلى صورة سمير بعينين حالمتين ، بل كانت تتحدث مع سمير نفسه . . فهو قد عاد من رحلته الصيفية على غرة كعادته وبادر إلى تهنئة صاحبه وعروسه - وكان يدفعه فضول إلى مشاهدة الفتاة التى أوقعت فريد فى حبائلها ! وكانا يتحادثان منذ ساعة قبل مجيئه - ثم ألحت عليه الهام فى البقاء لتناول الغذاء . ولاشك أن الحديث كان يدور منذ ساعة عن لقائهما بالاسكندرية منذ سنين . .

وجلسوا للغذاء وتشعب بهم الحديث ، وجاء ذكر « عش البلابل » فرأى فريد أن يخلى الدار لصاحبها . ورأى سمير أنه فى غير حاجة إليها طالما يسكن منزلا آخر بشارع قصر النيل . وعادت إلهام تبدى إعجابها وتعلقها بها . .

وقال سمير : إذا كان « عش البـلابل » يروقكما فلم التسرع فى الرحيل عنه أما إن كنتما تستثقلان الضيـافة فإنـه فى مقدوركما اكتراؤه بأى أجر ، فلا

يعود فى الأمر حرج !

وأفحم فريد أمام هذا الرأى الجديد لأنه كان يود الانتقال إلى ضاحية أخرى لشعور غامض ينفره من هـذا المكان . أما إلهام فقد أعجبت بهذا الاقتراح، وازدادت بالبيت تشبثاً. ورأى فريد أن المنافذ سدت أمامه فسكت على مضض ..

وفى عشية اليوم التالى جاء سمـير بسيارته لزيارة صاحبيه ، وانتظم ثلاثتهم مجلس بهيج وكانت إلهام تمزح وتضحك . كانوا يطرقون شتى الأحاديث التافهة الفكهة . وكان أن قال سمير لالهام :

وعساك تستطيعين أن تبدلى من فريد مخلوقا آخر فأن المرأة كما يقال كثيراً ما غيرت مجرى التاريخ !

ـ أنى لى ذلك وهو الذى يسعى فى توجيهى إلى الناحية التى يريدها وحده..

— كونى على حـذر وإلا ضـاق هذا المكان عن أن يسع شاعرين متفلسفين ..

— وماذا كنت تصنع لو كنت فى مكانى ؟

— كنت أقص جناحيه حتى يهبـط إلينا ويعيش معنا فى أرض الحقائق . إنه كما ترين ما زال يطوف فى سماواته . وقد يجلس معنا فيدعنا وحيدين ويطير ولا يبقى منه أمامنا غير جسمه .

— إن سميراً سيفشى أسرارك يافريد !

— ليس لسانه ما أخشاه !

— أحب أن أعرف ماذا يرى الناس فى زوجى!

— ومن يعرف فريداً أكثر منى لقد عجنته وخبزته أكثر من ربع قرن !

— هيا حدثنى عنه حتى نستطيع أن نجدده !

— كان منذ صباه متيما بعروس الشعر ثم هجرها والأصح هى التى هجرته !

فارتمى فى أحضان عجائز الفلسفة . ولكنه إلى اليوم كثيراً ما يطوف تحت نوافذها وفى يديه قيثارته العتيقة ! ولقد خلق الله فيه لسوء الحظ من الشعور ما كان سبحانه يريد أن يوزعه على مائة غيره ! وهو يحاول تكبير مسائل الحياة ويراكمها بعضها فوق البعض حتى تعلو كناطحة السحاب ! وترينه يحمل هموم العالم فوق رأسه وكثيرا ما يسير مطأطىء الرأس لأن تلك الهموم تثقلها كما يثقل الشعير السنبلة ! ولكنى أشهد مع ذلك أنه وديع كالحمل ولا يطيق أن يطأ النملة أو يقتل الفأر حتى إذا مست كرامته وتملكه الغضب انقلب الحمل إلى نمر تفر منه الشياطين !

— ياحفيظ !

— وماذا أيضا ؟ نعم هو يحب الهدوء والبعد عن الناس ويبدو لى أنه خلق ليكون راهبا ثم أفسده الشيطان !

— مازلت على هامش الصورة !

— صبراً . إنه يحلم باصلاح العالم ، ذلك المريض المزمن الذى عجز عن شفائه عشرات الانبياء والمرسلين . والأدهى من ذلك أنه يحلم بتوحيد لغاتهم وأديانهم ! يضيع وقته فى الوهم ! . ولطالما نصحته أن يشفق على نفسه وعلى العالم، ويبحث له عن عمل آخر مثمر . لكنه كان يعدنى جاهلا لا أفهم الدنيا..

وضحك الجميع فعاد سمير يقول :

— ثم لقد جعل من رأسه حانوتا للكتب وأضاع حياته فى المطالعة زاعماً أن الانسان يعيش ليقرأ وفاته أنه يعيش مرة واحدة لاتتكرر .. ولا أحب أن أنسى أنه ينصت لكل مجنون يتحدث عن الروح وخلودها ، بل كثيرا ماضبطته يقرأ فى حكايات استحضار الروح وما على شاكلتها كأنما فرغت الدنيا من الموضوعات .. بل هو لايتورع عن قراءة افلاطون وأمثاله ممن ماتت أجيالهم

ولن تعود .. وفى النهاية إنه يحب الجنس اللطيف .. لا ترتاعى ياسيدتى .. فأن هؤلاء «العباقرة» لايستطيعون الاكتفاء بلون واحد من الجمال فاحيطيه بالرقابة وكونى على حذر .. وليكن عزاؤك انه يوجس خيفة من المرأة ويخشى تلونها واغرائها .. وإذا رأيته يوما حائرا لا يعرف ماذا يكتب فاسمعيه شيئا من الموسيقى، وإلا ظل واجما يعد ألواح النوافذ والصور وكل ما يمكنه عده أمام عينيه .

٤

ومرت أيام اخرى وبدأ سحر الخريف يزيد السكنى فى «عش البلابل» جمالا وروعة . وازدانت الحديقة بزهر «الكريزانتيم» والورد الأحمر . وكانت الحقول القريبة من المنزل تتبرج بحلل سندسية . وكان سمير يتردد على صديقه كعادته منذ سنين . ولكن مامرت الأيام إلا وزادت فريد حيرة من أمر الهام، فهى اليوم لا تفرح وتبتهج إلا متى حضر سمير ، فاذا انصرف عادت الى وجومها، وباتت زيارة سمير ضرورة فى انتشار البهجة والمرح على هذه الدار الساكنة . . كان حضوره فى السهرة وعلى المائدة يحرك جواً تشيع فيه السعادة فيتحرر القلب من الانقباض والنفس من الركود مثل ما تفعل الخمر .. ولشد ماوضح للزوجين ذلك الفرق بين حضوره وغيبته . .

ومذ حضر سمير إلى القاهرة أعدت البرامج الحافلة . فالليلة لابد من سهرة فى أحد المسارح أو الملاهى أو دور السينما .. وهذه سيارة سمير الرشيقة فى الباب على أهبة لنقل الموكب الى سفح الاهرام أو الى صحراء الماظة أو الى ضفاف النيل بالجزيرة .. وكان سمير يعجب وتعجب معه الهام ، كيف يستسيغ الانسان الحياة دون أن يذهب مرة فى كل اسبوع إلى «سواريه» يكتظ بعلية القوم حيث تتجلى الأناقة وتعرض أبدع «المودات».

أو أن يذهب مرة فى الشهر على الأقل إلى « الكورس » لمشاهدة سباق الخيل وجمال الأزياء .. أو أن يجلس فى إحدى مقاصير «الاوبرا» بلباس السهرة وفى يده منظار مقرب كما يفعل الوجهاء ..

وحدث أن خرج الثلاثة للتنزه بسيارة سمير فى شارع الاهرام وكان يسوقها كعادته بسرعة ونزق ، وفريد لايفتأ يبدى امتعاضه من ذلك الشغف بالسرعة مما يضيع عليهم لذة المشاهدة والتنزه . والهام لاتخفى سرورها من ذلك الضرب من المزاح،وتعرض على سمير أن يعلمها كيف تسوق السيارة بنفسها لأنها تفكر فى شراء واحدة. وكادت السيارة تصدم شجرة فى الطريق . وكادت النزهة أن تنتهى بأوخم العواقب ..

وكانت الهام فى تلك الفترة تبيع جواهرها ومصوغاتها من وراء زوجها لكى تشترى الملابس الفاخرة وتسد نفقات السهرات والملاهى ،بينما كان عمل فريد لايدر عليه النحاس بله الذهب . وبينما كانت ثروة سمير تتناقص وتتدهور وحاله المالية تسير من سيئة إلى أسوأ وهو لايكترث لذلك ..

وثارت فى نفس فريد تلك الكبرياء التى تنتاب الأدباء فيزعمون أنهم من طبقة فوق طبقات الناس . فرأى أنه يتساهل مع هذين الطفلين الكبيرين . وأن الواجب أن تكون له السيطرة على هذا البيت .. إلا أن ارادته كانت تذوب أمام الدعابة والنكات والعبث ..

ومما زاد الهام إعجابا بسمير أنها تراه مهندما أنيقاً ، يلبس كل يوم سترة جديدة. ولا ينسى أن يضع على صدره وردة حمراء تنسجم مع وجنتيه اللتين يطفر منهما دم الشباب . وهو يمتلك سيارة جميلة تسهل عليهم أمر الانتقال إلى القاهرة وضواحيها وملاهيها . وهو فوق ذلك يجيد سواقتها كما يجيد أنواع الرقص ويحسن المحاصرة ،ويتكلم الفرنسية ويلعب «البردج» وهو أيضا ذلق اللسان حلو الحديث

يعرف كيف يقص ما رآه فى أسفـاره وفى المدن الاوربية التى زارها . . وكانت باريس ولياليها موضوعا طريفاً يتناوب هو والهـام الخوض فيه . . ثم أنه يعرف كيف يخلب قلوب النساء بأحاديثه التافهه الحـــلوة وبروحه المرح الطروب ، وبوسامته وابتساماته . .

وأخذت الهام توازن فى نفسها بين سمير وزوجها الذى اختـارته من دون الرجال ،وضحت من أجله بمستقبلها الفنى .. كان فريد قوى الفكر قوى الشعور ولـكن أفكاره وفلسفته لاتشبع أحلامها وميولها .. كانت عقليـة سمير السطحية تفتنها أكثر من عقلية فريد الجبارة .. كانت تعتقد أنها تفهم الرجال وتستطيع أن تسبر أغوارهم ولـكنها ألفت نفسها اليوم أمام شخصية محيرة لم يستطع الامتزاج والتقارب فى الحياة الزوجية أن يحلاها .. شخصية فريد المعقدة ، التى لم تفهمها ، المزوجة بغرابة العبقرية وشذوذها وجنونها وأنانيتها .. وهى لاترتاح إلى تلك الكآبة التى تنتابه أحيانا بلا سبب واضح .. ولا يروقها منظره حين يختلى بنفسه وبكتبه وأوراقه . . وهى لاتقرأ مايكتب ولا يهمها ما يقرأ . وكثيرا ماسألته أن يتخـذ له مهنة أخرى كالمحاماة مثلا ليكون ذا مكانة اجتماعية بارزة فى عيون الناس وفى عينيها أيضا .. وهو يتفوق عليها وعلى سمير فى المستوى العقلى ممـا يجعل منها أمامه تلميذة لاشريـكة . . وهى تدهش أحيانا من تلك السذاجـة وتلك البراءة اللتين يشبه فيهما الأطفال ، لاسيا حين يفرغ من عمله المرهق ويخرج إلى الحياة ملتمسا السلوى والنسيان . فينحدر فى عينها فجـأة من رجل رصين إلى طفل ساذج لايحفل بشىء .. وأخيرا كانت لاتحب فيه تلك النظرة إلى المرأة. فهو كما أدركت يتخذها وسيلة لاغاية . وهو يخشى أن تسيطر المرأة على حياته أو أن تتدخل فى عمله ، ولا يحب منها الغيرة ولا المراقبة . .

وانتابت قلب فريد الحيرة من تغير زوجته . فهل تزعزعت مكانته فى قلبها

بهذه السرعة ، أوهى هواجس يصورها خياله ، أوهى تقلبات المرأة ، وهى ما يخشاها . وكانت زيارات سمير تنقذ الزوجين من بوادر التفكير فى أمور أخذت تكبر وتتسع حتى باتت هذه الزيارات ضرورة للبيت وسعادته ! .

وكانت الهام تتكلف أحيانا البشاشة والدعة أمام زوجها . ولكنها لا تلبث أن تغلبها طبيعتها . فيبدو فريد أمامها شخصا غريبا لا تفهمه ، تسرعت فى الزواج منه . ويحس فريد آنئذ أنه يغوص فى روح أجنبية تقمصت شكلا عزيزا يثير الذكريات . وكانت ترى أحيانا أنها وقد نشأت على الحرية والانطلاق قد تورطت فى الزواج . إذ فتنها المجهول وخدعتها طبيعة عواطفها . وكان عليها أن تنتظر فتى أحلامها ، الذى ترى فيه صورة نفسها . . لقد وضعها فريد فى قفص من الذهب وهى التى ثارت من قبل على كل الأقفاص وحطمت السلاسل والقيود . وبدأت تظن أن فريداً هو الرابح فى هذا الزواج . أما هى فلم تكسب من ورائه شيئاً .. وتيقنت أنه يحب كتبه وأقلامه أكثر منها . وودت لو جمعت هذه الكتب وهذه الأوراق والأقلام فأحرقتها .. إن قلبها لا يضمر له شديد الحب ولكنها لا تريده فى الوقت نفسه أن يشرك فى حبها شيئا آخر حتى كتبه ! .

ومن ناحية أخرى كان فريد يشعر آنئذ أنه تسرع وراء العاطفة ، فايز يس ماتت منذ سنين . وصورتها هذه لا تمت إليها بصلة حقيقية . . ورأى أن زواجه من الهام كان ضربا من سخرية القدر . فأخذ يعجب كيف خطا هذه الخطوة متسرعا كمن كان فى شبه غيبوبة . وبدأت نفسه تحدثه وهى تضحك من ضعفه : أن تلك الزيجة لم تكن بضرورة قاسرة ولا بفكرة سديدة . وأنها ألهته عما خلقت له نفسه بل هو يحس الآن أن معين فكره قد نضب . وأن قلمه لم يعد يسعفه . وأن مثله فى هذا الزواج مثل فيلسوف يرتدى فوق عباءته ارجوان المسرح ! وهذه الأفكار زادته تبرما وقلقا .. وهو حين يحاول التغلب على هذه

الثورة الجديدة تضيع جهوده - وهو من وراء ذلك كله مشتت الفكر على الرغم منه - لا يمكنه أن يحصر فكره فى عمله الأدبى - بل هو منذ أيام لا يستطيع الكتابة أو القراءة - -

أما سمير كرم فقد وقع بدوره فى حيرة من أمره .. وعاد ذات مساء إلى منزله مبكراً على غير عادته - ودخل إلى غرفة نومه وأغلقها وراءه فتضوعت فيها رائحة العطور المرصوصة زجاجاتها على « التواليت » - ثم تمدد على « الشيزلونج » برهة . وأخذ يفكر لأول مرة فى هذه الوحدة التى بدأ يبرم بها - وقارن بين حال فريد وحاله فقال : « هو سعيد بزوجه وأنا أدور فى الشوارع كالصعلوك ! » ثم هب فجأة وضغط على زر كهربائى ، فهرع خادمه يقرع الباب فأمره أن يحضر البريد ليتسلى به - ثم خلع ملابسه وارتدى احدى « بيجاماته » الحريرية وتمدد على الفراش الوثير . ودخل الخادم يحمل البريد على صينية من الفضه ثم وضعها وخرج - - فخلا سمير ببريده وأخذ يمر بعينيه على السطور ، فى رسائل ملونة معطرة ويكاد لا يفرغ من قراءة واحدة حتى يمزقها ! . لقد برم بهذه العلاقات الحمقاء مع بنات الهوى ، اللاتى يبعنه الحب الرخيص طمعا فى ماله ! .. إنهن لن يعرفننى إذا ضاع هذا المال .. وأنا المغفل أضيع أيامى وأموالى بين أحضان مسمومة ! لقد شبعت من الأجساد ومن التمرغ فى الأقذار ! . إن فتاة مثل الهام هى التى تسد ذلك الفراغ الذى أحس به اليوم - - إن مثلها لا يطمع فى مال ولا فى جاه - - أنها لا تصلح لفريد وهو لا يصلح لها - - كلاهما مظلوم - - كم على الأرض من ضحايا سوء الاختيار ! -

ثم نقلته خواطره إلى « عش البلابل » الذى بناه وبذل المال فى تزيينه وتأثيثه ، ثم هجره ليتمتع به غيره - - لقد عاد يحبه ويود العيش فيه ! - لاسيما مع فتاة ساحرة كالهام - - إن سحر فتاة مثلها يحول القلب إلى لص يريد

الاغتراف من هذا الكنز .. ولكن ما أدهشه أن الهاما نفسها ، بالرغم من فتنتها وجاذبيتها لاتثيرفيه تلك الميول الوضيعة ..إنه مازال يحس نحوها بتلك العاطفة التى غمرت نفسه يوم رآها وجالسها بالاسكندرية منذ سنين -- مازال يشعر برغبة قاهرة فى اسعادها ومساعدتها وهو يزور «عش البلابل» باذلا قصارى الجهد فى اسعاد الزوجين بمرحه وعبثه -- وهو يدعوهما الى التنزه بسيارته فى جهات بهيجة لينسى الهاما ذلك السأم الذى تحس به أحيانا مع زوج كثير المشاغل والهموم ، يقضى معظم نهاره فى الكتابة والقراءة والتفكير . ولا يحس أحيانا بوجود تلك المرأة الساحرة إلى جانبه . والهام لاتجحد ذلك الفضل الذى يغمرها به سمير ، فهى تود رؤيته كل يوم بل كل ساعة ، وهى تنتظر قدومه كما ينتظر الطفل هدايا العيد -- كلاهما لا يحب أن يفارق الآخر .. ولكن ماذا يرى فريد ياترى فى كل هذا ؟

الفصل الثالث عشر

١

وجاء الشتاء ، واحتجبت الطيور ، وزمجرت العاصفة حول «الفلة» الرابضة وسط حديقتها ، كما يربض الدير وسط الفلاة . .

ولاحظ صاحب الجريدة التى يعمل بها فريد أنه اليوم لايلبى مطاليب الجريدة فى أوقاتها المحددة . وأنه يتأخر أحيانا عن الحضور . وأنه فوق ذلك لا يجيد الآن الكتابة كعادته . فلامه على هذه الهفوات وكانت مشادة خرج منها فريد غاضبا على ألا يعود إليه . وخرج يطلب عملا فى الجرائد الاخرى فوجد الأبواب موصدة فى وجهه . وعاد إلى منزله حانقاً محطما . .

عاد فريد فى مساء ذلك اليوم يسعى وراء الدفء والمأوى والراحة . والتجأ إلى «البيت» الذى طالما صورته له أحلامه منـذ القديم .. البيت السعيـد الذى تنتظره فيه زوجه وقدأمضها غيابه ـ لعله يلقى فى تلك الواحة الفيحاء أعباءه، ويسترد قواه ـ. وتسلل نحو غرفـة الجلوس فرأى الهاما مستلقية على اريكة بدلال وقد أسندت رأسها إلى كتف سمير، وهذا يمازحها ويميل إلى وجهها كمن يهمس إليها وكأنما أنساهما ذلك الموقف نفسيهما وما حولهما ،فلم يشعرا بقدوم رب البيت وهو يتقدم كالشبح نحو الغرفة . .

وجمـد فريد فى مكانه لحظـة مبهوتا ، وقـــد تبددت فى هذه اللحظـة شكوكه ـ ولم ير فيهما غير عشيقين أثيمين ـ. وجد أنه أمام أمر واقع لابد من الفصل فيه ـ. فوقف برهة يتأملهما بينما كانت ارادته وعاطفته تتناضلان نضالا صامتـاً عنيفاً وهو يقلب وجوه الموقف ـ ثم استقر رأيه على ضبط عواطفه وعلى ن يضع للمسألة نهاية بهدوء وتعقل ـ ثم دخل وحياهما بسكون وجلس لحظة يفكر: أكان جديراً به أن يثور ويغضب فيطرد صديقه من بيته ؟ لـكن بيت من هذا ؟ أليس هو الضيف الذى ينبغى عليه أن يخرج ؟ أم يرغم الهاما على الخروج معه ؟ وماذا يفعل إن هى عادت إلى تمردها ورفضت الذهاب ؟ أم يترك لهما الدار وينسحب وحده يجر ذيول الخيبة ؟ أم يتدارك الامر بالحـكمة خير من أن يزيد النار اشتعالا ـ وهما ما زالا فى نظره طفلين طائشين يلعبان بالنار ـ لم تعد تحبه وهى لاتبالى غضبه أو رضاه ـ إن تمثال ايزيس الحى الذى اقتنـاه ليصونه من عبث الاغرار يسرقه اليوم صـديقه القديم أمام عينيه ـ. لقد حماه من النـاس ليقدمه العوبة إلى أحد المستهترين!ـ

جلس فى تلك اللحظةصامتاً مخيفاً فارتاعت زوجه وذهل سمير وهم بالانصراف، وأحس سمير منذ تلك اللحظة أنه سيكون سبباً فى خراب هذا العش الزوجى

الجديد - وخشى أن الماما لم تدرك حقيقة عاطفته البريئة نحوها وأنها ربما أحبته حبا لا يريد أن يكون، وأنها ربما كرهت من أجله زوجها وهو لا يحب أن تكرهه. فعزم على المغيب زمناً تسكن فيه تلك الزوبعة التي أثارها عن غير قصد..

غير أن انقطاع زياراته لم يزد الماما إلا قلقا وتمرداً - وباتت ترى في فريد عقبة في سبيل حريتها وتصرفاتها .. أما فريد فقد رأى أن خير علاج لهذا كله أن يهجر هذا البيت ويفر بزوجته إلى ضاحية أخرى بعيدة، تنسى فيها هذه الصلة الجديدة. ولكن الماما لم تر داعيا إلى هذا النقل السريع - وكان فريد من جهة أخرى مشغول الفكر من ناحية عمله إذ كان لابد له أولا من البحث عن عمل جديد..

ولم يعد ثمت مفر من النقاش اليومي الصريخ بينه وبين زوجه، مما وسع دائرة الخلاف بينهما :

— لم تعودي تبالين الحياة الزوجية، وهدمت في أيام ما بنيناه في شهور..

— ذلك لأننا تزوجنا على غير حب متبادل - وكنت أساق وراءك على غير ارادتي أملا في نجاح التجربة .. ولكني تيقنت بعدها أن أحدنا لا يصلح للآخر -

— كنت راضية سعيدة بهذه الحياة الجديدة وكنت منذ عهد قريب تحيين كما تحيا كل امرأة تحب بيتها وزوجها فاذا بك تتبدلين امرأة أخرى متمردة !

— نشأت على الحرية والانطلاق وعافت نفسي منذ الصغر كل القيود !

— ومع ذلك فقد كنت هانئة بهذا القيد المزعوم الذي حررك من ألف قيد آخر - ألم أجعل منك زوجة مكرمة وربة بيت آمن سعيد، لا يقلق راحتك شراذم السفلة ؟ فماذا يعوزك اليوم ؟

— يعوزني الحب الذي هو كل شيء للمرأة والذي في انتهائه عندها انتهاء حياتها . .

— وأين أخفيت كل هذا حين رضيت بي زوجاً ؟

— فتننى الخفاء . وكنت أظن أني سألقى الحب وأحقق به أحلامى :

— بل هـذا نتيجة ضعفك ، فأنت لم تتغيرى إلا لأنك لقيت شابا يفوق زوجك فتنة واغراء !

— تسيء بى الظن .. فأنا لا أحبه ذلك الحب الذى تتوهمه . إن صلتنا بريئة وستظل طاهرة ـ من ناحيتى على الأقل !

— صاحبك لا يعرف الطهارة ولا هذا اللف والدوران .. أنا لست بالأعمى ولا بالمخدوع .. وإلا فلماذا تغيرت على زوجك وهو لم يسيء إليك قط ..

— أنت لا تفهمنى !

— أفهم أنك بحبك الجديد قد تمردت على زوجك وكرهت بيتك !

— من الصعب أن نتفاهم ونتفق وبات كل منا عبئا على الآخر !

— تفكرين فى الطلاق لتجرى وراء عاطفتك . وأنا لا أشجعك على هـذا الطيش ، لانى أعرفك وأعرف من تلاحقين . كلاكما يلهو بالنار ولا يدرك العاقبة .. فلا تنتظرى منى أن أطلقك لتعبثى مع صاحبك . . بل على أن أحميك من نفسك ومن صاحبك . . بل وأحمى صديقى القـديم من تهورك . . وسيأتى اليوم الذى تعرفان فيه أنـكما لا تنشدان الحب بل تندفعان كالفراش الطائش نحو النار وجحيم العاطفة ! .

— تغرينى على الفرار من هذا البيت !

— تفرين لتعودى إلى نادمة لانك لن تجـدى الرجـل الذى يخلص لك ويغمرك بالعطف والاكرام كما تلقين هنا !

— هناك من يحبنى حبا بريئا أكثر من نفسه وأنت لا تحب فى غير نفسك ..

— ابن الجسد لا يحب فيك غير الجسد . وحب الجسد يزول مع مطلع النهار والسراب البراق خادع فاتن لكنه غير موجود . . أنى لك أن تتبصرى وتوازنى

الأمور . وأنت ابنة العاطفة والولوع بالمغامرات . . إن سميرا كما أعرفه قبل أن تعرفيه ،لا يؤمن بالحب ولا يرعى ود امرأة . ليس حبه إلا اشتهاء مؤقتا وضيعا. أنت لاتعرفينه مثلى . . ومن كان على شاكلته سرعان ما يمل ويهجر المرأة التى أوقعها فى شراكه إلى غيرها . . وأنت لست أول ولا آخر من بادله سمير الحب والعبث . . وأنا لذلك أزداد شعوراً بوجوب حمايتك من نزقك ومن طيش صاحبك . وقد ساقنى القدر إلى حمايتك منذ رأيتك . .

٢

رأى فريد أن يبتعد واحد منهم ليصفو الجو للاثنين الآخرين . . ولكن على من تقع القرعة ؟ وهل يعود السلام بين الزوجين إذا ذهب سمير ؟ وهل يعود الصفاء بين الصديقين إذا رحلت الهام ؟ هل يخلى فريد لهما المكان فيعيشا فى سعادة ؟ إنه لايعتقد أنهما يستطيعان العيش معاً طويلا فى سلام وسعادة وهدوء . . وهو مع هذا الاعتقاد لم يسم إلى مرتبة القديسين فيستطيع قهر أنانيته وتضحية ذاته من أجلها . . إن هذا الصديق الذى آخاه زمانا طويلا قد اعتدى فى زعمه على حق من حقوقه ليشبع اثرته . لقد خان عهده . . إن كبرياؤه وكرامته تتصارعان اليوم مع حكمته . . وفى هذا النضال الصامت كانت تفوز أحيانا حكمته ، فى لحظات تصفو فيها نفسه وتتخلص من سفاسف الدنيا وتسمو إلى الأعالى ، فتحثه على الفرار بنفسه كيما يعود إليها الصفاء والحرية . . فيمكنه بذلك أن يرجع إلى سبيله الأول الذى عرج عنه .. يعود إلى مثله العليا وألى أحلامه ومبادئه .. ويكون فى مقدوره أن يبحث فى جو هادىء صاف وراء الحقيقة التى هى أعظم من هذه الألاعيب الصبيانية تاركا السفاسف الدنيوية إلى ذوى العقول السطحية الفارغة .. ألم يفر البوذه من بيته وزوجه وولده ، مضحيا بالثراء والنعيم

والراحة فى سبيل البحث وراء الحقيقة وصفاء الروح ؟ وهو بدوره لن يضحى مثله بشىء .. بل هو يفر من بيت يكتنفه القلق والخيانة . .

وحاول أن يسمو ساعة فوق الصغائر فجلس إلى مكتبه وتكلف الهدوء ، وأمسك بالقلم الذى كان يجرى نارا تحرق الهشيم فرآه يتعصى على القرطاس ويتعثر كالحمار الحرون . فألقى بالقلم وأخـذ يوحى إلى نفسه أنه مابرح هادىء النفس حكيما ، وأنه يستطيع الثبات وسط العاصفة كبرج شامخ . ولـكنه كان يغالط نفسه ويحملها فوق طاقتها . . إنه لم يزل كغيره من الشباب إذا ما تورطوا فى مأزقه .. هو لا يستطيع ضبط النفس ولا يقدر على حصر فكره فيما يقرأ ويكتب. إن قلبه يفيض بالمرارة ، وأعصابه متفززة هائجة .. والضعف البشرى يغمر كيانه كله . . هو ما برح انسانا ضعيفا . وهو ليس بنصف اله .. قلب ابن آدم مازال يخفق فى صدره حارا مليئا بالمشاعر والرغبات والميول .. وهذا القلب قد بدأ يحس بالغيرة .. وبشىء يشبه الحب .. هو ساعة يحتقر تلك الانثى الحلوة الفنانة الضعيفة التى ارتبطت حياتها مع حياته .. وساعة يكرهها .. وساعة يعطف عليها .. وساعة يغضب منها .. ومن وراء هذا كله تكمن تلك الجاذبية التى أخفاها الله فى قلب الرجل كما غمر بها قلب المرأة .. أجل أنه بدأ يحبها بالرغم من هفواتها . . وهو الآن ينسى فى ذلك الحب الجـديد فتاته الاولى التى استأثرت بقلبه سنوات طويلة .. إنه يريد الآن أن يستأثر بها وحده .. ولن يسمح لصديقه أن ينتزعها منه . .

أما الهام فكانت تفكر فى تلك الآونة ، فى الفرار من البيت الذى كانت تحبه. وليست هذه أول مرة تفر بنفسها من أجل حريتها .. ألم تهرب يوما فى طفولتها من نير جابر عبد الصمد ؟ ألم تفر فى صباها من ملجأ الراهبات .. ألم تفر من القاهرة كلها .. ثم . من متجر الملابس ؟ ثم من القطر كله .. إنها ستفر مرة أخرى

من هـذا السجن الجديد .. إن العيش مع فريد يرهقها . . ولـكنها لا تعلم لماذا تتردد هذه المرة وماذا تنتظر ! إن فرارها سيكون سببا فى شقائه وغيظه ، وهو لم يقصد الاساءة إليهـا .. ثم تعود فيتملـكها الغيظ من الأقدار التى ساقت إليهـا هذا الرجل ، فباعت حريتها وهجرت مسرحها وتركت مكسبها فى سبيل العيش معه فى بيت واحد .. ترى أنه كبلها بهذه الاصفـاد وعليها أن تحطم أغلاله .. ستبعده عن طريقها .. ستنبذه ولن تعود تراه .. ليس لأحد سلطان على قلبها .. إن الفرار من هذا المكان أسلم الطرق لديها ..

أما سمير فقد تبين له أنه أثار زوبعة فى ذلك البيت الآمن الصغير . فـكف عن زياراته ولو أنهما ما زالا فى بيته .. لعلها أحبته ولم تفهم ما يكنه لها من ميل برىء وعطف شديد .. ليته لم يتفنن فى تحبيبها إليه بشتى الأساليب التى اعتادها ، لعلها الآن تبكى بعاده . وعساها تتهيأ للحاق به .. إنه يفـكر فيها كثيراً .. ويحس أن هناك قوة فوق مقدور البشر تجذبه نحوها وتحمله على ملازمتها وحمايتها ... إن سر الخفاء يعبث بهما معاً ! .

وما هى أن انقطعت زيارات سمير عن صاحبيه ، حتى رفرفت الكآبة بجناحيها القاتمين فوق رأسى الزوجين التعيسين . ولم تفت فريد ملاحظة امرأته وهى تتعذب بسببه . ورآها تأرق فى الليل . وشـــاهد غلالة من الشحوب تدب فى لونهـا ، فزادتها شبها بإيزيسه القديمة .. فكان يقول فى نفسه أحيانا :

— ويحى . هل قدر لى أن أسحق بأنانيتى أقرب الناس إلى ؟ أفى مقدورى أن أكيف هذين القلبين كما يحـلو لى .. هل سلطتنى تلك الاوضاع التقليدية على التحكم فى الحب والـكره .. أفى استطاعتى إن حبست امرأتى وقيدتها بالاغلال أن أفصل بين قلبها وبين من تحب ؟ ألم تهزأ بالعرف والتقاليد والمجتمع كله ؟ يا للمسكينة أنها تتعلق اليوم بأنانى لا يقدر تضحيتها وسيسحق يوما قلبها ثم يلقى

بها فى الطريق .. إنها مخدوعة فى حبها . هذا الحب ضرب من الافتتان ونزق الشباب .. إن نفسى كثيراً ما تحدثنى أن أطلقها وأدع هذين الطفلين الكبيرين يعبثان وينعمان بحقهما فى الحياة .. وأعود أنا كما كنت شريدا أنعم بحريتى وبوهيميتى واستقلالى .. وأتفرغ إلى عملى .. أنسحب من الميدان مهزوما لأتمتع بتضحيتى وحدى .. وأتلذذ بانتصارى على عواطفى . وبقدرتى على كبح جماح غضبى . بذلك أتخيل أنى شذذت عن سائر الناس فلم أغضب ولم أنتقم .. هل أكذب على نفسى ؟. الحق إننى أسأت إلى نفسى وإلى هذه الفتاة بإغرائها على الزواج منى .. أرغمتها بتسرعى واستبدادى على هجر فنها ومسرحها وأحلامها لأرضى أنانيتى لأرى فيها صورة حبى القديم الذى لا يمت إلى شخصها بصلة ..

ولكن .. بالرغم من ذلك كله .. أنا الشقى بت أحبها ....

٣

وذهب انتظار الهام لعودة سمير سدى . . فقد تغيب اسبوعا كاملا ولم تستطع فيه رؤياه أو أن تذهب إليه لتعلم ماذا طرأ عليه . .

وعاد فريد من عمله الجديد يوما من أيام يناير العابسة . وقد عزم أخيراً على أن يسدل الستار على هذه المهزلة فينفصل عن الهام ويبعد عن هذا البيت .. وما دنا من الحديقة حتى أحس بانقباض يخيم على قلبه . . ودخل إلى الدار وطاف جميع نواحيها فلم يجد الهاماً .. وهم باستدعاء العم عطيه فاذا به أمام رسالة تركتها له الهام وبها تخبره أنها رحلت . .

كان ذلك اليوم عاصفا كئيبا . وكان الغيث ينهمر من سحاب مركوم . وكان وجه الفضاء مكفهرا . وكانت العناصر هائجة . والعاصفة تزمجر حول « عش البلابل » وتعبث بما حوله من شجر وزرع . وكانت تهز الغصون فتتناثر أوراقها

الجافة فوق الأوحال .. وخرج فريد إلى الشرفة المطلة على الحديقة حيث كان يتناول الشاى مع الهام فى الأمسية الصافية . وأخذ يقلب فى يده تلك الرسالة التى تركتها فأحس باشمئزاز وخيبة . ورأى السكون حوله واجماً ساخطا يئن وينتحب . .

وكانت شفتاه تهمسان فيضيع ذلك الهمس وسط ثوران العاصفة :

— الذنب ذنبي ، إذ شئت أن أغامر فى مسالك الناس وسبلهم . وأرتع مثلهم فى بحبوحة الغرور والنسيان .. وألبس مسوحا لم تخلق لى حتى صرت بها هزأة .. اتخذت من هذه الفتاة صنما مقدسا فتركتنى وحدى مثل دمية المساخر .. ضحكت على نفسى وقلت لها انعمى يانفس بالبيت والزوجة والراحة والحب .. إنها أرادت أن تتحرر من نيرى ويحق لها أن تنعم بالحرية التى منحها الله للجميع .. وهأنذا بدورى أسترد حريتى وأعيش فى مملكة نفسى ..

وسمع السماء ترعد والعاصفة تنوح .. ورأى الليل ينسج بسرعة نسيجه الأسود فوق ذهب النهار ويسربل السكون حوله بحلة حالكة السواد كالحبر وهو فى موقفه جامدا كالصنم . فدخل إلى البيت وجعل يطوف فيه وقد ثارت فى نفسه تلك العواطف المكبوتة التى تراكمت عليها فى ماضيه وحاضره ، فرفع يده فى نوبة من الغضب وأخذ يتمتم بكلمات صارخة غير مسموعة :

— لا أخافك أيتها الحياة ، مهما أمطرت على رأسى من صواعق ورعود ، لا يستطيع العالم ومافيه أن يهزمنى .. قد تحالف العالم ضدى .. خاننى صديق طفولتى .. وهجرتنى زوجى .. كثر أعدائى وتألبوا على .. أينما سرت ألقاهم .. ولكننى أتحداهم جميعا .. وسأقاوم العاصفة بمفردى بل سأهزم الحياة وحدى . .

وفى أثناء تلك الثورة النفسانية أخذت الأفكار الثائرة تندلع من رأسه كألسنة اللهيب ، وتقف الكلمات عند شفتيه ثم عاد يتساءل فى نفسه :

ـــ ألضعف فى ياترى يتألب على الناس ؟ أكان يجب أن أصبح فظيعا شرسا فلا يستضعفنى الناس ، بل كانوا يخشون بأسى؟ ثم ضحك بمرارة وعاد يحدث نفسه : يالى من شقى . لا فى بيتى ولا فى خارج بيتى ألقى الراحة التى تتطلبها نفسى . لا أجداً يحبنى ولا قلبا يحنو على . لا أرى حولى وفاء ولا اخلاصا .. أنا من يستحق الشفقة ولكنى لا أطلبها ولا أرجوها .. ولمن أجهد نفسى ليل نهار ؟ لا أحداً يفهمنى أو يتسمع إلى مبادئى فى هذا البلد الذى يحقر أعمال المخلصين ويحاول تصغيرها والزراية بها ـ فيا الهى أيرضيك أن تحطمنى وتضمنى إلى اولئك الشهداء المجهولين الذين تكتظ بهم أرضك وأنا الذى أدافع عن الحق والعادل والجميل ؟ .

ومضت برهة طويلة هائلة شعر فيها فريد الجابى أن زخارف الغرف ونقوشها وتحفها تنقلب حوله إلى طلاسم ورموز بشعة تتجهم أمامه وتكتئب .. فجلس وحده وقد اكتنفته وحشة الليل . فى تلك البقعة التى يشتت الظلام كل ليلة حولها كل حركة لحى أو جماد ، فيسودها صمت رهيب ، لا يسمع فيه غير نباح كلاب الحقل آت من بعيد وعواء ذئاب فزعة تحمل صداها الرياح . جلس برهة ذاهلا لا يعى وسط رهبة يخامرها فى تلك اللحظة أنات الريح وحفيف الغصون ودوى الرعد فيزيد ذلك من وحشة المكان ..

وأخيرا عاد إليه هدوؤه فهب من مكانه وقضى ردحا من الليل يعد حقائبه ويجمع أوراقه وهو فى أثناء ذلك يقلب الأمر على وجوهه ويفكر أين يذهب ، ولم يكن الوقت ملائما لأن يترك المنزل ويرحل مع حقائبه ومتاعه . ثم غلبه التعب فنام نوما مضطربا ..

وهب فى الصباح الباكر وقد تهيأ للرحيل إلى حيث لا يعلم . ثم ارتدى ملابسه وخرج يبحث عن العم عطيه ليعطيه مفتاح الدار ويرشده إلى ما يفعل ،

فوجده ما زال يغط فى نومه الهادىء المطمئن الذى لا تقلقه الحوادث ، متدثرا من البرد بغطاء قديم من الصوف الأسود . وقد وضع إلى جانبه قلة ملآى بالماء، ومصحفا قديما تمزق غلافه من طول الإستعمال - فلم يشأ أن يقلق راحته وعاد يجول فى البيت وحده كالتائه فى الفلاة - وخيل إليه أنه يتسمع لموسيقى حزينة خافتة تزيد نفسه اضطرابا - . وصادف فى طوافه باقة من النرجس جمعتها بالأمس الهام ونضدتها فى اناء فينيقى ، وقد ذوت تلك الأزهار وتدلت على حافة الإناء كأنها أذرع الموتى - . ووقع بصره على صورة سمير فلاحظ فى عينيه علائم جديدة للغدر والاستهتار - . ورأى صورة الهام تمثلها راقصة وأخرى تمثلها زوجة تحدق فى الفضاء الصامت بنظرات شاردات - . فوقف تجاه صورتها ينظر إليها نظرات العتاب والألم وهو يعتقد أنها ذهبت إلى سمير وهى بما فعلت قد أبعدته عنها وعن صديقه إلى الأبد - .

٤

وبينما هو فى وقفته أمام الصورة إذا به يسمع جلبة وحديثا فى الحديقة ، وإذا بالباب يقرع ، وصوت العم عطية يصحبه أصوات نسائية رقيقة تسمع من وراء الباب. فخفق قلبه ، وخيل إليه أن الهاما وسميرا قد عادا إليه نادمين مستغفرين - فوقف برهة حائراً وهو يقول : على أن أقابلهما بلا اكتراث - . يا للمسكينة - إنها مازالت تستحق الرحمة ! -

ثم هرول نحو الباب وفتحه فزادت دهشته اذ لم ير أمامه الهاما ولا سميرا ، بل رأى راهبتين مرتديتين مسوحا سوداء وعلى رأسيهما غطاءان أبيضان على شكل هرمين - وكان العم عطية واقفا وراءهما صامتا مستغربا - ونظرت احداهما إلى فريد نظرة تفيض دعة وحنانا وقالت :

ـــ بنجور مسيو . .

ـــ بنجور ما سير . .

ـــ عفواً . هل حضرتكم مسيو سمير كرم ؟

ـــ كلا . أنا صاحبه . وهذا منزله . .

ـــ نحن نبحث عنه منذ زمن طويل لمسألة تهمه جدا . فهل نستطيع مقابلته الآن ؟

ـــ مقابلته . الآن ؟ هو ليس هنا . . فهل تتفضلان بالدخول لحظة خشية البرد لنتشاور معاً فى أمر هذه المقابلة . .

ـــ بكل سرور . . نشكركم . .

ودخلت الراهبتان بهدوء ووقار . واتخذتا مقعدين متجاورين فى « الصالون » وجلس فريد أمامهما فى حيرة من أمر هذه الزيارة غير المألوفة ثم قال :

ـــ نعم هذا منزل سمير . ولكنه يتغيب عنه كثيراً لبعض أعماله بالقاهرة ، وله منزل آخر بشارع قصر النيل ومن المحتمل أن يكون هناك الآن ويمكنني أن أدلكما عليه . .

والتفت فاذا بالراهبتين تشيران إلى صورة الهام باهتمام وتقول أحداهما للاخرى بالفرنسية : إنها تشبهها تماما . . أظنها هى وقد كبرت قليلا . .
ونهضتا معاً وتفرستا فى الصورة ثم سألته احداهما . .

ـــ أ يسبت هذه مدموازيل ـ . س . . ؟

ـــ كلا يا اختاه . . هذه صورة زوجتى الهام . .

ـــ عجيب جدا . أنها تشبهها تماما . .

ـــ وأعجب من ذلك أنها تشبه فتاة عرفتها بالفيوم منذ سنين . . إن بعض الناس كثيراً ما يتشابهون فى المظاهر الخارجية . .

— ولكن .. أليس للسيد سمير كرم أخت أصغر منه ؟

— لا .. إنما كانت له أخت ماتت فى طفولتها منذ سنين بعيدة ..

— أتعنى أخته الصغيرة التى فقدت فى ضاحية قريبة من دمياط قبل الحرب العظمى ؟

— أجل هى .. إذن أنتما تعرفان أسرة المرحوم كرم بك شكرى ولاشك..

— هذا ماجئنا لأجله . ياالهى .. يالهامن قصةعجيبةمؤثرة ياسيدى ..عملنا طويلا على الكشفعنها.. إن مسيو سميرستتملكه الدهشة ،بل هو لن يصدق أن أخته المفقودة كانت يوماً فى مدرستنا .. وهى مازالت كما سمعنا على قيد الحياة.. وقد أخبرنا بعض الناس أن الحاجة دفعت بالمسكينة إلى احتراف الرقص . . ياللخسارة ! أننا نصلى من أجلها كل يوم !.

وعقدت الدهشة لسان فريد وظـل برهة واجما حائرا ينصت إلى الأخـت لوسيان وصاحبتها وهما تتناوبان قص المـأساة بصوت مؤثر حنون من أولها إلى آخرها . ومرت ساعة لايعرف مداهـا وهو يظن أنه فى حـلم عجيب يصوره له رأسه المضطرب فى هذا اليوم الشاذ الغريب ..

وهنا تلاحقت أمام مخيلته صور قديمة طوتها الايام ثم عادت فبعثتهـا من قبرها وعرضتها أمامه مثل شريط سينما . فرأى أنه يرتد إلى الماضى المقنع بالغيوم . ورأى نفسه غلاماً صغيرا فى التاسعة من عمره ، يمرح ويلعب مع سمير وغيره من صبية ذلك العهد ، فى ذلك اليوم الذى انطبعت ذكراه فى مخيلته .. يوم شم النسيم عام ١٩١٢ ، الذى قضوا نهاره فى سرور وغبطة وكانت خاتمته تلك المأساة الاليمة .. مأساة فقد الصغيرة انعام .. وذكر تلك الليلة الرهيبة التىقضاها مع والديه وأخواته فى كوخ كرم بك شكرى بالسنانية . ولم يغمض لأحد فيها جفن .. وذكر كيف كان يواسى صاحبه سميرا ،

بعبارات الصبا الساذجة.. ثم ذكر ما كانت تقوله له السيدة كوثر زوجة كرم بك وهى تداعبه فى أوقات صفوها: «اجدعن يافريد وأنا أجوزك انعام!» فيالعجائب الأيام! إن الحقائق كثيراً ما تفوق القصص فى غرابتها! لقد اعتقد الجميع أنها ماتت! ولكنها لم تمت .. بل خطفها الأشقياء .. ثم تدور عجلة الزمن، فتصبح انعام زوجته اثم .. تلحق بأخيها.. إنه ما زال يشك فى هذا الأمر . وقدأخذت رأسه تدور . .

ونهض فجمع عدداً من صور الهام وعرضها على الراهبتين قائلا :

— هذه صور أخرى لها، فهل تعتقدان أنها هى؟

— هى بعينها . كبرت قليلا ولكن ملامح الوجه لم تتغير!

— وعاد إلى مجلسه وهو يقول فى نفسه :

اخته !.. إن كان هذا صحيحا فأن سميرا والهاما شقيقان !ولكن ماأعجب له كيف تحابا؟. أكان حبهما جنسيا أم هو حب أخوى متنكر فى ثياب غريبة؟. ولكن..هل وضعت الطبيعة حائلا بين الرجل وأخته إذا كان أحدهما يجهل الآخر؟ ثم كيف كان بعض ملوك المصريين القدماء والبطالمة يتزوجون من أخواتهم؟ ألم تتزوج كايوبتره من أخيها؟ وسواء أكان هذا الزواج موفقا أو غير موفق فهو صلة جنسية .. كانت الهام تقول إنها صلة بريئة بالرغم من جهلها أن سميرا أخوها! فمن أدرانى؟ لعلى أسأت بهما الظن ودفعتها بظنى إلى الفرار! ماذا يحدث لو عرف كل منهما اليوم هذا النبأ الجديد؟..

ثم هب فريد وبوده لو طار إليهما وقص عليهما هذا الخبر العجيب. إنه بهذه البشرى سيغير مجرى الحوادث ..ومن أجلها سينسى الماضى ويصفح..وسيعود الهام إلى زوجها الذى بدأ يحبها .. وسيعود الثلاثة إلى كنف المحبة والوفاء ..

الهاما سترتمى بين ذراعيه باكية .. وسترفرف السعادة ثانية فوق «عش البلابل» بعد أن هجرته ..

ورأى فريد أمامه الراهبتين تنظران إلى انفعاله باشفاق وسكينة . فهدأت نفسه قليلا وعاد يقول : من يدرى فلعل فى الأمر خطأ ولعل الراهبتين واهمتان!

وبعد برهة قال لهما : إن شئتما ذهبنا إلى منزله ...

وخرج الثلاثة واكتروا سيارة نهبت بهم الأرض المبتلة بماء المطر . ووقفت أخيراً أمام باب العمارة التى بها منزل سمير بشارع قصر النيل . واستأذنهما فريد لحظة ، ثم صعد مهرولا إلى مسكن سمير . وفتح له خادمه حسن ولما رآه قال :

— أهلا وسهلا بفريد بك ..

— أريد مقابلة سمير حالا ..

— سمير بك سافر أمس إلى الاسكندرية بسيارته ياسيدى ..

— أمس ؟

— نعم . صباح الأمس ..

— أكان وحده ؟

— نعم .. وقد حضرت منذ نصف ساعة سيدة تسأل عنه فلم تجده!

— ألا تعرف عنوانه بالاسكندرية ؟ .

— كلا ياسيدى . انما قال لى أنه ربما عاد بعد يومين ..

ثم نزل فريد وهو يقول : سافر أمس ولا بد أن المطر فاجأه فى الطريق! ولكن الحمد لله ، لقد سافر قبل أن تصل إليه الهام .. ثم عاد إلى السيارة وهو يقول للراهبتين

— لم أجده ولكنى سأعثر عليه فى القريب وسأخاطبكما بالتليفون حين أراه ..

وعاد وحده إلى المنزل وهو يفكر فى لقاء سمير والهام .. وكانت الشمس قد أشرقت من وراء الغيوم ضاحكة . وبسطت ذهبها فوق «عش البلابل» فجففت دموعه .

ولما اقـترب من باب المنزل وجد جمعاً من الرجال يتناقشون مع العم عطية ، وينشرون بين أيديهم أوراقا،فعرف أنهم من التجار والسماسرة.وسمعهم يتحدثون عن الحجز والديون وعن بيع « الفلة » ومابها بالمزاد العلنى استيفاء لحقوقهم . وكان العم عطيه واقفا أمامهم مبهوتا لايصدق أذنيه ولايحرك شفتيه . .

ودنا منهم فريد فلم يعرفوه.وسألهم عن سبب تجمهرهم أمام المنزل،فزادلغطهم، وأخرجوا صكوكهم والحكم الذى يخول لهم تنفيذ الحجز على البيت ومافيه . . وأدرك فريد وقتئذ أن سميراً يرتطم فى هوة الافلاس .وأن لامفر من مبيع الدار وأثاثها لتسديد حقوق الدائنين . ووقف لحظة يفـكر فى انقاذ المنزل فلم يهـده تفكيره إلى شىء.. ثم قال لهم :

— مهلا ياسادة أن سميراً بالاسكندرية وسيعود بعد يومين،فهلا انتظرتم حتى نسوى الأمر ؟

فضحكوا .وصاح أحد المرابين . لننتظر حتى يبعث من قبره !

وقال آخر : امهلوه حتى تسدد عشيقاته ديونه !

واستشاط فريد غيظا ولـكنه مالبث أن وجم وا كفهر وجهه ،إذ قدم له أحدهم جريدة الاهرام وهو يقول ، تفضل اقرأ . . فمر بعينيه سريعا على السطور وكأنما كانت الـكلمات ترقص أمام عينيه بحروف من لهيب ونار . .

«فى طريق الاسكندرية .. قرب قليوب .. سمير كرم . . أوحال الطريق . . اصطدمت السيارة باحدى أشجار الطريق الزراعى .. تحطمت السيارة .ونقل الجريح بين الحياة والموت إلى منستشفى القصر العينى بالقاهرة ..»

ودهش الجمع حينما رأوا محدثهم يلقى بالجريدة ويهرول كالمجنون فى الشارع حتى توارى عن أنظارهم .. وبقوا ساعة يتجادلون مع العم عطية وهـذا يهدئ من روعهم ويستمهلهم إلى الغد فأن فريدا بك سيدفع لهم حقهم كاملا ولاشك..

فانصرفوا على أن يعودوا فى الغد ..

ودخل فريد مستشفى القصر العينى فرأى سميرا ممداً على سريره بين عشرات المرضى والجرحى، وقد عصبوا رأسه . فتقدم نحوه على مهل ورآه لا يستطيع النطق. وأخبره الطبيب أنه فى حال غير خطيرة ولكن عليه أن يدعه وحده ليستريح فتركه وانصرف حزينا إلى عمله بالجريدة ..

وفى صبيحة اليوم التالى ذهب ليعود سميرا فوجد إلهاما واقفة عند سريره وقد احمرت عيناها من البكاء ولكنها كانت تتجلد أمامه . فاقترب منهما فريد ورآه سمير واستطاع أن يمد إليه يده وهو ينظر إليه نظرات الشكر والأسى . . وبعد برهة أخذ فريد يد إلهام المرتجفة وخرج معها وهى تتبعه ذاهلة باكية . واستقلا عربة إلى بيتهما صامتين . ثم أنبأها فريد أن لديه نبأ هائلا عجيبا سيفرحها ويدهشها ا .

ووقفت بهما العربة عند محطة سكة الزيتون الحديدية . وهناك اتصل فريد بالأخت لوسيان ورجاها أن تبادر فى الحضور إلى المنزل . وما هى إلا ساعة حتى كانت الأخت لوسيان وصاحبتها جالستين مع إلهام وفريد . وكانت إلهام تنصت إلى قصة الراهبتين كأنما تستمع إلى خرافة من أساطير الكتب .. وقد استولت عليها الدهشة والذهول . وأنهكت قواها حوادث هذا اليوم العجيب .. وانتصف النهار وهم جلوس يتحادثون . ثم أخذت إلهام تستفيق من ذلك الحلم المزعج وتعود إلى الحياة مخلوقة جديدة .. بدأت تصدق القصة وتدرك لماذا كانت تشعر نحو سمير بعاطفة عميقة مبهمة ، هى جاذبية الدم وحنان الاخوة .. ولماذا كانت تحس نحو جابر وخضرة بكراهية ونفور .. وانتقل خيالها إلى سمير ، أخيها ، وهو الآن جريح فى المستشفى ، فذاب قلبها حسرة عليه واشفاقا ..

ونهضت الراهبتان للانصراف وقد طفح وجهاهما سروراً .وكانا لا يكفان

عن التحدث إلى الهام وتذكيرها بأيام الدراسة ،والعجب معها من أفعال الزمن وغرائب الحياة. وما هى إلا برهة بعـــد انصرافها حتى دخل إليهما العم عطية مهرولا مذعوراً صائحاً :

— حضروا ثانية ياسيدى!

— من هم ؟

— يريدون الحجز على البيت!

فخرج فريد وخرجت معه الهام يتبعهما العم عطية .فرأى فريد جماعة الأمس وقدعادت لتنفيذ الحجز ، وكان أفرادها يلغطون ويصيحون ..فانفرد فريد لحظة بالهام ، وأفهمها جلية الأمر ، وأعلمها أن لا مفر من الرحيل عن هـذا البيت.. فوقفت الهام برهة تفكر . ثم اتجهت نحو المحضرين والدائنين وسألتهم عن المبلغ المطلوب ، ثم أسرعت إلى إحـدى غرف المنزل وأخرجت من إحدى حقائبها صندوقا صغيرا به البقية الباقية من جوهراها ومصوغاتها ودفعت بها إليهم قائلة : هل تكفيكم هذه؟ فحدق المرابون فى فصوص الالماس المتلألئة بدهشة قائلين : إن ثمنها يزيد عن حقنا..

بعد ساعة كانت «انعام» تتنفس الصعداء فى جو العش الذى أحبته يوماً وقد آل الآن إليها .. ثم جلست الى جانب فريد وقد هدأ حولها المكان وأسندت رأسها إلى كتفه وهى تقول : والآن هأنذا عـدت اليك يافريد انسانة جـديدة نادمة أفما زلت حانقاً على؟ فعانقها وهو يقول .. لاتعلمين كم أحبك! وقطع عليهما البرهة السعيدة صوت أقدام المعـــلم عطية وقد أقبل نحوهما قائلا ،وهو لم يزل فى نشوة الفرح : ألا ترغب سيدتى وسيدى اليوم فى الغذاء والساعة الآن الثالثة ؟

* * *

بعد اسبوع تماثل سمير للشفاء وذهب تواً إلى «عش البلابل» حيث فوجىء

بالنبأ العجيب . وقد علم بما حل به من افلاس فذهب يبحث عن عمل يرتزق منه ، وقد تبدل بعد تلك الحوادث انسانا آخر صقلته التجارب . ودب كغيره على هذه الارض المزدحمة بساكنيها شخصا مجهولا يسعى وراء عيشه ويأكل بعرق جبينه.

كان لتلك التجارب التي مرت أثر واضح في قلوب « انعام » وفريد وسمير ، ولكنه كان أثراً مباركاً أعاد الصفاء إلى نفوسهم والهناءة إلى بيتهم .. وظل فريد كالبرج الشامخ دوت حوله الاعاصير والرعود ولكنها لم تصل إلى رأسه الثابت ، المنير في عليائه ..

وأشرق فجر ذهبي على « عش البلابل » وعاد الزوجان إلى كنف المحبة والوفاء . وكان سمير يتردد عليهما كعادته ويملأ دارهما بالمرح والدعابة ..

وقد اعتاد أهل « عين شمس » أن يروا فريداً وهو ينطلق وحده كل صباح نحو محطة السكة الحديدية ليلحق بالقطار الذاهب إلى القاهرة ، ويرونه وهو يؤوب إلى بيته في المساء متأبطا رزمة من الكتب والصحف والمجلات . وكان بعض فتيات تلك الناحية يتطلعن اليه أحيانا من ثقوب النوافذ وهو يسير لا يلوى على شيء .. ولقبه صبيان تلك الضاحية بالفيلسوف إذ لاحظوا أنه يعيش في عزلة ولا يختلط كثيراً بالناس ، يخرج مع زوجه أحيانا للتمشى في الحقول أو التجول في أنحاء القاهرة ..

وعلى الرغم من أنه نادر الحديث عن ماضيه وعن نفسه ، فقد ذاعت حول فريد الجابي في « عين شمس » شتى القصص والحكايات إلا أن قصته الحقيقية هي ما أجملته هذه الرواية في ثوبها الساذج فلا يصدق القارىء غيرها !

(تمت)

مقتطفات

من أقوال الصحف

فى كتب المؤلف

مرتبة حسب تاريخها :—

كتاب الحياة الجديدة

بقلم نقولا يوسف   الطبعة الاولي   اغسطس١٩٣٦ (مطبعة المجلة الجديدة)

« أهدت المجلة الجديدة إلى مشتركيها كتاب الحياة الجديدة لمؤلفه الاستاذ نقولا يوسف الأديب المعروف . والكتاب يبلغ ٣٢٠صفحة من قطع هذه المجلة، وهو تحفة فنية فى الأدب و الاجتماع وفن الحياة . والأستاذ نقولا يكتب بأسلوب رقيق صريح ، فى موضوعات يرتفع إليها الذهن للاستمتاع السامى ولسنا نشك فى أن قراءنا سيقدرون هذه الهدية قدرها وهى هدية لم تقدم مثلها أية مجلة أخرى فى تاريخ الصحافة فى مصر »

سلامة موسى — المجلة الجديدة —أو ل سبتمبر ١٩٣٦

« للأستاذ المفكر المطلع صديقنا نقولا يوسف الذى أخذ نجمه يتألق فى السياسة الاسبوعية ثم فى عشرات من المجلات والصحف والأندية، عرف فيها جميعا بسمو الغاية فى تفكيره وحرارته الوطنية فى حبه لمصر ومحاولته دائما الاندماج فى الاوساط المختلفة ليترك فيها خمائر من ذهنه الخصب وثقافته الواسعة واطلاعه الشامل . ولست أدرى لماذا حشد الاستاذ كل هذه الفصول فى كتاب واحد ولم يصدرها فى ثلاثة كتب حتى يكون من الممكن أن يستقل كل منها بفكرة متحدة وغاية واحدة ؟ إن الكتاب كبير ضخم وهو بضخامته غير المتناسبة يتخم القارىء ويصده عن متابعة القراءة ، خصوصا وأكثر القراء كسالى وأكثر بحوث الكتاب دسمة غزيرة الفكر ... إن القسم الثالث من الكتاب وهو أمتع أقسامه الثلاثة كان يمكن أن يكون كتابا مستقلا يكاد لا يكون له نظير فى المكتبات العامة وان كل بحث من بحوثه ليشهد للكاتب بسعة الاطلاع وعظم الجهد الذى عانى فى كتابته »

من مقال للاستاذ دريني خشبه   بمجلة الرسالة ١٤ سبتمبر ١٩٣٦

« .... وقد قسم الكتاب إلى أبواب ثلاثة يحتوى الأول على بحوث عالمية تضم ١٩ موضوعا طريفا . والثانى يشتمل على شئون مصرية تضم عشرين موضوعا والثالث يتضمن دراسات أدبية وفنية انطوت على ٢٥ موضوعا . والكتاب مفرغة عباراته فى قالب لطيف سهل المتناول تعبر عن معان دقيقة بأسلوب يجعل القارىء الذى يشرع فى قراءته يستمر على تدبرها حتى يفرغ منها وحسبنا أن ننشر سطوراً من المقالة المعنونة « فى الادب المصرى » لنبين قيمة هذا الكتاب النفيسة .. »

من مقال للاهرام ٢ اكتوبر ١٩٣٦

« .... يتناول دراسة وبحث أكثر من ستين موضوعا حيويا قسمها المؤلف إلى ثلاثة أبواب هى بمثابة ثلاث كتب .. وهذه الابحاث مشبعة غزيرة المادة تدل على اطلاع كبير وتوفر على الدرس والاحاطة بالمسائل المؤثرة فى الحياة الجديدة التى يحياها الجيل الحاضر وهى فوق ذلك مكتوبة بأسلوب واضح صريح - ولغة رقيقة مهذبة لاتعقيد فيها ولا غلو ولا غموض ومن هنا تظهر فائدتها للقارىء الذى لايلقى عنتا فى هضم مثل هذه البحوث الدسمة وتفهم هذه الدراسات المليئة بالمعانى والافكار .. وان هذا الكتاب الجديد الذى يبحث فى الحياة الجديدة لاغنى عنه لكل أديب يسعى وراء الثقافة العصرية ويرغب فى التأدب بالادب الجديد ذى المبادىء والافكار العصرية .. »

من مقال للمقطم ١٩ أكتوبر ١٩٣٦

« الظاهرة الاولى التى جذبتنى إلى الاستمرار فى قراءة كتاب ضخم مثل « الحياة الجديدة » والاعجاب بواضع الكتاب ، هى النزعة الانسانية التى تبدو بين صفحاته ويحس بها القارىء نابضة على الدوام بين سطوره . . فى كثير من مقالاته مثل الانسانية بين الحرب والسلم وفى الوحدة العالمية وغيرها تراه يدافع عن السلام ويسفه الحروب والجشع الاستعمارى ويؤمن بمستقبل للعالم تسود فيه

المحبةوتعم الاخوة الانسانية التى لاتمزقها الحدود القومية والاختلافات الدينية أو العنصرية...»

مجلةالجامعة ١٣ اكتوبر ١٩٣٦

« .... وكم كنت أود لو أذكر كل فصل على حدة لما جمع كل منها من أبحاث قيمة ودرس عميق وتحليل سيكولوجى دقيق واحصائية مدهشة .. وأقول أن بحوث الحياة الجديدة دسمة غزيرة الفكر فهى مجموعة ثمينة جامعة بين جمال الخيال ودرس التاريخ وتحليل للعصر الجديد دقيق وتراجم متقنة للأدب القديم والحديث وهو حقيقة يكاد لايكون له نظير فى مكتباتنا العربية .. »

من مقال للاديبةامينة شاكر فهمي بالرسالة ٢٦ اكتوبر ١٩٣٦

« .... هذا الكتاب كيف قلبته وأى صفحة طالعت فيه تقع على آثار قلم يغذيه ذهن واسع الاطلاع ونفس وثابة إلى الخير والاصلاح »

مجلةالمقتطف أول نوفبر ١٩٣٦

« بحوث هذا الكتاب كثيرة تربو على الستين ، ثلثها الاول بحوث عالمية وثلثها مسائل مصرية .. والثلث الاخير دراسات أدبية وفنية .. وهى فى جملتها تتناول كثيرا من مسائل العصر ومشاكله التى تشغل الاذهان .. وقد كان من الممكن أن يستقل كل قسم من هذه الاقسام الثلاثة فى كتاب على حدة فيكون كل منها دائراً حول فكرة متحدة وغاية واحدة ... وأمتع أقسام الكتاب الثلاثة وأجلها القسم الثالث . فان كل بحث فى هذا القسم يشهد للكاتب بسعة الاطلاع وقوة الجهد ومشقته الذى عاناه المؤلف ...»

مجلة المصور ٤ ديسمبر ١٩٣٦

«مجموعة من المقالات الناضجة الجريئة ،تبحث هموم العصر الحاضر وتدرس

مشاكل الجيل الجديد . فثلثهـا الاول بحوث عامة تلخص بعض ما يشغل أذهان العالم أوتدرس نقطا سياسية واجتماعية خاصة ،نذكر منهافصولا عن... وثلثها الثانى بحوث فى حياتنا المصرية تدعو إلى تجـديد الادب والفنون وترقية شئون المرأة والفلاح .وثلثها الاخير دراسات أدبية وفنية شتى.. منهافصول عن أعلام الفكر فى الغرب والشرق قديما وحديثا

« ولاشك فى أن القـارىء يخـرج من هـذه الفصول وقد أصـاب خظاً كبيرا من الثقافة ـ يثير فيه شوقا إلى التوسع والاستزادة ـ ولـكنه سيخرج منها قبل هذا وقد امتلأ رغبة قوية جريئة فى الاصلاح والتجديد قدر ما يستطيع وماتحسب أن الكاتب كان يستطيع أن يثير فى النفس هذه الرغبة لو لم يكن مؤمنا بآرائه مخلصا فى تبليغها ـ وأنا فى طورنا الجديد المليء بشتى المشا كل لفى حاجة ماسة إلى هذا الطراز من الـكتاب الذين «يحملون على رؤوسهم هموم الانسانية كأنها هموهم الخاصة »

مجلة الهلال اول مارس ١٩٣٧

« الاستاذ نقولا يوسف فى طليعة كتـابنا ذوى الأذهان المفتحة لتلقى كل جديد من الآراء الحديثة والافـكار الحرة التى تشغل اليوم العـالمين الاوربى والامريكى . والواقع أن ألوانا مختلفة من الثقافة تتجاذبه وفنونا منوعة من المعارف تحتل عقله . وفى وسعنا أن نقول أن كتابه معرض رائع من شتى الآراء والافكار المعبرة أتم تعبير عن روح العصر الذى نعيش فيه ـ فدراساته تنقلك فى لحظة من الشرق إلى الغرب ومن أمريكا إلى مصر . ومن بلاد الافارقة إلى أقاصى الهند وهكذا يقدم لك صورا مختلفة الظلال والتقاسيم من عوالم جدمتنافرة تمثل أمامك فى النهاية صورة مصغرة للعوالم كوحدة متماسكة كبرى .. وأبدع ما فى الكتاب سلسلة المقالات الخاصة بالادب المصرى والدعوة الى تحريره واستقلاله وأحكام الصلة بينه وبين البيئة التى تنبته والاتجاه به نحو المشـاكل الاجتماعية ودراستها

وتصويرها بحيث يستطيع الاديب أن يساهم بفنه فى انهاض بلاده ورقيها . ولا شك ان كتاب الحياة الجديدة يعتبر من أوفى وأجمل أعمال أدباء الجيل الجديد فى مصر

للاستاذ ابراهيم المصرى — مجلة الادب الحى أول ابريل ١٩٣٧

كتاب نسمات وزوابع

نشرته المطبعة العصرية لصاحبها الاستاذ الياس انطون الياس

الطبعة الاولي نوفبر ٩٢٧ صفحاته ٢٠٣ مزينة بالصور الرمزية

« ... ويحتوى الكتاب على خمس وخمسين قطعة من الشعر المنثور فى الحياة والحب والحكمة ، نشر بعضها فى السياسة الاسبوعية وليس بين قراء السياسة الاسبوعية من يجهل مقدرة الاستاذ نقولا يوسف على هز أوتار القلوب بمقطوعاته الشعرية ذات المعانى المبتكرة والخيال الرائع والاسلوب الموسيقى . وكل قطعة منها تدور حول فكرة فلسفية فى أطوار الحياة وتحليل العواطف البشرية والمظاهر النفسانية . فهى بذلك تختلف عن سائر الشعر المنثور الذى يكتبه أربابه جزافا فلا يحرك فينا ساكنا ولا يرشدنا الى مستور .. وهى قطع من صميم الحياة تسمعك صوت الامل واليأس وتصور لك الحب فى مختلف مظاهره وصوره وتناجى فيها الحكمة والالوهية والجمال والفن ، باسلوب متين سلس واضح العبارات وخيال سام وشاعرية حساسة متمردة وروح قوى صريح ونمط غير مقيد بأى نموذج آخر . ولعل كل قارىء يجد فى هذا الكتاب ما وجدناه من صورة نفسه وأمله ويأسه وبسماته ودموعه ونسمات حياته وزوابعها ويخرج منه كما يهب من حلم سحرى لذيذ ترقص فيه الالهة فى فراديس مجهولة لا يصلها غير الخيال النارى والنفسية الشاذة المشتعلة بحب الفن والجمال والغموض »

جريدة السياسة ٢٨ مارس ٩٢٨

« قلما يستطيع الانسان أن يقرأ الشعر المنثور مالم تتقن صياغته ويقتصد فى ألفاظه حتى تقوم العبارة مقام المثل فيشتمل على الحكمة البالغة فى أوجز لفظ . وهذا الكتاب من أرق ما قرأناه من الشعر المنثور . وقد عالج المؤلف أو بالاحرى مس كثيرا بريشته من الموضوعات مسا لطيفا فأسبغ عليها ألوانا وأضواء تترقرق فيها المعانى كما يترقرق الندى على الزهر اذا سطعت عليه أشعة الشمس فى الصباح وقد سبق أن نقلنا في العدد الماضي فصلا من هذا الكتاب عنوانه « كانا اخوة » وقد طبع الكتاب طبعا أنيقا وزين بالصور الفريدة التى تلائم الموضوعات »

مجلة الهلال أول ابريل ١٩٢٨

«..وقد امتاز هذا الكتاب بالاغراض الفلسفية التى رمى اليها وبتحليل العواطف النفسانية تحليلا بسيكولوجيا فى قالب شعرى سلس الاسلوب وبتصوير الميول والنزعات البشرية تصويرا رشيقا .. »

الاهرام ٢٦ ابريل ١٩٢٨

«.. وهو يحتوى على مواضيع عديدة فى مجارى الحياة وأحوالها مكتوبة بعبارة رشيقة تدل على أن الكاتب أفرغ عواطفه فى تلك المقالات الجامعة التى تأخذ باللب وتثير فى النفس عوامل مختلفة بل تثير الشعور والوجدان . وقد نقلنا عنه فى هذا العدد مقالة تدليلا على نفاسة الكتاب وعلو كعب واضعه فى مضمار الكتابة.. »

مجلة الاخاء أول مايو ١٩٢٨

«...مجموعة قصائد منثورة فى مواضيع عديدة فجاء كتابا اجتماعيا فلسفيا جميلا للغاية مطبوعا على ورق صقيل فى مائتى صفحة..»

جريدة صدي سوريا فى ٢٤ يولية ٩٢٨



كتاب الفردوس

نشرته مكتبة الوفد بالفجالة يونيه ١٩٢٢ صفحاته ١٦٠
« وحي الثامنة عشرة »

« ... يتضمن قصة شاعرية كثيرا ما نفتقر إلى أمثالها . تصف حياة شاعر من مولده إلى موته . وقد أتى فى سياق القصة على آيات جميلة فى الفن والحب والحب والحرية .. »

الاهرام ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢

«هذا كتاب آخر من الكتب الادبية البليغة وضعه الكاتب الرقيق نقولا يوسف ..وموضوعه قصة فى أحوال الحياة وآداب النفس وفضائلها وقد جمع فيه عدة أغراض شريفة بين أدبية واجتماعية تشف عن علم واسع وأدب غزير ... »

مجلة رعمسيس أول ديسمبر سنة ١٩٢٢

«..والذى استنتجته من قراءتى هو أن الفيلسوف الحق لا يمكن أن يخلو من الاهتمام القلبي حينما يرى شابا فى سن اقتناء النور يفهم شر الناس إلى درجة أن يتألم منه ويطلب لنفسه طريقا غير الذى يسير فيه الجمهور ويتوجه برقة شعوره نحو المحبة الصحيحة ويستريح بأن يتخيل علو الالهة ويقدر الجمال قدرا عظيما . فهذه الهيئات الروحية كلها دواعي ليحب فى شخصك الاله الذى صورك .. .

الداعى لك بكل خير
جالارثا

من الفيلسوف الكبير جناب الاستاذ الكونت دى جالارثا فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢

«.. تنفع قراءها إذا هم طالعوا ما فيها من نظرات شاب تشبع بالفضيلة وولع بمحاسنها فحث الناس على الولوع بما ولع به منها »

جريدة الافكار ٢ يناير سنة ١٩٢٢

«...أما الكتب التى تفضلتم باهدائها إلى فبديعة جدا أقل ما يقال فيها أنها تبشر بمستقبل فى الأدب باهر يملأ جنبات الفضاء ويغمر الأرض والسماء. ومن رزقه الله روحا قوية حساسة كروحكم وذهنا خصبا نديا كذهنكم فهو قمين أن يكون ذخيرة الامة فى مستقبل حياتها فليكن هذا رأيكم فى نفسكم وما أعان على بلوغ ذروة العظمة مثل الثقة بالنفس والسلام»

مصطفى لطفى المنفلوطى ٧ يناير سنة ١٩٢٣

«نموذج للادب العصرى والانشاء الراقى وضعه الاديب الناشىء نقولا يوسف فتفث فيه نفثة تلتهب فيها روحه ويتمشى فى أثنائها لهيب الشباب فعسى أن يجد فيه القراء ما وجدنا من نضرة الادب ومتعة الاسلوب»

جريدة ابى الهول ١٧ يناير سنة ١٩٢٣

«قصة جميلة تصفحناها فوجدناها باقة من أزهار شعر العواطف فى وصف حياة شاعر حرر نفسه من كل قيود العالم وبحث وراء السعادة واللذة الفنية وتتضمن القصة فى مجرى حوادثها الشاعرية آراء جميلة وآيات رقيقة لاسيما عن حياة الريف والمدن والحرية والحب والعزلة والجمال والفن فى نثر وشعر منثور»

جريدة مصر فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٢٢



كتب للمؤلف موضوعة للطلبة :—

* كتاب اليابان مارس ١٩٢١
* بطل تروادة — ملخص الأوديسيه فبراير ١٩٢٢
* توت عنخ آمون — ٣٢٨ صفحة كبيرة يوليه ١٩٢٦

كتاب العــــــالمية

بقلم نقولا يوسف

تحت الطبع

يبحث فى المبدأ القائل باتحاد الأمم وأخاء الشعــوب بحيث يصبح العــالم وطنا واحداً لجميع البشر

حلم المستقبل بامبراطورية الانسان

أول كتاب من نوعه باللغة العربية

وقعت أخطاء مطبعية قليلة في قصة «الهام» مما لا يخفى على القاريء . فنتعذر عنها


